مرآة العروس

تأليف: نذير أحمد الدهلوي
ترجمة: جلال السعيد الحفناوي
مراجعة: سمير عبد الحميد إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

أنا عاجز عن التلفظ بشكر الله الكريم، ولا أستطيع أن أوفيه حقه، فقد أسدي لعباده آلاف النعم وفمي الصغير لا يقدر على النطق بها.

و قدري ناقص لا يتأتى له الإرادة لمدح الرسول، وأزعم أنه كفارة عن لواعج القلب وشفاعاته، فمثل هذا الأمر مضني للروح واللسان.

بعد الحمد والنعت اتضح أن تعليم النساء غير رائج في معظم أرجاء هذه البلاد (الهند) ورغم هذا فإن هناك بعض نساء الأسر والعائلات العريقة في المدن الكبرى بشكل خاص يقرأن ترجمة القرآن الكريم وكذلك المواعظ والمسائل الدينية في المجلات الأردية، وأشكر الله على أنني أحد رجال هذه الأسر في دلهي، وطبقاً لتقاليد الأسرة فقد قرأت بناتي القرآن الكريم وتفسير معانيه والمجلات الأردية الصغيرة على كبار عجائز نساء الأسرة، وقد ذاع صيت القراءة والكتابة في المنزل ليل نهار، وكنت أري أننا معشر الرجال نرى أن البنات لديهن رغبة خاصة تجاه العلم، ولكني مع هذا كنت أدرك أن الأفكار الدينية البحتة (المجردة) لا تتناسب مع حالة الأطفال وأن المضامين التي هي موضع اهتمامهن تجلب لقلوبهن الكآبة وتنقبض لها طبائعهن ولا تشحذ عقولهن، عندئذ بحثت عن ذلك الكتاب الذي يمتلئ بالنصائح والأخلاق وفيه تلك الأمور والمسائل التي تعترض حياة النساء، ويبتلين دائماً بالمصائب والمعاناة بسبب أوهام النساء وجهلهن وقلة خبرتهن، وذلك إصلاحاً لأفكارهن وتهذيباً لعاداتهن بأسلوب جذاب بقدر الإمكان حتى لا تصاب منه قلوبهن بالملل ولا تضطرب له طبائعهن، ولكنني بحثت وتقصيت عن مثل هذا الكتاب في جميع المكتبات فلم أعثر عليه، عندئذ أعددت خطة هذه القصة وكنت في مدينة جهانسى في ذلك الحين وقد انقضت ثلاثة سنوات في كتابة قصة "اكبري" لتكون للبنات شغلهن الشاغل، وبدأ الوقت يقتضي الانتهاء من القصة كل يوم لدرجة أن أحوال "أصغري" دونت في غضون عام ونصف، وقد ذاع صيت هذه القصة في الحي بأسره، وبدأت النساء تتوافدن لسماعها، وفتن بها، وأرسلت العائلات والأسر الثرية والعريقة جادة في طلبها وكانوا يرغبون في نسخها، عندئذ اتضح لي أن هذه القصة مفيدة غاية الفائدة للنساء، وأنها تستقر في قلوبهن بمجرد قراءتها وسماعها، عندئذ قدمتها للحكومة عن طريق السيد مدير المدارس في الولايات الشمالية والغربية، فقدرتها الحكومة وأعزتني وضاعفت من قيمة هذا الكتاب وأهميته بما لا أستطيع وصفه، ولقد نلت

(وجدت) الإنصاف والعدل عن جهدي وهدفي على الوجه المرضي، وعلاوة على الوقت الذي كرسنه في تأليف هذا الكتاب فقد ظلت هذه القصة موضع رعايتي فترة من الوقت بهدف أن تكون هناك تعبيرات في لغتها ووضوح في أفكارها ولا يوجد أي دخل للتكلف والتصنع في أي من حوارتها، ولأنها قصة جديدة كل الجدة في بابها فلا عجب ألا يكون قد اعتورها نقص أو قصور، وأرجو أن يعذرني القراء لأن هذا أول مؤلف في موضوعه.

العبد

(النائب) نذير أحمد الدهلوي

(١)

مقدمة في أهمية تعليم المرأة

وبعض النصائح المناسبة لأحوالهن

ليس هناك أكثر حمقاً من المرء الذي لا يمعن التفكير في أحوال الدنيا، وهناك آلاف من الطرق والوسائل للتفكير في الدنيا ولكن أفضلها وأهمها بالنسبة لحالة الإنسان هو ذلك اليوم الذي يولد فيه الإنسان وما الأمور التي تواجهه في حياته ولماذا يغير من وضعه؟

تعد الطفولة أفضل مرحلة في حياة الإنسان، لأن الإنسان في هذا العمر لا يفكر في أي شئ، فالأب والأم يتوليان تربيته بحب وشفقة، ويوفران له الراحة بقدر ما يستطيعان، والآباء والأمهات يسعدون بتهيئة أفضل ملبس وأشهى طعام للأولاد، بل أن الأب والأم يستسيغون الألم والمعاناة من أجل راحة الأولاد، وعندما يصبح الرجال آباء فانهم يكسبون عيشهم من أي عمل ويحترفون أي حرفة كالتجارة والوظائف، المهم أنهم لا يقصرون في توفير المال بأي وسيلة من أجل راحة الأولاد، والنساء عندما يصرن أمهات يعملن بأنفسهن في بعض الأحيان عندما لا يكفي دخل الآباء لنفقات البيت فتعمل الأم منهن في حياكة الملابس، والأخرى في التطريز، وثالثة في وشى القبعات، وتغزل الأم بالمغزل لو واجهت محنة أو ألمت بها مصيبة، ويتربي الأولاد على مهنة الطهي، والحب الذي تمنحه الأم للأولاد ليس حباً مصطنعاً ولا تتظاهر به قط، بل حب قلبي صادق، وقد جبل الله تعالى، العالم العظيم – الأب والأم على هذا الحنان لتربية الأولاد، والأطفال يكونون بلا حول ولا قوة في بداية عمرهم فلا يتكلمون ولا يفهمون ولا يمشون ولا يتجولون، ولو لم يترب الأولاد على حب الآباء والأمهات لمات الأطفال جوعاً، فمن أين يجدون الخبز، وبأي طريقة تتوافر لهم الملابس وكيف يكبرون؟ وهذا الحب ليس وقفاً على الإنسان وحده فالحيوانات أيضاً تحنو على أولادها وتحبهم حباً جماً، والدجاجة تقبع طول النهار تخبئ صغارها تحت جناحيها، وعندما تجد حبة قمح فإنها لا تأكلها وتطعمها لصغارها بمنقارها، ولو حدث أن هاجمت صغارها قطة أو حدأة فإنها تقاتل وتموت ولا تفكر قط في حياتها، المهم أن هذا الحب الخاص قد منحه الله تعالى للأب والأم فقط لأنه ضرورة ملحة تتعلق بالأطفال الصغار، فيتناولون الطعام عندما يجوعون ويشربون عندما يعطشون، وينقذونهن من البرد ويحصلون على الملابس الثقيلة وكل وسائل الراحة في الوقت المناسب ويتضح هذا الأمر بالمشاهدة حيث يظل هذا الشوق حتى ذلك

الوقت ما دام ضرورياً للأطفال ويحتاجون إليه، وعندما يكبر بغاث الطير فإن الدجاجة تكف عن إخفائهم بين جناحيها، وعندما تمشي فراخها وتغدو حواصلها بطاناً فلا تساعد هم الدجاجة قط، بل إنهم عندما يكبرون أكثر فإنها تضربهم وتتسابق معهم وكأنها ليست أمهم، وهذا الحال هو نفسه بالنسبة للأب والأم عند الإنسان، فعندما يكون طفلاً رضيعاً ترضعه الأم وتحمله في المهد وتتجول به، ويجافيها النوم وتربت على الطفل وتهدهده، ثم تنيمه، وعندما يشب الطفل على الطوق قليلاً، تبدأ في إطعامه الكشري، إن لبن الأم يحميه تماماً، وهذا اللبن الذي ترضعه إياه لسنوات وسنوات لا ترضعه بقسوة وشدة، ويأبى الطفل الأشياء المرة فتوبخه وتزجره، وبعد عدة أيام يكون هذا هو حال الأطفال فلا يستسيغون البقاء في المهد، أ لم تر أخاك الصغير وأختك الصغيرة يتقاتلان حول هذا الأمر فلا ينزلان من على حجر الأم، وتغضب الأم لان مثل هذا الطفل لا يريد أن يتركها للحظة، فلا تحسبن أن حب الأم لا يدوم بسبب هذه الأمور، كلا فالحب كما هو، ولكن هناك شكل خاص من الحب يتناسب مع كل حالة فلا يظل حال الأولاد على وتيرة واحدة، فهم يرضعون اللبن اليوم، وغداً يبدأون في تناول الطعام، ثم يتعلمون المشي، وبقدر ما يكبر الطفل فإن نوع الحب يتغير بنفس المقدار، وبعد أن يكبر الأولاد والبنات يتعاركون من خلال العمل والقراءة والكتابة مع أن الأولاد لا يدركون بسبب حماقتهم، ولكن المعاناة التي تتكبدونها على أيدي الآباء والأمهات من المؤكد أنها تعود بالفائدة عليكم، وسوف تعيشون أياماً طويلة في الدنيا بعد أن تنفصلوا عن الآباء والأمهات، إن أبا المرء وأمه لن يبقوا أحياء طوال عمره، والسعداء هم أولئك الأولاد والبنات الذين يتعلمون الآداب والفنون في حياة الأب والأم، مما يجعلهم يقضون معظم حياتهم في راحة وسعادة، والتعساء هم أولئك الأولاد الذين لا يقدرون حياة الآباء والأمهات والراحة التي تتيسر لهم بسبب الآباء والأمهات بل أنهم يضيعون أفضل أوقات الفراغ والطمأنينة وهدوء البال في الكسل واللعب واللهو فيعانون طوال العمر من الآلام والمحن، وهم اليوم في عذاب مقيم وقد تعذب الآباء والأمهات بسببهم ومن أجلهم، وحفلات الزواج لا تتوقف بالموت، وتتحرر حياة الخلف من الأولاد من الأب والأم، ويجب على الأولاد والبنات التفكير المتمعن تجاه الخلف المنفصل عن الأب والأم وكيف ستمضي حياتهم.

إن هناك عبء ثقيل على عاتق الرجال في الدنيا، فالطعام والملابس والنفقات اليومية كلها أشياء تتأتى بالمال، والمال هو الدافع لجميع الأشياء، ومن حسن حظ النساء أنهن بمنأى عن بذل الجهد لتوفير المال، انظروا إلى

الرجال كم يعانون من الصعوبات والمحن من أجل المال، فأحدهم يحمل على عاتقه حمل ثقيل والآخر يشق الأخشاب والبعض يعمل حداداً وحلوانياً وزياتاً وبائع تنبول ونحّاتاً وزجّاجاً وترزياً وصانع أحذية وغيرها من الحرف العديدة والمختلفة ولا يخلو أي عمل منها من جهد عقلي وجسماني ويتحمل الرجال كل هذه المشاق من أجل المال ولكن يجب أ لا نفهم من هذا الأمر أنه لا يوجد أي عمل منوط بالمرأة في الدنيا سوى النوم وتناول الطعام بل إن النساء يقمن بجميع أعمال إدارة شئون المنزل ومن صالح الرجل أن يضع المرأة أمامه في المقدمة، والنساء يتحملن بعقولهن التنظيم والترتيبات، ثم إنك لو نظرت بإمعان لو جدت أن عربة الدنيا لا يمكن لها أن تسير ما لم يكن الرجل أحد عجلتيها والمرأة العجلة الثانية، والرجال من أجل كسب المال ليس لديهم ما يقتصد ونه من الوقت لتكريسه في أعمال المنزل، فيا أيها الفتيان عليكم أن تدركوا هذا الأمر، وتعملوا به عندما تصبحون رجالاً، ويا أيتها الفتيات عليكن أن تحترفن حرفة أو مهنة تكون لكن بها فائدة وسعادة عندما تصبحن نساء، ولا غرو أن الله تعالى قد خلق المرأة ضعيفة مقارنة بالرجل، لكنه منح النساء يدان ورجلان وأذنان وعينان وذاكرة وإدراك وفهم وكل هذه الأشياء بالتساوي مع الرجال، الفتيان يستعملون هذه الأشياء في اكتساب كل فن وتعلم كل حرفة، والفتيات يضعن أوقاتهن في سماع القصص واللعب بالدمى وهكذا يصبحن عاطلات فالنساء اللاتي تقدرن قيمة الوقت وتكرسه في شئون عملهن، فيتعلمن مهنة وينلن القبول فيها فإنهن لن يقللن بأي حال من الأحوال عن الرجال، انظروا إلى الملكة فيكتوريا وهي امرأة كيف تأتّى لها حكم وإدارة مثل هذا الملك الشاسع باقتدار وشهرة وعظمة وأبهة لم تكن من نصيب أي ملك في العالم حتى الآن، فعندما تكون مملكة إحدى النساء تتطلب هذا العمل الشاق والمملكة ما شاء الله بهذا الاتساع فإن ما كانت تتفوه به في مثل ذلك الوقت الحرج كان كتاب الصحف يتلقفونه، إن توليها زمام الحكم خلال هذه الفترة الطويلة وتسييرها دفة الحكم على أكمل وجه يجعل من الحديث الآن عن موهبة النساء محض ظلم وافتراء.

و تعتقد بعض النساء الغافلات أنهن بعد أن يتعلمن تتولين الوظائف مثلنا معشر الرجال، ولكن توظيفهن ليس هو الهدف الوحيد من تعليمهن فهناك فوائد جمة يمكن لهن أن يجنينها، ولا تمثل الوظيفة في الحقيقة شيئاً مقارنة بها، فالناس الذين يتعلمون العلم باعتباره وسيلة للوظيفة فحسب، لا يقدرون قيمة العلم، حقاً إن الوظيفة أمام العلم مثلها كمثل ---------- للتجارة، فمن أين أوتي بمجامع الكلم لأنصحكم بفوائد العلم فهي تكشف عن

عينين لي ولك في وجوهنا، ألم تسمع صوت فقراء العميان وهم يقولون بحسرة: "العينان نعمة كبرى" لعله ليس هناك قاسي القلب الذي لا يرحم عجز العميان وقلة حيلتهم، ولكن القلوب العمياء التي لم تؤت نصيباً من العلم أنى لها أن تكون أكثر رحمة؟ لقد قام الإنجليز في إنجلترا بترتيبات جيدة لتعليم العميان حتى أن العميان يقرأون جميع الكتب والصحف بطريقة جيدة من خلال تحسسهم لها بأيديهم دون عناء، ولدينا بعض العميان أيضاً يفكرون في مثل هذا البلاء فيتجولون ويدورون بجرأة في شوارع المدينة وطرقاتها بمفردهم، ويميزون النقود الزائفة، ويحفظون القرآن وكأنه أمر معتاد بالنسبة للعميان، وقد أحصينا عدد العميان في المدينة قبيل الثورة فكانوا بضعة مشايخ من العميان الكمه، وخلاصة القول أن عمي العينين مصيبة ولكنها ليست مثل عمي القلب (أي الجهل)، ولكن للأسف أن الناس لا يقفون على عيوب عمي القلب، ولهذا السبب فإن متعلم واحد لا يلوح للنظر خلف الآلاف من العلماء والفضلاء.

لقد ذكرنا الرجال الذين يتعلمون من أجل كسب العيش، ولكن تعليم النساء قليل إلى هذا القدر، بحيث أنه من الصعب أن تجد في مدينة غادرة مثل دهلي نحو مائة أو مائة وخمسة وعشرون امرأة يعرفن القراءة، ونستطيع القول أن تعلمهن غير ذائع الصيت، ولو لم يكن ذا شهرة فلا بأس في ذلك، والمصيبة أن أكثر النساء يعتقدن أن القراءة والكتابة عيب وخطيئة، وكن يخشين ألا ترتدي النساء النظارات بسبب التعليم، وتتراسلن مع رجال أجانب، ويقع خلل ـ لا سمح الله ـ في عفتهن وهتك أسرارهن، وهذه مجرد وساوس شيطانية، ومن سوء حظ الناس أنهم ينخدعون وتثور ثائرتهم وخاصة نساء هذه البلاد، وبادي ذي بدء نستفسر قليلاً عن هذا الأمر وهو هل العلم يصلح الإنسان أم على العكس من هذا يعلمه العادات السيئة والسلوك الفاسد؟ فلو أنه يفسد إذن يجب علينا منع الرجال من التعليم كذلك حتى لا يحيق بهم الفساد وعندما يفسد الرجال فإن فسادهم سيؤثر أحياناً في النساء، ثانياً شرط العدل وهو أنه لا شك أن بعض المتعلمين من الرجال مستهترون وسيئو السلوك ولكن هل العلم علمهم الاستهتار وسوء السلوك؟ كلا فقد تعلموا الاستهتار وسوء السلوك من صحبة السوء وبدءوا يفرون منهم كالجرب والجذام، ومن مساوئ التعليم أنك من المؤكد لن تشبع من القراءة، ومع كل هذا فإنك على سبيل المثال لو ألقيت نظرة على مائة متعلم لو جدت أقلهم شريراً وأكثرهم بإرادة الله خيرون وشرفاء، وموقرون للأباء والأمهات، ومحبون للأخوة والأخوات مدركين لمكانة الصغار والكبار، وهاربون من صحبة السوء ومبهوتون من الفساد، مؤدون للصلاة

صائمون، يقولون الصدق، ومترفقون بالفقراء، ومتبعون لنصيحة الكبار، مراعون للحياء، وستجد الآكلين المرتدين يؤدون الشكر كلما تيسر لهم الطعام والملابس، ولقد مر بنا طوال عمرنا أمثال هؤلاء الناس، ونقول لكم بكل صدق أن الشخص الذي يحقر من قيمة العلم كأنه يبصق على السماء، وينثر الرماد على القمر، ولا شك أن بعض شرار الناس ينشرون في العالم كتباً سيئة، وهذا النوع من الكتب نادرة في الأردية وإن وجدت فهي خارج المقررات الدراسية وأن قراءتها وسماعها شقاء في حق الجميع سواء الرجل أو المرأة، ولكن من منطق أن العين تقع على المكان السئ أو أن يخرج من اللسان بعض اللعنات غير اللائقة أو يقولون الكذب ويقسمون بلا داع أو أن يجلس الناس يتباكون على مساوئهم ويقولون الغيبة والنميمة فلم تفقأ أعينهم ولم تقطع ألسنتهم، فما تقصير العلم في ذلك؟ فهل من أجل اللغو وعلى أساس شك في غير محله تحرم النساء من فوائد دينية ودنيوية لا حصر لها؟ أ لم يكن من الممكن أن لا تسقط هذه الكتب الفاحشة من أعين النساء؟ علاوة على هذا فقد جبل الله قلب الإنسان على الحرية وعندما يجبر الإنسان على عمل ما فإنه يؤدي هذا العمل مكرهاً ولكن ليس بإتقان وبجودة مثلما يمليه عليه قلبه، فشتان بين رغبته وبين قهر الآخرين. فعلى سبيل المثال هناك بعض الأولاد ليس لديهم الرغبة مطلقاً للقراءة تلقائياً ونتيجة لهذا يكونون جهلاء وبلا إدراك ولا يعلمون إلى أي مدي ستطمئن قلوبهم الآن بعد التعليم وستظهر نتيجة عملنا عندما نكبر، وسيكون لنا عزة وكبرياء في الدنيا، وسيجعل الله منا أمراء عن طريق بضع كلمات وسوف يبجلنا الناس ويحترموننا، ويكون لنا الحسنى في كل من الدنيا والدين، فمثل هؤلاء الأولاد ممن ليس لديهم الرغبة لن يذهبوا إلى المدرسة بشوق قط، وإن أجبرتهم الأسرة وأكرهتهم على ذلك، أو جاء إليهم تلاميذ المدرسة وشجعوهم واصطحبوهم معهم فيذهبون مرغمين، ويجلسون بلا حماس ورغبة، ثم يحصلون على الإجازة، ويعودون جهلاء، ما قرؤوا شيئاً وما كتبوا شيئاً. والفئة الثانية من الأولاد هم الذين من حظهم كتب الله عليهم التميز والأفضلية، فيذهبون عدواً إلى المدرسة قبل الوقت دون أن يدعوهم ولا يرسلهم ولا يقول لهم أحد، فيذهبون ويتعلمون ويقرؤون ويطالعون ويدرسون ويظلون مواظبين حتى آخر الوقت. والآن تسألون أي أمل يرجى من هاتين الفئتين من الأولاد؟ فبعد أن تعلموا سوف ينجحون في الامتحان ويجلسون في بيوتهم وسيستدعون للوظائف وهم ليسوا في حاجة إلى مزيد من التفكير، ولا غرو أن شوقهم قد سمي بهم.

و كذلك فإن الطيبة والعفة والعصمة والحياء في نسائنا فضل من الله وكرم حباهن به، ولكنهن مجبورات على فعل الخير أو الشر أي أن الدين والعادات والتقاليد الوطنية وسيطرة الرجال تكره النساء على فعل الخير، ولكن لو أن الخير ينبع من قلوب النساء أنفسهن يكون هذا "سجان الله نور على نور" وذهب خالص لا نزجو خيراً منه؛ فليس هناك أي حيلة أخرى سوى العلم لخلق مقتضيات الخير وبواعثه في القلب، ثم إن الناس الذين يريدون حرمان النساء من العلم كأنهم يمنعون قلوبهم من الطيبة والصدق والإخلاص والوفاء والطهر والصدق، ومن ثَمَّ فنحن نرى أن القوي المفيدة للعلم هي أن يتساوى الرجال والنساء فيما بينهم، ونعلم من هذا أن الله تعالى لم يخلق النساء لكي يبقين جاهلات، وفي هذه الحالة ما ضرورة العقل بالنسب للنساء؟ ثم إن العقل الذي منحه الله للنساء منحه لهن من أجل إنجاز عمل عظيم أي لتحصيل العلم، ولكن لو لم تستخدم النساء عقولهن من أجل تحصيل العلم يكن مثلهن مثل النساك الهندوس الذين يبطلون الحكمة الإلهية بأيدهم بعد أن يتعلموا، فهل البطالة وجفاف يد صاحبها أفضل؟ أم استخدامها في عمل الخير؟ إن من الأفضل نيل ثواب الدين وفائدة الدنيا، ولعله ليس هناك كلام أفضل من هذا لإقناع المسلمين، كانت السيدة عائشة والسيدة حفصة من وجيهات نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن المحظيات لديه وذات يوم كانت كلتاهما تجلسان تتجاذبان أطرف الحديث، فإذا بالرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد خرج وتحدث مع السيدة حفصة مشيراً إلى السيدة عائشة قائلاً: علّميها الكتابة بكل حيلة، فقد أعفيت النساء من كثير من أعمال الدنيا بسبب التحجب ولكن تذكري أن النساء ليست عاطلات تماماً.

و لا يمكن أن تستقيم أمور إدارة شئون المنزل يوماً واحداً بدون المرأة، ومهما كان الرجل ذكياً لا يمكن له أن يدير المنزل دون مساعدة المرأة، ولهذا السبب يعبر عن وفاة المرأة بخراب المنزل، ولو أن هناك عمل مفيد في الدنيا فمن المثير للدهشة أن إدارة شئون المنزل عمل ثقيل وشاق إلى درجة أنه لو أسند للرجال لما صار توليهم له مفيداً، وتقول الملائكة أن البشر غير معتادين التفكير وإمعان النظر في شئونهم، ولا ينظرون يميناً أو يساراً للطريق الذي مهده لهم السابقون خيراً أم شراً، وأنهم يسيرون معصوبي العينين كالأغنام، إننا نتحدث بأفواهنا عن إدارة شئون المنزل ككلمة واحدة ولكن لو تنظرون معناها ومغزاها لو جدتم أن إدارة شئون المنزل وإدارة شئون الدنيا شئ واحد رغم وجود نحو خمسة عشرة أو عشرون فرقاً، فالذين يعلمون في إدارة شئون المنزل لا يمكن

لقائمتهم أن تنضبط ويعلم الله كم من متاع في المنزل لديهم خبرة به؟ مثل الخياطة والتطريز والطهي والطحن ومعرفة شجرة الأنساب والتجاور والضيافة، والاحتفالات والمآتم والأفراح، ولكن تربية الأولاد أيضاً تدخل في نطاق إدارة شئون المنزل، وربما العلم غير ضروري للمرأة لإنجاز أي أعمل، ولكن من المستحيل تربية الأولاد كما يريدون بالجهل، الأولاد يتربون في المنازل حتى العاشرة من عمرهم والبنات حتى الزواج وبالتالي تؤثر فيهم تربية الأمهات، فيا أيتها النساء! إن حياة أولادكن القادمة من اختياركن، سواء كانت مثل هذه الرغبة السامية والفكرة الجيدة في قلوبهم منذ البداية فيكتسبون السمعة والشهرة بعد أن يكبروا فيشكروكن بعد أن يعيشوا في رخاء وراحة طوال العمر أو أن يكون فشلهم بسبب خلل أو نقض ويكبر بقدر ما فيتعلمون السلوك الفاسد ويتأسفون على هذه البداية حتى نهاية عمرهم.

وعندما ما يبدأ الأولاد الكلام ويكتسبون مادة للتعلم، فإن الأولاد يتعلمون منذ ذلك الوقت لو كان لدي الأمهات المقدرة والأهلية لذلك، والأولاد يضيعون عدة سنوات في انتظار إرسالهم إلى الكتاب أو المدرسة، والأولاد أنفسهم لا يرغبون في الذهاب إلى المدرسة في الأعمار الصغيرة جداً، كما لم تطب نفس الأمهات لذلك ولا تحبذه، فالأطفال الصغار الذين لا يقدرون حتى الآن على التحكم في حاجاتهم يوضعون تحت قيود الأستاذ، ولكن لو ترغب الأمهات فيمكن لهن تعليمهم الكثير في ذلك الوقت لأن الأولاد يدرسون بلا حماس ورغبة لفترة من الوقت بعد جلوسهم في المدرسة ثم يتطور استعدادهم في وقت طويل، وفي كل هذا الوقت فإنهم من المؤكد يمكنهم تلقي الكثير من العون والمساعدة من أمهاتهم، أولاً من أين لهم مثل شفقة الأمهات وتفانينهن؟ ثانياً بقاؤهن بجوارهم ليل نهار بشكل مستمر، ويقمن برعايتهم عندما تستوجب طبائعهم ذلك على الفور، ويذكرنهم وينصحنهم ويخبرنهم بالفرق بين الشرق والغرب، وما يتعلمونه في معرض حديث الأمهات إلى جانب الرقة في تعليم الأمهات تبعد الوحشة والرهبة من طبائع الأولاد وتنمي الرغبة لديهم، ومن صلاحية الأمهات الحفاظ على حياة الأولاد وتدبير تربيهم وتهذيبهم، ولو كان هناك نقص في هذه الملكة - لا سمح الله - فإن الأولاد يواجهون المخاطر في حياتهم، ومثل هؤلاء سيكونون تعساء، من الذي يتحدث عن حب الأمهات؟ إن هذا الحب ذاته لو يكون مع جهل فمن الممكن أن يلحق بهم الأذى والضرر بدلاً من المنفعة، ولو عدلنا قليلاً أ ليس هناك آلاف الأمهات جاهلات وناقصات عقل يعتبرن كل مرض يصيب الأولاد هو من مس الجان وظل العفاريت

ويرقينهم بدلاً من الدواء؟ وإلا ما اعتبرتموه علاجاً مناسباً، ونخلص من هذا إلى أن جميع إدارة شئون المنزل، بل نقول أن صلاح إدارة شئون الدنيا مرهون بالعقل والعقل مرهون بالعلم، وأن هذه المقولة التى سيسلم بها كل فرد هي: إن أعظم فضيلة يجب أن تتحلى بها النساء هي الوعي والتذكر، وبذلك يظل راضياً عنها وتجعلها راضية وسعيدة.

ولعلكم سمعتم عن أحوال الجنة والنار، صحيح أن الجنة والنار من ملامح العالم الآخر لكننى سوف أكشف حقيقتها لأعقابي، ولكن مشاهدها وصورها موجودة في كل بيت من بيوت الدنيا ويعرفونها فالبيت الذى فيه حب وإخلاص بين الزوج والزوجة يعيش فيه الزوج والزوجة بحب ووئام، ويعتبرون الدنيا بالنسبة لهم جنة، ولكن لو كان هناك شجار وعراك في أكثر الأيام ولا يرضون عن هذا ويغضبون من ذلك فكأن كلاهما يعيش في جهنم، فبالتوافق يتم التغلب على جميع المحن، بل لا نشعر بمساوئها، وليس في الحياة أي متعة ما لم يكن هناك توافق، ومن الطبيعي أن النساء هن أكثر اهتماماً بالتوافق ولهذا فإن النساء كفتهن خفيفة مقارنة بالرجال، إن بعض الذين يسيرون على الطريق لا يسلمون منه، ونحن عرضة للموت والزوال وإن التدابير التي تتخذ لخلق التوافق هي من سلطة النساء، وتعد الكفاءة في مفهومنا أفضلها على الإطلاق، فالفتيات لا يتحدثن خجلا ولكن من المؤكد أنهن يعرفن في قلوبهن أنهن سوف يتزوجن في النهاية بعد أيام قليلة أخرى، وسيحيون حياة جديدة تماماً بالزواج، وكما ترون بالنسبة للأم والعمة والخالة وجميع نساء الأسرة فإن وقت العزوبة قصير جداً، وتنقضي أكثر أجراء هذا الوقت في الوقاحة واللامبالاة، وسيحل ربيع الحياة فيما بعد وهو ممتلئ بالعديد من المشاجرات وأنواع المتاع المختلفة، والآن عليك أن تمعني التفكير ألم تكوني فتاة فريدة حتى تهربين عقب الزواج لقد واجهتن مشاغل الحياة، وسوف تواجهنها أيضاً فعليكن التفكير بأي طريقة كانت النساء المتزوجات قبلكن يعشن حياتهن وكيف كن يحترمن وإلى أي مدي كان الرجال يحتفون بهن، ولا تنظرن إلى بعض الحالات الخاصة عند الناس، وفي بعض المواضع يزداد الوفاق بالصدفة فتتغلب المرأة على الرجل، وعندما ما يزداد عدم الوفاق لا تقم للمرأة قائمة، وهذا الأمر مختلف، فانظر إلى الأعراف العامة والتقاليد السائدة في البلاد فإنه طبقاً للعرف العام فإننا لا ننظر باهتمام إلى النساء ونلقبهن بناقصات العقل، وهذه الأقوال تتناقلها ألسنة الرجال، ويوجد في القرآن الكريم تنديد بمكر النساء (إن كيدهن عظيم) أي أن الرجال يعلمون أن النساء غادرات بطبعهن:

- انظر إلى وفاء السيف والمرأة والفرس.

و قد هجا أحد الشعراء النساء بسبب تسميتهن:

- لو كانت عاقبة النساء خيراً، لما كان اسمهن نساء.

كل هذه الأقوال مكتوبة في الكتب، وانظر إلى معاملتها في إدارة شئون المنزل فإنه لا يوكل إليهم أي عمل جاد في الدنيا خلافاً لتسير أمور المنزل، فهل تشرك النساء عند التشاور والتباحث حول موضوع هام؟ ففي البيوت التي تلقي فيها النساء التبجيل والاحتفاء أحياناً يستشرها الرجال في الأمور الهامة، وتترك أي عمل عظيم من صلاحيتها، فيا أيتها النساء! ألم تجلب لكن مثل هذه الأحوال التعاسة في الحياة؟ ألم تتأسفن على عدم توقيركن وعدم الاعتداد بكن؟ وهل لا ترغبن في أن تكن محترمات في أعين الرجال؟ وهل لا تعتمدن ولا تثقن في عقولكن؟ إنكن تفقدن وقاركن بأيدكن وتسقطن من نظرهم. إن لديكن كفاءة ربما لا يفكر فيها الرجال، ولديكن المقدرة التي ربما لا توجد عندهم. المشكلة أنكن تدركن أن كفاءتكن في الطهي وإعداد الخبز. إن قدركن على قدر كفاءتكن، أنتن بالفعل في حالة من الجهل وسوء العقل والمكر والخداع فلو ألصقت بكن تهم الدنيا بأسرها فمن الواجب عليكن أن تزلن المساوئ من العالم كله، أيتها النساء إن الرجال يأنسن بكن وأنتن ثروة حياتهم والحديقة والربيع لعيونهم، أنتن تضاعفن سعادتهم وتقللن من أحزانهم، ولو كان لكن ما للرجال من ذوق في إدارة الأعمال الكبرى لجثت الرجال على أقدامكن وجعلوا منكن تاجاً ووضعوه على رؤوسهم، فهل حزنهم أفضل منكن. وهل استشارتهم أفضل منكن؟ وهل نصحهم أحسن منكن؟ فما عساه يكون؟ ولكن إن كان في وسعكن اكتساب سليقة للأعمال الكبرى فلماذا لا تفعلن؟ أنتن تسجن أنفسكن بين جدران البيت الأربع، ولا تلتقين بأحد، ولا تتحدثن مع أحد، فالإنسان يتعلم من الإنسان بالسليقة أو بالعقل، والناس يكتسبون السليقة والعقل بعد التعلم والذين لم يتعلموا يلتقون مثل آلاف البشر، ويستمعون لعشرات الأنواع من الأحاديث، فلا أمل لتخلصكن من هذا الحجاب، إن الكثير من عاداتنا وتقاليدنا الوطنية وكذلك الدين بقدر ما يجعلون من ارتداء النساء للحجاب فرضاً وواجباً، ومن الضروري الالتزام بهذه العادة الآن، فهل هناك حيلة لتنمية عقولكن غير التعليم؟ بل إن تعليم النساء أكثر أهمية بالنسبة للرجال.

فالرجال يكتسبون الخبرة أيضاً بعد أن يختلطوا بالناس ويمكثوا ويتجولوا ويمشوا ويخرجوا، وأنتن ماذا ستفعلن بالجلوس في المنزل؟ وماذا ستخرجن من صدوركن وعقولكن؟ وهل ستحصلن على الخبرة من حجرة الغلال؟ فلتحافظن على الحجاب ولتتعلمن القراءة والكتابة، ولتتنزهن في

سائر أنحاء العالم، ولتصلن العلم كي تعرفن الأحاديث التي تدور في البيوت في كل وقت، ولتدركن أن الدنيا ليست عبارة عن بضعة بيوت تعيشون فيها وتترددن عليها، وليست مقصورة على دهلي والمدن القليلة حولها، والتي سمعتن أسماءها، حسناً فليس هذا موضع وصف أحوال الدنيا بأسرها، ولو كان لديكن الرغبة فإنكن بعد التعلم يمكنكن التنزه في كتب التاريخ والجغرافيا وستعرفن كم هي كبيرة الدنيا، وكم يحدث فيها من تصاريف، على كل حال فإن السائد في ذلك الوقت أن الهند بأسرها قد استولى عليها الإنجليز وقد تعلم جميع طوائف الشعب عندهم، الرجل والمرأة، الغني والفقير، والموظف والحرفي والتاجر وصاحب الحرفة، والصانع والإقطاعي والمزارع ولهذا السبب منحهم الله الرقي والتقدم، فأين بلادهم انجلترا وأين الهند؟ إن المسافة الفاصلة بينهما سبعة آلاف ميل يتخللها بحار، ولكنهم وفدوا إلى هذه البلاد بقوة العلم وقد تطوروا وتقدموا بهذه الدقة والروعة بسبب قوة العلم وسلطانه، فلا تدانيها على وجه البسيطة أي مملكة في التنظيم العدل والأمان، ويقولون: وحقا ما يقولون أن العالم والقاضي والملك الورع يحبون رعاياهم أكثر من أولادهم ففي الوقت الذي وطئت فيه أقدام الإنجليز هذه البلاد فإنهم قد تصدوا لهذا الأمر منذ ذلك اليوم، وهو تعليم شعب الهند وأن يكتسبوا الكفاءات ويبتعد عنهم الفقر لأن الظلم والقهر ليس من عادة الإنجليز فقاموا بتوعيتهم وتشجيعهم وظلوا يطورون العلوم ويفتحون المدارس من قرية إلى قرية، ويمنحون المتعلمين المنح والوظائف والناس الذين ينجحون في الامتحان يجدون الوظائف ولذلك فمن فضل الله تعالى أن التعليم قد لاقي قبولاً واسع النطاق إلى هذا الحد، وهناك خطة لتعليم الغسال والسقا، وحتى العامل فهل ستبقي هناك كرامة للجهلة وغير المتعلمين من أشراف الناس سواء من الرجال أم النساء؟ فهناك آلاف الأنواع من الأشياء الجديدة التي أنجزها الإنجليز، ومن بينها القطار الذي يعد من أعظم الأعمال وأعجبها فعن طريقه نطوي أسفار الشهور في ساعات وذلك بسهولة وراحة من سفر إلى سفر ومن نزهة إلى نزهة ولهذا السبب نفسه فإن الناس الذين كانوا يضطربون من عمل الغربة أخذوا الآن يبحثون عن مبررات للسفر، ومن الأمور التي نتذكرها أنه عندما كان أحد يرغب في الحج كنا نفهم أنه يخرج من المنزل ولا يعود إليه، أما الآن فإنه يخرج من بيته في ذي القعدة مستقلاً القطار والسفن البخارية، ويعود بأمان إلى موطنه بعد زيارة كل من مكة والمدينة في نهاية شهر محرم، ومن النادر والشاذ أن يوجد في أي بيت من البيوت وظيفة وحرفة ولم يسمعوا عن الغربة والمهجر ولكنهم لا يدعون العلاقة التي بينهم

وبين الغربة، وذات مرة صادفت أياماً طويلة من العطلات فانظر المسافة الفاصلة بين دهلى وجوركهبور! فبالرغم من أنه لم يكن هناك قطار باستمرار من جوركهبور إلى دهلى فإننا أقمنا في دهلى خمسة أيام كاملة وذهاباً واياباً في غضون عطلة ثمانية أيام، فانظر ما أعظم إنجاز الإنجليز لقد استرحنا، المهم أنني كنت أحضر إلى دهلى في أيام العطلات، وإذا بسيدة قد حضرت إلى لتملي على رسالة باسم زوجها، وقد كتبت ما أخبرتني به، وكانت هناك الكثيرة من الأحاديث تتردد على لسانها ولكنها لا تستطيع التفوه بها، فلم استمر للنهاية ونصحتها قائلاً: إن الله قد كتب عليك الرزق في الغربة وهذه الغربة ليست شهراً أو شهرين، بل طول العمر فلماذا لا تتعلمين الكتابة؟ فقالت بحسرة شديدة: حسناً إنني أقضي خمسة عشر يوماً من العمل المتواصل في شعر الأطفال ولم يأت الدور على بعد لكي أغسل رأسي، وقد قرأت القرآن في مرحلة الطفولة وأشكر السيدة الأستاذة لأنني لم أنس القرآن بفضلها، ولكن المشكلة أنني عندما أذهب مع الأسرة إلى مكان ما وأترك القرآن لمدة شهر فإنني أنسي القرآن كله، وبعد أن سمعت هذا قلت لها ما دمت تحفظن القرآن فإن تعلم الكتابة ليس أمراً صعباً، فلو أنك واظبتي على ذلك ساعة كل يوم فستنجزين هذا العمل في غضون شهرين أو ثلاثة، وفي النهاية تقرئين الأردية، فقالت: نعم، مهما يكن من أمر فإنني أتلعثم في الكلام وتبقي أكثر الألفاظ مختفية وأنتزعها بشكل خاص. فقلت: أنت لست في حاجة إلى أستاذ، فتنقلين العبارات وتتعلمين الكتابة، اقتنعت السيدة بكلامي من قلبها، ولكن تملكها الحياء عندما بدأت الكلام، ومع ذلك أخذت بيدها وشجعتها وقلت لها إن تكن لدنيا حاجة عند الآخرين فإننا نتملق الآخرين، فأنت لا تخجلين من كشف أحوالك بعد أن كانت محجوبة عن الآخرين وتخجلين من تعلم الكتابة؟ فهل في الكتابة أي عيب أو ذنب؟ وقد علمت بعد ذلك أن تلك السيدة لم تمل خطابها على أحد ومن ثم فقد صار لديها الرغبة في الكتابة حتى أنها الآن قد تولت كتابة الرسائل للسيدات اللاتي أزواجهن في الغربة.

إن الناس يسيئون إلى سمعة الكتابة بغير حق، والمشكلة أنها ليست صعبة، ولكن هب أن هناك قدراً من الصعوبة في الكتابة بالنسبة للقراءة فإنها تكون كذلك بالنسبة لمؤلفيها، فالشخص الذي يعرف القراءة ولا يعرف الكتابة يكون مثله كمثل الأبكم الذي يسمع الآخرين ولا يستطيع الكلام، فلو أن هناك شخصاً ما أخذ ينقل في البداية من كتاب ما سطر أو سطرين كل يوم ليس أكثر ولا يخجل ولا يتردد في الكتابة والنقل والإصلاح والكتابة بعد أن ترسخ في الذهن فمن المؤكد أنه سيتعلم الكتابة في بضعة أشهر،

وليس الغرض من الكتابة تحسين الخط، فالكتابة فن يفيد كثيراً وقت الضرورة فلو أخطأتن في الكتابة وكانت الحروف قبيحة أو غلط فلا تبتئسي ولا تتوقفي عن التدريب، فكل عمل يكون غير متقن في البداية، فالمشي والتجول الذي هو الآن بالنسبة لكن سهل فتركضين وتتجولين بلا صعوبة، فإنكن ربما لا تتذكرن بأي صعوبة قد تعلمتن ذلك، ولكن أمهاتكن وآبائكن وكبار الأسرة يتذكرون ذلك جيداً، فلم تكن تجلسن في البداية بلا اتكاء وعندما كنتن تردن النزول من المهد لتجلسن تحته كنتن تصيحن على أحد الناس أو أن تستندن على الوسائد والتكايا ثم تسقطن وتتعلمن المشي لساعات ثم تنهضن بعد أن تمسكن في السرير ثم تبدأن في المشي تدريجاً بعد أن تصبح أقدامكن أكثر قوة ولكن تتعثرن مئات المرات وتسقطن، أما الآن فأنتن ما شاء الله تتجولن وتهرولن بفضل الله تعالى، وهكذا سيأتي اليوم الذي تتعلمن فيه الكتابة، وافرض أنكن لم تتعلمن الكتابة جيداً مثل الأولاد مع هذا فإن الضرورة تأتي على قدر الحاجة، ولن تبقي هناك مشكلة لو أن الغاسلة والطاحنة لم تضع لغسيلهن وطحينهن خطوطاً على الحائط أو تحصي ذلك بحصوات من حجر، ومن الصعب للغاية حفظ حسابات المنزل ونفقاته شفاهة، ومن عادة بعض الرجال أنهم يسألون عن حساب النقود التي أعطوها للبيت، فلو لم تتذكرين شفاهة فإن الرجل يساوره الشك أين أنفقت هذه النقود وينشأ بينهما سوء ظن على غير حق، فلو أن النساء تعلمن الكتابة فكم يكون ذلك أمراً طيباً ويكفي لفهمهم.

و من الضروري على كل بنت أن تتعلم كل من طهي الطعام والحياكة إلى جانب القراءة والكتابة فلا يعلم أي إنسان أحواله وماذا سيحدث له في المستقبل، فإن كبار الأغنياء وكبار الأثرياء يصيرون فجأة محتاجين وفقراء فلو أن في أيديهم أي صنعة فإنهم يستخدمونها في وقت الضرورة، وهذا أمر معروف أن الملوك في العهود السالفة كانوا من الضروري عليهم تعلم أي صنعة بالرغم من الثروة والمال لكي يستخدمونها عند الشدة، واعلموا أن الدنيا ليس بها أي حالة جديرة بالثقة، فإذا كان ميسر لكم الفراغ والراحة في هذا الوقت، فاشكروا الله لأنه منح برحمته بيتنا البركة والفراغ، ولكن ليس معنى هذا أن لا تقدروا هذه الراحة وتطمئنوا عن طريق المستقبل بأننا سوف نحصل على هذه الراحة للأبد، ومن الواجب تصحيح العادات في أيام الراحة والدعة، وبالرغم من أن الله قد منحكم التوابع من الخدم والحشم لكنكم لا ترغبون في تقبيح عاداتكم لعله لا يبقي هناك قدر – لا سمح الله – فتؤلمكن هذه العادة كثيراً فلا تشربن الماء بعد أن تستيقظن وتكلفن الأخوة والأخوات أو الخدم بالأعمال الصغيرة وعندما تجلسن

بمفردكن فإن ذلك علامة على تعييب العادة وغير ملائمتها، فيجب عليكن القيام بجميع أعمالكن، ولو بقيتن نشيطات لبقات فيمكنكن الاضطلاع بالكثير من أعمال البيت، ولو التزمتن بقليل من المشقة لأمكنكن مساعدة أمهاتكن ومعاونتهن كثيراً، فأمعن النظر في كل عمل من أعمالكن ولا تتركنه للأمهات يفعلنه بأيديهن أو أن تسدعين الآخرين وتكلفونهن به، وعندما تنمن في الليل فافرشن فراشكن بأيديكن، وبعد أن تستيقظن في الصباح الباكر اطوينه وضعنه برفق في المكان المناسب، وضعن ملابسكن في موضعها بعناية، وعليكن أن تخيطن وتصلحن ما تمزق بأيديكن عندما كنتن تبدلن ملابسكن، والتزمن الحيطة والحذر مع الملابس المتسخة، وعندما تأتي الغاسلة لأخذ الملابس علقينها على مشجب وحدها، ولو لم ترفعن الملابس المتسخة بعد تبديل الملابس ربما تزداد اتساخاً أو تقرضها الفئران ولا تتمكن الغاسلة من تنظيفها جيداً أو ربما أرضتها الأرضة بسبب بلل العرق ورطوبة الأرض ثم انظري إلى الملابس المتسخة للسيدة التي تقوم بغسلها، وافحصيها بنفسك بعد أن تغسلها وتأتي لعلها لم تحضر أي من هذه الملابس، أو تكون قد تمزقت في موضع من المواضع، وألا يكون قد بقي بها بقع، وهكذا عندما تطلعين على ملابسك فإن ملابسك سوف تغسل جيداً وبنظافة ولن تفقد أى ملابس، والحلى التى ترتدينها أو الأشياء غالية الثمن عليك مراعاتها فى الليل قبل النوم، وفي الصباح عندما تستيقظين من النوم، وهل هي على حالها أم لا؟ إن أكثر الفتيات الساذجات يفقدن حليهن في اللعب والقفز، ويعلمون بعد عدة أيام أن قرطهن قد سقط وتضيع حلقته وعندما تكنس البيت عدة مرات هل ستعلم أي عين ستقع على مثل هذا الشيء الصغير وتحمله أو أن يكون قد غمس في الطين، مع ذلك فإن البنات الغافلات تدور حيرانة تبحث عنها في جميع أرجاء المنزل وتبكي أسفاً على الحلي، وعندما ما يعلم الأب والأم أن هذه البنت (الابنة) لا تلتزم الحيطة مع حليها وتضيعها يبدؤون في تكذيبها كذلك، ويجب عليكن دائماً مراعاة أي الأعمال تعملنها من بين أعمال المنزل، ولا شك أنه يمكنكن تولي زمام أمر الأخوة والأخوات الصغار عندما يكون ويجمحون فتغسلن وجوههم حتى لا ترهقن الأم، وتخبرن طعامهم وشرابهم وتجعلنهم يرتدون وملابسهم، ويمكنكن القيام بكل هذه الأعمال لو أردتن، لكن لو تشاجرتن مع أخواتكن وجمحتن معهم فإنكن تفقدن وقاركن بأنفسكن وتؤلمن الأم، فلتراعين أعمال البيت أو فلتفصلن في قضيتكن، أنتن تطهين الطعام في المنزل فيجب عدم الاهتمام بكن من اجل هذا السبب أي متى ستنتهين من الطهي ومتى سيقدم؟ إن الكلب والقطة والحيوانات الأخرى التي تربينها في المنزل لو ظلوا

ينتظرون الطعام أملاً في ملأ بطونهم فلا بأس أن تفعل ذلك، ولكن يجب عليكن إمعان النظر في كيفية وضع الإدام وبأي مقدار تضعن الملح ولو نظرتن بإمعان في كل نوع من أنواع الطعام فمن المؤكد أنكن سوف تتعلمن الطهي في عدة أيام وسوف تتمكن من هذه الحرفة وهي الحرفة الأكثر أهمية بين جميع حرف الدنيا، ويجب عليكن تعلم مقادير عدة أكلات خاصة علاوة على الأطعمة العادية، ومن الضروري أن تعددن أطعمة وأكلات لذيذة ومتنوعة دائماً في الولائم مثل الكباب، والأرز باللحم، والأزر الحلو، والمخلل والمربي وهي جميعاً أكلات لذيذة فيجب عليكن تذكر مكونات كل هذه الأطعمة، وبعض هذه الأكلات لا يكلفكن ولكنها شهية وطهيها يستحق المدح مثل السمك فهي بالفعل ليست صعبة ولا شك أنها معقولة ومن الضروري جداً معرفتها بعد أن يستهويها قلوبكن، وقطعاً فإنه من الضروري عليكن معرفة جميع أنواع ملابس النساء بشكل خاص، وقد رأينا كثيراً من حمقاوات النساء يرسلن ملابسهن عند نساء أخريات لتفصيلها لهن فيتملقنهن كثيراً من أجل هذا العمل التافه الصغير، بينما تجدن قدراً من الصعوبة في إعداد الملابس الرجالية، فلتعدن سراويل إخوتكن وسوف تكتسبن ذلك من خلال تفصيل عدة سراويل.

(٢)

بداية القصة

ووصف للشخصيات التي وردت في هذه القصة، وتعريف مختصر لهم.

سأقص عليكم الآن قصة مسلية جداً، وسيتضح منها مدي المعاناة التي يعانيها الجاهل ومن لا حرفة له.

تعد أسرة أنديش خان واحد من أشهر عائلات دهلى وأعرقها، ومنذ زمن ورجال هذه الأسرة يتوارثون اسم أنديش خان مثل (دور أنديش خان، و(مآل أنديش خان)، (خير أنديش خان) وغيرهم، ولهذا تلقب هؤلاء الناس بأنديش خاتيون، وكان هؤلاء الناس يمثلون عائلة كبيرة لدرجة أنه لا يوجد حي من أحياء الشرفاء في المدينة يخلو من بيتين أو أربعة من عائلة أنديش خان، وجميع هؤلاء الناس تقلدوا الوظائف الحكومية وقد عهد إليهم بوظائف هامة في الحكومة الهندية.

و قد أعد هذا الكتاب (الرواية) لبيان الأحوال الأسرية لدور أنديش خان، وكان يعمل قائم مقام (محصل) في المناطق الجبلية في البنجاب من قبل الحكومة الإنجليزية، ولم تكن وظيفته ولا راتبه كبيراً إلى هذا الحد لكنه كان إنساناً جديراً ومتديناً ويؤدي عمله بإخلاص ويندر وجود مثل هذه الصفات في الموظفين، ولهذا كانت له مكانة رفيعة عند الإنجليز، وعندما التقيت بالسيد أنديش خان للمرة الأولى وكان هذا اللقاء منذ أربع سنوات ونيف كان عمره نحو أربعة وأربعين أو خمسة وأربعين عاماً، وكان وسيم المحيا، ممشوق القامة، رشيقاً حسن المظهر والهندام ذو لحية ضرب سواد ها المشيب، وكنا نظن أنه جد أو رجل عجوز، ولا تعجب فلم يكن لديه أولاد كثيرون، ولدان وبنتان أي أربعة أطفال ولدوا بعناية خاصة وكانت (أكبري) كبري أولاده (البكرية)، وبعدها خير أنديش، و(أصغري) بعد خير أنديش، وبعد أصفري يأتي مآل أنديش وهو أصغرهم جميعاً، ويذكر أنه قيل له ذات يوم أن أولاده قليلون فقال:"فليبارك الله في عمر أصغري ويجعلها من أصحاب الشأن، وإن شاء الله عندما تتحقق أماني الأبناء لن تبقي أمنية أخرى".

و كان دور أنديش خان قد أتم العشرون عاماً وبدأ في العام الحادي والعشرين عندما تزوج وولدت أكبري، وكما علمنا فقد ولدت بعد الزواج بعشر سنوات ونصف وبسبب طول انتظاره لها فقد تدللت أكبري كثيراً في طفولتها وقد أثر ذلك على مزاجها، فلم تتعلم القراءة والكتابة ولا أية حرفة،

ولم تهذب من عاداتها ولم تكن أكبري سوي ابنه لعائلة شريفة وعريقة وحسب، وكما سنعلم فقد تبنتها جدتها بمجرد ولادتها، وبسبب تدليلها لها لم تتمكن هذه المسكينة من المشاركة في أي من حفلات الزواج بسبب خوفها من صراخها وعويلها، وكانت أكبري تنادي على الأم بالأخت وعلى الأب بالأخ وهكذا أفهمت وعلمت وكانت تحتدم في الحديث مع أمها وكأنهما أختان ولدتا وراء بعضهن البعض لقد كانت تستمد الحماية من الجدة، وما قيمة الزجر والتوبيخ بعد رؤيتها تتشاجر وتتعارك مع الأم، وتقول للابنة بعد أن أفسدتها:"لماذا توافقين على الحديث بقسوة مع الطفلة؟".

و كثيرا ما كانت دور أنديش خان يصطحب الزوجة والأولاد معه حيثما يعمل في حين كانت الجدة تتعذر بأي عذر وتمنع أكبري من الذهاب معه، ولم تفترق أكبري عنها للحظة منذ ولادتها وحتى زواجها، وهكذا ظلت أكبري حرة طليقة بسبب التدليل الأحمق للجدة وعدم تأديب كل من الأب والأم لها، أما أصغري فكانت على النقيض منها تماماً، وكانت تختلف في أمانيها عن أكبري، ومن حسن حظها أن ترتيبها لدي أبيها وأمها الثالثة، وقد ترعرعت وتربت تحت رعايتهما وفي ظل قيود الكبار، وفي صغرها قرأت أصغري ترجمة القرآن الكريم وتفسيره وكذلك الكتب الأردية في مسائل الفقه، وكانت ملمة بالكتابة، وإذا كانت أمها في دهلي والأب في عمله خارج دهلي كانت تكتب له كل أسبوع رسالة بأحوال المنزل وترسلها له، وكانت تستطيع حياكة جميع أنواع الملابس، وتطهي جميع أنواع الطعام اللذيذ وكان جميع سكان الحي يثنون على أصغري، وكانت جميع مسئولية إدارة شئون بيت الأم في يد أصغري، وعندما يأخذ الأب إجازة ويعود إلى البيت كان يتشاور مع أصغري في تدبير إدارة شئون البيت، وقد كانت النقود ومفاتيح المخازن والصناديق وكل هذه الأشياء من سلطة أصغري، وكان الأب والأم كلاهما يجب أصغري من سوداء قلبه وذلك لطيبتها وحسن سلوكها، وكذلك كان أهل الحي يحبون أصغري، ولكن أكبري كانت من تلقاء نفسها تغير من أختها الصغيرة، بل كانت تضربها عندما تنفرد بها وحدها، ولكن أصغري كانت تحترمها دائماً ولم تنم بها إلى أمها قط، وبالصدفة تم خطبة كلتا الأختان في بيت واحد على محمد عاقل ومحمد كامل وهما أخان شقيقان، وكان زواج أكبري من الأخ الأكبر محمد عاقل، وأما ما يتعلق بأصغري فقد مكثت مع محمد كامل ولكن لم يتم الزواج.

(٣)
حماقة أكبري وعودتها غاضبه من بيت حماتها

كانت أكبري قد اشتهرت بين أعضاء الأسرة بحماقتها وعدم معرفتها بشئون المنزل، وبعنادها ولذلك عزف الخطاب عنها ولم تخطب لأحد، ولكن بقدرة الله وتوفيقه أقامت كل من الأختين معاً في لحظة بعد أن اتفق الرجلان ومن حسن الطالع أن دور أنديش خان ومولوي محمد فاضل كلاهما كان مناصر للعادات والتقاليد القديمة، وكان كلاهما قد تعلم على يد أستاذ واحد، وذات مرة كان دور أنديش خان عائداً إلى دهلي بعد أن حصل على إجازة فالتقي في الطريق بمجمد فاضل الذي أصر على أن يستضيفه عنده، وخلاصة القول أن دور أنديش خان وافق على إعطاء ابنتيه لمحمد فاضل، وعندما علم أفراد الأسرة بذلك قام أحد الناس بتحذير أم محمد عاقل منها وأن البنت الكبرى حادة المزاج وطائشة، وكانت أم محمد عاقل سيدة طيبة القلب فكانت تعلم كل شئ وتسمع عن أحوال أكبري كلها فلم تلق بالا بكلامهم أجابت قائلة: "إنها كانت ترجو من الله ابنة من أسرة شريعة وقد ولدت بعد شوق كبير، وقد دللتها الجدة ولم تلوث قلب الطفلة وتكدر خاطرها بأي أمر، وأصرت على حبها لها، وألحت على مكانة الطفلة وأنها ستتحسن أحوالها بعد الزواج".

و لكن كان هذا ما تتمناه هذه السيدة، فهل تم تقويم أكبري بالزواج؟ فبعد مضى أربعة أو خمسة أشهر بدأت تلح على زوجها "لا أرغب في العيش والبقاء مع أمك فنحن نقيم في بيتها بالإكراه، فلنرحل إلى أي حي آخر ولن أكف عن ذلك ليل نهار" أخذ محمد عاقل ينظر إليها مبهوتاً وقال: "هل لديك كلام آخر؟ أنا لم أسمع أمى حتى الآن نشتكى منك قط. أكبرى: خذ واسمع أنت توبخني وتقلب الأمور! فماذا تشتكي مني، فالضعيف هو الذي يشتكي، ومن لا حيلة له يشتكي، والمظلوم يشتكي".

محمد عاقل:"أخبريني لا سمح الله – ما الظلم الذي وقع عليك".

أكبري: أخبرك أولاً بأنها تحبسني طوال النهار.

محمد عاقل: ألا تعلمين ماذا تريد؟

أكبري: ماذا تريد، ليس عندي أي نقود، ولا تنصحني (تأذن لي) حتى بالجلوس، وأنا أعرف نظراتها، لقد خلقني الله راقية (عريقة) ولكنها اليوم فضحتني على الملأ وجها لوجه أمام جنيا وزلفن ورحمت وسلمي.

محمد عاقل: ألا تعلمي أنت أيضاً بأحوال هؤلاء البنات؟ أما جنيا فهي طباخة للنزل، وزلفن – عفا الله عنها – مبيضة للأواني، ورحمت ساقية، وأما سلمي السوداء فإنني أراها كثيراً في دكان البقال، وقد اعتقدت أنها لا بد أن تكون ابنته، وتوجد صورتها أيضاً في الدكان، فهل يستحق هؤلاء البنات أن يكن شريفات، وأن تتخذينهن صديقات لك؟ وماذا سيقول شرفاء الحي عندما يعلمون بذلك؟ إن الفقر أمر لا يعيب، ولكن خصال هؤلاء البنات ليست حميدة، ولهذا السبب ربما منعت الوالدة هؤلاء البنات من المجئ ولهذا فلا تسيئ الظن بهذا الأمر".

أكبري: ولكن أمك ألقت بي في السجن لإرضاء هؤلاء البنات وأنا جالسة صامتة وحيدة طوال اليوم كإنسان قد احتبس أنفاسه.

محمد عاقل: لماذا تجلسين وحيدة؟ والحارة كلها تمتلأ بأسر الأشراف مثل أسر السادة مير حسن رضائى، ومولوي روح الله، ومنشى ممتاز أحمد، وحكيم شفاء الدولة، وقاضى إمام على، وغيرهم، فعليك أن تلتقين ببنات مثل هؤلاء الناس وتستعدي بهن وتقري عينا.

أكبري: إن بلائي في لقائهن، وعذابي في مقابلتهن، أنت أيضاً مثل أمنا تضايقني كثيراً وقد كانت ترغب في أن تجعلني بلقائهن ابنة ل ...... فكيف لا أجد لي صديقات أفضل منهن؟ لقد تركت إحدى صديقاتي بإلحاح من الأم، وأخذت أصداف الزواج وأعطيت لهن هذه الأشياء مثل الخرز والملابس والنقود والغلة بعد سرقتها من الأم حتى ضاقت الأم ذرعاً بذلك، فهل ضربتني الجدة خوفاً من الأم! لقد كانت تشتمني وتلومني وتنهرني ولكنني لم أتخل عن لقاء صديقاتي.

محمد عاقل: أنت تثرثرين كثيراً.

فقالت تلك السيدة الحمقاء بعد أن سمعت ذلك: " انظر، أقسم بالله إن ما قلته على لساني قلته على مسئوليتي وإلا سأضرب نفسي وأريق دمائي" وانخرطت في البكاء بعد أن قالت هذا الكلام وبدأت تصب اللعنات على أبيها وأمها: يا إلهي لماذا تدفع بي أمي السيئة إلى هذه التعاسة، وقد بدأ الجميع في مضايقتي بعد أن صرت وحيدة، أنا منهارة فأمتني يا إلهي!" وعندما تملكها الغضب ركلت صندوق التنبول وكان ملقي على السرير فبعثرته وتناثرت مكوناته كلها على الفراش والوسادة، أما حاشية اللحاف الصوفي التي كانت موضوعه بداخله فقد تغير لونها تماماً بعد أن التصق جير التنبول بها، وأتت الحماة مهرولة من الحجرة المقابلة بعد أن سمعت

ضجيج ارتطام الصندوق، وقد خرجت الابنة (أكبري) من الباب الثاني بعد أن رأت الأم قادمة، ولكنها كانت تقول في نفسها: لقد لامست خلية النحل واشتبكت معها بغير حق، جاءت الحماة ورأت أن التنبول الذي أشترته بأربعة قروش، والتي قامت بتنقيته وتصفيته بالأمس ثم طهته وملأت به الصندوق قد سقط كله، وتلطخ الفراش بالتنبول، وما أن أتت الحماة حتى أخذت تعانق زوجة الابن ووبخت الابن كثيراً على ظلمه، وجبرت خاطرها والتمست لها العذر، وأخذت الحماة تنصحها وتوعيها بكل حيلة، ولكن تلك المرأة المكارة لم تتأثر قط، وتجمعت نساء الحي من الجيران بعد أن سمعن صوت العويل، وسنحت الفرصة وأسرعت إليها زلفن بنت مبيض الأواني وبدأ أربعتهن يتوافدن عليها الواحدة تلو الأخرى، وكانت الجدة قد أغارت على أكبري بدون أي ترتيبات، ووصلت إليها بعد أن استقلت محفة (مركب) النساء دون أن تسمع ولا أن تستفسر جيداً عن الأمر ونشبت مشادات وشجار، ورحلت في نهاية الأمر مصطحبه معها أكبري.

(٤)

شغب أكبري، وتصرفها الأهوج، وحماقتها، وطيشها، وكذلك رحيلها دون اكتراث نفس يوم العيد، والثناء على أصغري ضمناً.

رحلت أكبري فجأة وبدون ترتيب، وربما لن يتيسر لها مشاهدة بيت حماتها لسنوات، ولكن بالصدفة كانت خالتها الشقيقة تسكن بالقرب من منزل محمد عاقل، ولو لا ما قامت به هذه الخالة السعيدة من مساعي ما أمضت أكبري يوماً واحداً في بيت حماتها، لقد تألمت الخالة كثيراً بعد أن علمت أن أكبري غادرت المنزل وقالت:" لو أنني علمت بالمشاجرة قبيل هذا ما أفسحت لها المجال للرحيل، ولكنت قد جذبتها من على محفتها" وكانت تعتقد أن أكبري مجرد حمقاء، أما الجدة فقد منحها الله حباً جارفاً لحفيدتها بغير داع، ولكن آبا (أم أكبري) لم تقعد الابنة، ولما رأت الخالة أن أياماً كثيرة قد انقضت دون أن يكون هناك حوار أو رسائل بين الجانبين، ذهبت بنفسها لعتاب ابنة الأخت على تدليل الأم لها، وقامت بتوجيه النصح لأكبري ولامتها ونهرتها وزجرتها وهددتها أمام كل من الأم والجدة، وقالت لأمها: " إن حبك الشديد لها من المؤكد أنه سوف يخرب بيتها".

و بمناسبة الاحتفال بشهر رمضان عليك أن ترغمي ابنة الأخت وتحضريها إلى بيت الحماة لأن (سمد هن) وحيدة، وبحلول شهر رمضان عليك أن تهدئى من روعها، ولتذهبين لحماتك ولتقاسمينها العمل، فأنت الآن لم تعودي طفلة، فإن من في عمرك ينجب الأطفال، ولتقلين من ضخامة جسمك، ولتعتبرين هذا البيت بيتك، فإن تشاجرتي أو تعاركتي فإنك ستقضين طول عمرك في هذا البيت.

ظل محمد عاقل غاضباً مكدراً عدة أيام من زوجته وفي النهاية أصلحت الخالة والحماة ذات بين الزوج والزوجة، ولكن مزاجهما كان غير متوائم، ويوجد خلل ما في كل أثاثات المنزل، وقال محمد عاقل لأمه ذات يوم: "دعوت صديق لي اليوم على الإفطار ويجب عليكم الاهتمام أكثر بالطعام والفطور" قالت له الأم : "تنتابني رعشة شديدة في وقت الإفطار منذ ثلاثة أيام فلماذا لم تخبرنى قبل ذلك لكى أستدعى جارتنا الطيبة حتى تقوم هذه المسكينة بطهى الطعام، وعليك أن تسأل من في البيت قبل الدعوة.

أشار محمد عاقل إلى زوجته وقال: ألا تستطيعين القيام بمثل هذا العمل؟ لم تتحمل الزوجة ذلك وأني لها أن تظل صامته بعد سماع هذا الكلام، فقالت بمجرد أن سمعت ذلك: "عليك أن تسأل الأم هل تزوجت

ابنتها أم اتخذتها جارية" فهل عليك أيها السيد أن تنفخ في الموقد في الصيام.

فكر محمد عاقل أنه لو رد عليها ستكون فضيحة مثلما كانت من قبل ولاذ بالصمت وخرج واشتري طعام الإفطار من السوق وانتهي الأمر.

و الآن يواجه محمد عاقل مشكلة ثانية، فلم تعد يبق لهذا المسكين على مجئ العيد سوى أسبوع واحد، عندما بدأت الزوجة مزاج دار له حلة العيد، وكانت تحضر لها لهذا المسكين كل يوم أحذية مزركشة وموشاه، وأساور ذات ألوان مختلفة، وملابس متنوعة، ولم تحضر مزاج دار شيئاً من أجل زوجها، ومن ثم لم ينفجر هذا التعيس في وجهها، لقد أحضر لها هذا القماش ولم يبق على العيد سوى يوم واحد، فاضطر إلى أن يذهب عند خالة أكبري التي دعته للدخول بمجرد أن سمعت صوته، ودعته برفق وأجلسته بمودة وسألته: "قل لي هل أكبري بخير؟".

قال محمد عاقل: سيدتي إن ابنة أختك امرأة مزاجها عجيب وقد فاض بي الكيل ولم أعد أتحمل تصرفها الأهوج ولا كلامها المعوج".

فقالت الخالة:" يا بني! هد أ من روعك فهي لا تزال صغيرة وعندما ترزق بأطفال سوف تتحمل أعباء منزلها وسينصلح مزاجها تلقائياً، وفي النهاية فإن أفضل الناس هم الذين يتعايشون بالمعروف، لقد جعلك الله جديراً يا بني، فلا تكترث لهذا الأمر حتى لا يشمت الناس فيك، وهي في النهاية شرفك".

قال محمد عاقل: سيدتي أنا نفسي قد صفحت عن هذه الأفعال كثيراً، والآن أنظري العيد غداً، وحتى ذلك الحين لا توجد حلة أرتديها، ولم تخيط الملابس، فتعالي معي قليلاً لتفهميها وتنصحيها، لقد قلت لها الكثير، ونصحتها أمي مراراً ولكنها لا ترعوي.

فقالت الخالة: حسناً: إن خالك ذهب إلى المسجد لأداء الصلاة وعندما يعود سوف أستأذنه وأذهب معك.

ذهبت الخالة معه وأعدت الثياب وفصّلت الأقمشة وجلست لتخيطها جميعاً على عجل وقالت: يا ابنتي عليك أن تخيطي هذه الأجزاء من الثياب، وتفصلي هذه الحاشية لحماتك وأنا سأطرز طرحتك بالدر والصدف.

عندما فرغت أكبري من خياطة الأجزاء التفتت للخالة وقالت: خذي يا خالتي ويبقي لك الآن جانبان طرف الثوب وذيله، وقد انتهيت من خياطة الأكمام في كلا الثوبين.

نظرت الخالة فوجدت أن جميع الأكمام معكوسة، فلم تقل شيئاً بشفتيها مراعاة لحماة أكبري، ولكنها لدغتها مرتين في صمت حتى سالت الدموع من عيني أكبري، وقالت لها بالإشارات انظري هل تدركين الفرق، وجلست لكي تخيط الأكمام المعكوسة، وقامت أكبري بفصل كل ما خاطته وبدأت تخيط الأكمام من جديد، وعندما انتهت من الخياطة نظرت الخالة عليها فإذا بها جميعاً غير مترابطة أو منسجمة، ولم يقر للخالة قرار هذه المرة، وتوارت عن أعين حماة أكبري ووخزت أكبري بالإبرة في يدها، وقامت بفصل الأكمام وخاطتها من جديد، المهم أنه بفصل الله تعالى – قامت الزوجة بخياطة الحلة، وودعت الخالة أكبري إلى بيتها.

و في اليوم السابق للعيد استيقظ الأطفال مبكراً وهم سعداء، وبعضهم أزال الحناء ليلاً والبعض أخذ يحدث ضجيجاً من أجل دقيق الحمص، والبعض الآخر بدأ في طلب العيدية بمجرد استيقاظه، وبعد أن فرغ محمد عاقل من صلاة الصبح ذهب للحمام ليستحم وعاد بعد الاستحمام بعد أن انقضى من النهار أربع ساعات، ورأي الأولاد في ملابسهم الجديدة – يجلسون مستعدين للذهاب إلى ساحة العيد، ولكن السيدة زوجته كانت تغط في نوم عميق كالعادة، فقال محمد عاقل لأخته الصغيرة محمودة: "اذهبي يا محمودة وأيقظي زوجة أخيك".

فكرت محمودة في البداية أنها كانت تخاف من هذه الزوجة مزاج دار، وأنها عندما تزوجت لم تتحدث بود ومحبة يوماً واحداً مع أخت الزوج الصغيرة، ولم تكن تأتي عندها قط. ولم تجلس معها، ولكن نزولاً على قول أخيها وبمناسبة بهجة العيد ذهبت محمودة مسرعة وقالت: "انهضي يا زوجة أخي. وما أن نهضت زوجة الأخ حتى صفعت محمودة فانفجرت محمودة باكية فأسرع أخوها إليها من الخارج بعد أن سمع صوتها، واحتضنها بعد أن رآها تبكي، وسألها ماذا حدث؟".

قالت محمودة وهي تبكي: "زوجتك ضربتني".

قالت مزاج دار :"أنظر إلى الصغيرة الخائبة، لقد وقعت وهي تجري وألصقتها باسمي". تملك الغضب محمد عاقل ولكنه أدرك أن المصلحة تقتضي ضبط النفس، فلاطف محمودة حتى صمتت وقال للزوجة:"حسناً، انهضي واغتسلي وغيري ملابسك فقد ارتفع النهار وأنا ذاهب إلى ميدان العيد".

قالت مزاج دار باشمئزاز وتجهم:" أنا لن أستحم في مثل هذا الوقت المبكر نحن في موسم الشتاء، واذهب أنت إلى ميدان العيد، وأنا ماذا أفعل هناك؟".

حزن محمد عاقل كثيراً بعد سماعة مثل هذا الكلام الجافي، أما مزاج دار فقد كانت تعيسة دائماً وكانت كثيراً ما تغضب زوجها، وفي تلك الأثناء نادت الأم على محمد عاقل قائلة: "يا بني اذهب إلى السوق وأحضر اللبن واتجه مباشرة إلى ميدان العيد بسلام".

قال محمد عاقل: " حسناً جداً، أعطني النقود وأنا أحضر اللبن ولكن لو لم تبدل ملابسها حتى عودتي فسوف أضعها كلها في الموقد".

ذهب محمد عاقل إلى السوق ليحضر اللبن، وكانت الأم تعلم أن ابنها متبرم جداً، ولديه اعتلال في مزاجه وأن هذه هي المرة الأولى التي يتملكه الغضب هكذا، وعندما كان يغضب لم يكن عقله يضنيه هكذا، فهل سيحرق الملابس الجديدة حقاً؟ وذهبت مسرعة عند زوجة الابن وقالت لها: " بالله عليك يا ابنتي إن يوم العيد يأتي مرة كل عام فلا تتشائمين، انهضي واغتسلي وبدلي ملابسك".

قالت مزاج دار :" لا يا سيدتي، لن أغتسل هذا الوقت، وسأستحم بعد أن أقوم".

و بعد تضرع وطول رجاء من الحماة غسَّلت زوجة الابن، ومشطت ضفائرها وألبستها الملابس الجديدة وجعلتها عروسة، وأجلستها قبيل مجئ محمد عاقل. وقد سر محمد عاقل أيما سرور بعد رؤيتها، وسأل محمودة أثناء ذهابه: "قولي أي لعب أحضر لك من السوق؟

قالت محمودة: "احضر لي رحلاً جميلاً لأضع عليه أجزاء القرآن الثلاثين، وصندوق صغير لأضع فيه القلم والدواة".

و قالت مزاج دار تلقائياً :"و ماذا تحضر لي؟".

قال محمد عاقل: " ما تطلبينه سوف أحضره لك".

قالت مزاج دار: " يوسفي وفواكهة ودف وخنجر".

تبسم محمد عاقل بعد أن سمع هذا وقال:" ماذا ستفعلين بالدف والخنجر؟"

أجابت مزاج دار الحمقاء:"أحضرهما وسأقول لك ماذا سأفعل بهما".

أدرك محمد عاقل أن هذه الحمقاء الغبية لا تزال حتى الآن يوجد لديها أفكار بالية عن اللعب والطعام كالأطفال وتبددت كل السعادة التي عند محمد عاقل من جراء تبديلها لملابسها وذهب إلى ساحة العيد وهو كاسف البال.

و بعد ذهابه أقدمت مزاج دار على عمل جديد، فقالت لحماتها: " استدعي المحفة لي فسأذهب لبيت أمي".

قالت الحماة: حسناً! وما مناسبة ذهابك؟ وقد جئت من بيت أمك منذ أربعة أشهر من الآن، وليس من المناسب قط ذهابك في نفس يوم العيد.

قالت مزاج دار: "إن قلبي مضطرب كثيراً، وفؤادي حزين، واتذكر صديقتي بنو ابنة باسو منهيار (الصائغ) كثيراً.

قالت الحماة: يا ابنتي، لا يوجد شخص يحب شخصاً آخر مثلما تحبين (بنو) ولو أنت تشتاقين إليها بهذا القدر عليك أن تستدعينها.

قالت مزاج دار: لهف نفسي أ أستدعي تلك العابدة (القديسة) العظيمة، لو كان استدعائها يتم هكذا فإننا نلبسها الأساور.

قالت الحماة: حسناً يا ابنتي وما كان يدريني أن ذكراها (حنينها) سيدغدغك فجأة.

قالت مزاج دار: مرحي يا سيدتي ما الفائدة من النقاش؟ تستدعين المحفة أو لا تستدعيها فقد أرسلت استدعي أبو سلمي.

قالت الحماة: "هل اعتري عقلك خلك أيتها الفتاة! لن تذهبي ما لم نستأذن من الزوج وسأخبر صاحب المحفة أنها استدعت المحفة دون إذن الابن.

قالت مزاج دار: "ما الزوج وما الاسئذان؟ ألم ألتق بأبي وأمي حتى في العيد؟ وبعد أن قالت هذا، طلبت من (مولن) البقال أن يحضر لها المحفة بأي وسيلة.

و بعد فترة وجيزة عاد محمد عاقل من ساحة العيد (المصلي) ودخل المنزل ونادي: "خذي يا سيدتي خنجرك، وخذي الدف لتضربي عليه.

رأي أن الجميع صامتون، فسأل أمه ماذا حدث؟ أ يكون خيراً؟

أجابت محمودة: " لقد ذهبت زوجة أخي العزيزة".

سأل محمد عاقل بعد أن تملكته الدهشة: " لماذا ذهبت؟ وأين ذهبت؟ ولماذا سمحتم لها"؟

أجابت الأم قائلة: " كنت أجلسها وانصحها، وفجأة أخذت تقول أنا سأذهب عند أمي، فمنعتها بكل الحيل لكنها لم ترعوي، وطلبت المحفة من مولن وذهبت وقد استوقفت المحفة ومنعتها".

اعتصر الأم محمد عاقل واستشاط غضباً بعد أن سمع هذا وانتفض واقفاً وهم بالذهاب الآن إلى بيت حماته ليعاقب هذه المتمردة، وبعد أن فكر في هذا مشي خارج المنزل، وأدركت الأم ذلك وذهبت لتنادي عليه فلم يجيبها.

قالت الأم: "حبذا لك من ولد، واهاً لك! أنا أنادي عليك وتسمعني ولا تجيب على ندائى. أهكذا تحترم الأمهات في القرن الثالث عشر (الهجري)، بمجرد أن سمع محمد عاقل هذا الكلام قفل راجعاً. فقالت الأم: "أين تذهب يا بني في هذا الحر القائظ؟ لقد أتيت الآن من مصلي العيد وتخرج الآن مرة ثانية، هل ذهبت لدفع مال الصدقة حتى يجعل الله روحك حية؟

قال محمد عاقل: أنا لن أذهب إلى أي مكان، أنا ذاهب للقاء السيد حافظ في المسجد .

قالت الأم: عد إلى رشدك يا بني، أنا عليمة بكل هذه الأمور، إن كنت ذاهباً إلى المسجد فاخلع هذه الملابس وتعال نتجاذب أطراف الحديث.

ابتسم محمد عاقل بعد أن سمع هذا، وأمسكت الأم بيده، وأجلسته للصلاة معها، ونظرت إلى رأسه وقالت: لقد تغبر كل شعرك بعد عودتك من المصلي (ساحة العيد)، فضع رأسك قليلاً على الوسادة واستلقي لكي أنظفها لك.

تمدد محمد عاقل على السرير بعد حديثه مع أمه بقليل، وأخذت محمودة تهوي على أخيها بالمروحة بعد أن اضطجع فقد كان متعباً قليلاً بعد عودته من ساحة العيد، وكان هواء المروحة البارد وملامسة يد الأم الرحيمة لرأسه قد ضاعف من راحته، المهم نام محمد عاقل وعندما استيقظ كان النهار قد انتصف، وقلت حدة غضبه.

قالت الأم: "اغسل وجهك ويديك وتوضأ وصلى الظهر فقد داهمك الوقت، ثم تعالى أخبرني ماذا ستفعل؟

جاء محمد عاقل بعد أن أداء الصلاة فقالت له أمه: اذهب إلى بيت حماتك ولتقسم بحياتي بأنك لن تفتعل مشاجرة هناك.

قال محمد عاقل: لا تقلقي بشأني (إذا فلا ترسليني).

قالت الأم: أي خير يا بني؟ يا إلهي كم هي لغة سيئة (جواب سئ)، فمن أرسل لبيت حماتك، خذ هذه الروبية وأعطها عيدية في يد أصغري أخت زوجتك، ولتسلم لي على حماتك وأولادها وزوجها وخذ معك بعض اللعب وأن تأخذ ماما عظمت في يدها سلة الحلوى واللبن والهريسة الموجودة على المائدة ولتصطحبها معك، ولا تتحدث في شئ.

قال محمد عاقل: وهل آخذ معي الخنجر والدف يا أمي؟

قالت الأم: لا تتحدث هناك عن مثل هذه الأشياء.

و صل محمد عاقل إلى بيت حماته، وكانت هناك أصوات ضجيج أكبري مع صديقاتها، وكان صوت الضوضاء يسري في جميع جنبات الحي، فدخلت ماما عظمت البيت، وكانت أصغري قد رأت ماما عظمت من بعيد فقالت بصوت خافت: تعالى يا آيا، تعالى يا آبا (أكبري)، إن ماما عظمت قادمة من عند حماتك، وبعد أن دخلت عظمت نادت على محمد عاقل: تفضل يا سيدي فدخل محمد عاقل وسلم على حماته وقال لها: "فلتعيشى ويطيل الله في عمرك" وفي تلك الأثناء كانت أصغري قد رتبت طرحتها (حجابها) وخرجت من الحجرة، وسلمت على زوج أختها بأدب وحياء شديدين، فأمسك زوج الأخت بيد أصغري وأجلسها بجواره وأعطاها روبية فأخذت أكبري تنظر ناحية أمها، فقالت الأم: ماذا حدث، خذيها فهي عيدية، أخذت أصغري الروبية وسلمت عليه وجلست بأدب في طرف الحجرة ثم قامت وفرشت المائدة أمام زوج أختها بذوق وترتيب، وأتت بصحن فيه شعرية، وكوب فيه لبن، وسكرية بها سكر وملعقة ووضعتها أمامه.

قالت الحماة : كل يا بني.

تعذر محمد عاقل قائلاً: لقد كنت فى ساحة العيد رحتى وقت متأخر، وتناولت الطعام منذ فترة وجيزة.

قالت الحماة: لا بأس لك شعرية فأنها مثل الماء.

وعندما كان محمد عاقل يأكل الشعرية أعدت أصغري وريقات لذيذة من التنبول بالحبهان، وظلوا يتجاذبون أطراف الحديث بعد الطعام وبعد مضي فترة وجيزة من الوقت قال محمد عاقل: سيدتي أريد أن استأذن.

قالت الحماة: أين ستذهب الآن، عليك أن تنام هنا.

محمد عاقل: اليوم هو يوم العيد واستقبل الزائرين، وأقوم بواجبات الضيافة كما أني لم أخبر أمي بأنني لن أحضر الليلة.

الحماة: الوقت الآن ليس وقت الزيارات والمقابلات، وقد حل المساء وأمك سمدهن كفيلة باستضافة من يزورها، وقالت مبتسمة: وأنت لن ترضع من سمدهن، وفي النهاية ستذهب ماما عظمت وسوف تخبرهم.

حاول محمد عاقل التعلل بالعديد من الأعذار ولم تقبل الحماه واحدة منها، واضطر محمد عاقل للبقاء، كانت الساعة الرابعة ليلاً عندما انتهوا من الطعام والشراب، وألقت أصغري بالأواني وكل شئ جانباً، وأغلقت الباب الخارجي بالسلاسل وأغلقت الحجرات وسلمت مفاتيحا لأمها وأطفأت مصباح المطبخ والرواق الخارجي، وأعدت التنبول للأم والأب وزوج الأخت، وذهبت للنوم مطمئنة البال.

المباحثات التي دارت بين الحماة (أم أكبري) وصهرها (محمد عاقل) حول البيت المنفصل

قالت الحماة لمحمد عاقل: يا بني لماذا تظل أنت زوجتك في شجار أغلب الأيام؟ وليس عند أكبري هذه العادة السيئة وهي أن تتحدث عن أخبار بيت زوجها مثلما هي العادة لدي البنات في العالم بأسره حيث ينقلن لأمهاتهن كل كبيرة وصغيرة عن بيت حماتها ولا أعلم هل هذبها الله؟ وأخذت تستجوب زوج ابنتها حتى تعب لسانها وكانت تريد أن تخبره بالمزيد، ولكن الحوار وصل إلى مسامع أهل الحي، وكان الغرباء من الناس يسمعونها وهم يجلسون في بيوتهم.

فكر محمد عاقل قليلاً بعد أن استمع إلى كلام حماته ولم يجب احتراماً لها، ولكنه بعد فترة طرأت عليه الفكرة، وداعب نفسه متسائلاً : إنه لا يستحسن الصمت في مثل هذه المناسبة لأنه خلافاً للمصلحة تماماً، ومن الأفضل أن تكون هناك مصارحة، وربما يكون لحديث اليوم دور في حل المشكلات القادمة، وفي النهاية قال محمد عاقل على استحياء: إن ابنتك موجودة، ويمكنك أن تسأليها عن المعاناة التي تتكبدها عندنا، فهل قصرنا بأي شكل من الأشكال في ضيافتها والاحتفاء بها، وهل تشاجر معها أحد؟ أو أساء إليها أحد، وتعلمين أننا أفراد قليلون في المنزل، ووالدتي معروفة في الحي بأسره بأنها طيبة ومحبوبة من الجميع، ولم يحدث أنها تشاجرت مع أحد طوال عمرها، وإن حدث ووجه إليها أحد إهانة شديدة، فإنها تلوذ بالصمت، ومحمد كامل يظل يتعلم طوال اليوم فهو يخرج من البيت في الصباح ويعود في المساء، ولم أره يتحدث معها في أمور الطعام والنوم، ومحمودة تخاف من صورتها، ويبقي أنا وأنا موجود أجلس أمامك فإن كان لديها شكوى مني فلتفصح عنها بوضوح.

تحدثت حماة محمد عاقل مخاطبة ابنتها وقالت: نعم عليك أن تذكري ما عندك بوضوح ولا يحسن بك أن تضمرينه في قلبك لأن بقاءه في القلب يزيد من معاناته ويسبب له المشاكل بالرغم من أن أكبري كانت جريئة جداً في قول الكذب لكنها في ذلك الوقت لم تتفوه بكلمة في مواجهة محمد عاقل وكان قلبها يرتعد خوفاً لأنها قالت لأمها كلاماً كثيراً كاذباً وتخشى أن ينفضح أمرها، فماطلت في هذا الأمر بعد أن تدبرته، وقالت: سنأخذ بيتاً منفصلاً.

فقالت أم أكبري لختنها: ما عذرك يا بني في البيت المنفصل، وأنت بفضل الله موظف وتكسب رزقك بنفسك، ولا تحتاج إلى أبيك وأمك في شئ،

فما فائدة بقائك عالة على الآخرين في مطعمك وملبسك؟ ما أحب أن تكون راحة الزوج والزوجة في منزل منفصل! وأين منها منزل الأب والأم؟ فتأكلان ما تحبان وتطبخان ما تريدان، وتفكران في أمور كما، وأنت مع الوالدين تنفق الكثير ولكن لا قيمة لذلك، وما أدري الناس بأنك تأكل من كدحك أم أنت عالة على أبيك وأمك؟

قال محمد عاقل: لو تسأليني عن الراحة فإننا نحصل على الأجابة عندما ننفصل عن البيت ونعلم قدر هذه الراحة، ففي تلك الأوقات نطبخ الطعام ونأكله ونجلس بلا تفكير، ولكن عندما ننفصل عن البيت سنفكر في كل شئ في الوقود والملح والزيت والخضروات واللحم والبقول والدقيق، وإن أردت العدل فإن إدارة شئون البيت كم هي متشعبة ونتحمل كل هذه المشاكل بلا سبب فهل يتحقق ذلك الآن ونأكل ما نريد ونطبخ ما نريد، وإن طلبتي هل يطيعك أحد ويمتثل لأمرك؟ ولا شك أن القيام بهذا العمل يعد شاقاً في الأسر الكبيرة، فأحدهم يحب الأرز بالسكر (الحلو)، والثاني يريد كشري، والثالث يناسبه الأزر باللحم، والرابع يوافق على تناول القورما (اللحم)، والخامس يرغب في طعام كما وصفه له الطبيب، فمن أين يتأتى لنا الطعام كل يوم في عشر أواني، والأسرة عندنا ليست كبيرة إلى هذا الحد، وإن طلبتي شيئاً ولم نؤده إليك فتجاوزي عنه إذا لم نحترمه ونعتني به، إن الوالده بنفسها تقوم بإعداد الطعام لك، وتقول لي عدة مرات اسألها أ أكلت أم لا؟ والسمعة التي تتحدثين عنها في رأيي وهم، فأنا أقوم بعملي بهدوء وليظن الناس ما يظنون، وافرضي أن الناس يعتبروننا عالة على الأب والأم فأي مهانة لنا في ذلك؟ فالأب والأم غير غرباء عنا، والأب والأم هما اللذان قاما بتربيتنا، وإطعامنا وكسوتنا، وتعليمنا وتزويجنا، فليس هناك مهانة في كل هذه الأمور، والآن من من الأبناء يظن ذلك حتى نعتبر حاجاتنا إليهم وخضوعنا لهم موجباً لمذلتنا.

أجابت الحماة: لو أن جميع الناس يفهمون مثلك فلماذا ينفصلون؟ وهذه هي حال الدنيا نأتي إليها وسنرحل عنها، وينفصل الأولاد عن الآباء والأمهات، وأنا أعرف أنه لا توجد زوجة في العالم يكسب زوجها عيشه بنفسه وتفضل بالبقاء والعيش مع حماتها وأخوات زوجها.

قال محمد عاقل: إن قولك صائب، فلو أن الأولاد لا ينفصلون عن الآباء والأمهات فمن أين جاءت هذه البيوت في المدينة، ولكن لكل إنسان

ظروف مختلفة، ولا أعلم أن الانفصال يتناسب مطلقاً مع حالتي، فأنا موظف بعشر روبيات، ويبدو لي أنه من الصعب للغاية أن يتحمل مثل هذا الدخل العيش في بيت منفصل، ومن ثم لا نعتمد على هذه الوظيفة، ولو انفصلت – لا قدر الله – ثم تركت وظيفتي فإن العودة مرة ثانية إلى بيت الأب والأم (الأسرة) أمر شاق للغاية بالنسبة لي، ولا شك أنه فيه مذلة آنذاك لأن الزوج كان قد انفصل ثم رجع مرة ثانية ليعيش عيلة على والده، إن تقليد الناس في هذه المسألة ليس أمراً محموداً، ويجب على الإنسان أن ينظر إلى حاله، فاستمعوا إلى هذه الحكاية: اشتري رجل ملح وقطن من السوق، وحمل الملح على البغل والقطن على الحمار، وفي الطريق يقع جدول كان ماؤه ضحلاً، وقد حمل الرجل كلا من البغل والحمار ونزلا الماء وعندما وصلا إلى منتصف الجدول غاص البغل في الماء، وبعد فترة وجيزة رفع رأسه فسأله الحمار: " ماذا حدث يا صديقي البغل؟"

أجاب البغل: "يا أخي من حسن حظك أنه تم تحميلك بالقطن ووزنه خفيف، ولسوء حظي أنه تم تحميلي بالملح، وظهري يكاد ينكسر من ثقله بعد أن تلطخ بالدماء، وأن مالكنا ظالم إلى هذا الحد لأنه لم يفكر قط في معاناتنا ويحمل علينا كل ما يريد وما لا نطيق واعتقدت أنني سأفقد ظهري بمجرد وصولي إلى المنزل، وذهبت لأغوص فابتل الملح في الماء وذاب بعضه وصار الوزن حفيفاً فانهال على المالك وضربني بالعصي ستة أو سبعة مرات وأخذ يضربني طوال الطريق، فانظر ماذا حدث الآن بقي من حملي النصف. عندئذ غاص الحمار الأحمق مقلداً البغل، فابتل القطن وثقل وزنه وعندما يرفع رأسه لم يكن يهزها ويحركها، فضحك البغل وقال: كيف حالك يا أخي الحمار؟ قال الحمار: سأموت يا صديقي. فقال البغل: أنت أحمق، فقد قلدتني لكنك لم تدرك أنك تحمل على ظهرك قطنا وليس ملحاً. وهكذا يا أمي العزيزة لا يجب أن أقلد الناس حتى لا يكون حالي مثل الحمار.

قالت الحماة: يا أخي أنت لا تقلد أحد ما، وأنا لم أدرس المنطق مثلك، وافهم الكلام المباشر، وأن العشر روبيات التي تتقاضاها شهرياً هي فضل من الله وتكفي العيش، وليس لديك أولاد، والله يحفظكما كزوجين وستأكلان أطيب الطعام، وستلبسان أجود الملابس، فلو فكر الناس في المستقبل مثلما تفكر لأغلقت بيوت الدنيا، أ ليس للوظيفة والحياة اعتبار لديك؟ أ لست ترغب في أن تحيا حياة ملؤها السعادة والبشر؟

قال محمد عاقل: هذا نفس ما أفكر فيه، وهل السعادة في الانفصال أم في العيش مع الأسرة؟

قالت الحماة: ما معنى الحجة والمنطق، ولماذا لا تتكلم كلاماً مباشراً، ولماذا لا توافق على الانفصال عن الأم، فهذا الحديث ينبغي أن تقوله الزوجة، وأن الموافقة عليه نهاية هذا البلاء، ومن ثم تقول إنك لا تقصر في الاحتفاء بها، وما السعادة والراحة إلا في إرضاء الزوجة وما تعتبره راحة لها.

و بعد هذا الحوار بدأت تظهر على محمد عاقل ملامح الاستياء فآثر الصمت، وكان الليل قد ازداد ظلاماً، فقال محمد عاقل لحماته: "الآن عليك أن تخلدين للراحة وسوف أعاود التفكير في هذا الموضوع". استسلم أهل البيت للنوم، وظل محمد عاقل يفكر في هذا الموضوع طوال الليل، وعندما استيقظ في الصباح رأي أصغري تكنس البيت، وعندما رأته أصغري ألقت عليه التحية وقالت: " يا أخي! يوجد ماء ساخن للوضوء".

محمد عاقل: لا يا أختي! سوف أصلي صلاة الجماعة في المسجد.

أصغري: لا تذهب يا أخي فقد أعددت الشاي لك، ولكن أتشربه بالحليب أم سادة؟

محمد عاقل: كما تجدين.

أصغري: يبدو في صوتك غلظة، ولعلك قد أصابك الزكام ولهذا فاللبن ضاربك.

محمد عاقل: لا، لم أصب بالزكام، فقد كنت أتحدث مع أمك العزيزة في الليل حتى وقت متأخر ولم أنم جيداً.

عاد محمد عاقل بعد أن أدي الصلاة، ووجد حماته قد فرغت من الصلاة وتمضغ التنبول فسلم عليها وجلس، فأحضرت أصغري الصينية ووضعتها أمامه وعليها براد شاي ساخن وقد حان، وملعقتان، وسكرية بها سكر، فشرب محمد عاقل الشاي وكان طعمه لذيذا ولونه ورائحته ذات نكهة، فكان يشربه منتشياً وروحه ترفرف طرباً، وكانت أكبري لا تزال نائمة كعادتها. قال محمد عاقل: يا أمي أيقظيها لكي تصلي.

قالت الحماة: يا بني ! إن الجدة كانت تحبها جداً، وقد أفسد حبها لها جميع خصالها وعاداتها وعندما كانت صغيرة كنت أزجرها لأمر من الأمور كانت لا تتحدث معي لعدة أيام، ولم تفسح لنا المجال بأن نؤدبها، فصارت أكبري عنيدة وتكسر وتحطم الأشياء، ولا أحد يستطيع أن يضربها خوفاً منها، ولهذا فقد سببت أكبري الكثير من الأذى لوالدها.

عندئذ استأذن محمد عاقل بالرحيل، فقالت له الحماة وهو يهم بالانصراف: " يا بني عليك أن تتذكر حديث الليل ومن الضروري أن تجد له حلا.

(٥)
التشاور بين محمد عاقل وأمه حول الانفصال.

و في الطريق أخذ محمد عاقل يفكر في أحاديث تلك الليلة حول الانفصال، وما أن وصل إلى البيت حتى رأت أمه ملامح التفكير والحزن على وجهه، فأدركت أن لابد أنه تشاجر في بيت حماته، فسألته قائلة: يا محمد عاقل في نهاية الأمر لم تعمل بنصيحتي.

محمد عاقل: يا أمي ! إنني أقول الصدق فلم أتشاجر هناك قط.

الأم: ولكن لماذا تبدو مرهقاً شاحباً.

محمد عاقل: لا شئ، لقد جئت بعد أن استيقظت من النوم، ولهذا السبب ربما يبدو على وجهي ملامح الإعياء.

الأم: ثب إلى رشدك يا بني فأنت تنام وتصحو ولم أرك هكذا قط، فأخبرني صدقاً بحقيقة الأمر.

اضطر محمد عاقل أن يحكي قصة الليلة الماضية بأكملها للأم، كانت الأم تنصت بدهشة وذهول، ولكن تلك السيدة العاقلة قالت: أنا أتمني لك كل خير، وما دمت على قيد الحياة فستظل الأقرب إلى قلبي. وأنا أعيش بالصدفة مع اخوتك، ولكنني أري أن الوضع يبدو أنه انقلب رأساً على عقب، واليوم أقول لك أن زوجتك مزاج دار ترغب في المنزل المنفصل منذ الشهر الثاني للزواج، وأنها مستاءة للغاية من أنك تعطيني العشر روبيات شهرياً، وأنني في أغلب الأيام كنت أسمع من صديقات زوجتك أنها ستأجر بيتاً في حي " بلي مارون" وأنها ستصطحب معها الخادمة " زلفن"، وهؤلاء البنات كن يتشاورن ويتداولن هذا الأمر فيما بينهن عندما يجتمعن، وقد سمعت خالتها تتحدث ذات مرة عن هذا الأمر وأن مزاج دار لا تفضل البقاء معنا وأنها تعيش معنا على أن يكون فى طعامها وملابسها منفصلة عنا في هذا البيت، وكذلك حماتك تعلم أن مزاج دار لا توافق على ذلك، فالإنسان يسعد ويستريح بالزواج، ونحن نتعارك كل يوم، والشجار أمر غاية في السوء فإذا كانت زوجتك توافق على هذا ويسعدها الانفصال فتوكل على الله ولا تعتذر لنا، ولتعش حيثما تريد ولتسعد، فالله تعالى قد جبل الأم بالحنان على أولادها ولذلك سأحصر إليك هناك لرؤيتك بين الحين والحين، وسأصبر على ذلك، وعندما تسنح لك الفرصة وتفرغ من عمل المنزل تعالى لكي نراك.

وكان هذا الكلام قد أثر في قلب محمد عاقل فلم يتمالك، وانخرط في البكاء، وأدرك أنه اليوم ينفصل عن أمه، وبكت الأم أيضاً، وقال محمد عاقل بعد فترة وجيزة : " سوف لا انفصل سواء بقيت الزوجة أو رحلت".

الأم: ابني العزيز! ماذا تقول؟ إن الأشراف ينفصلون كذلك بزوجتهم، وأنت ستقضي عمرك معها، أما نحن فتقترب أقدامنا من القبر، فاليوم لي وغداً للآخرين، فخذ بنصيحتي، وافعل ما تقوله الزوجة، ونحن نعتبرك منفصلاً عنا منذ اليوم الذي تزوجت فيه، فلا أنا أم فريدة ولا أنت ابن نادر، وأي من الأولاد يظل طوال عمره مع الأم؟

استشار محمد عاقل أصدقاءه، فأجمع الجميع على أنه من الأفضل رفع الفساد وأن ينفصل عن الأم بشرط أن يواظب على طاعتها وخدمتها، وعندما أشار جميع الناس عليه بذلك، قال محمد عاقل أن الخير في الانفصال، وإنني تحملت هذه المرأة وكل البيت يعرف أنها عصبية وغير مطيعة وعنيدة، وسليطة اللسان فلو تركت المنزل فإن الانفصال ليس عيبا ولا ذنبا، وعلى هذا فهي لن تفكر في إدارة شئون البيت وستعيش في ضيق وبهذه الطريقة لن ننجو بأي حال من الأحوال من التفكير في الدنيا، والآن لن أفكر في هذا لأن هذه الفساد في حد ذاته عذاب، وأن التفكير في ضيق الرزق غير جائز، لأن المقدر سينفذ على كل حال، فهل لسعي الإنسان وحكمته دخل فيه؟ بعد أن فكر محمد عاقل في هذا عزم عزما أكيداً على الانفصال، وبالصدفة كان هناك بيتاً خالياً بالقرب من بيته فقام بتأجيره مقابل روبية شهرياً، وكتب العقد واخذ المفتاح وأرسل دعوة إلى بيت حماته بأنه قد استأجر بيتاً، وعليكم الحضور الآن للبيت الجديد، وقال لأمه أيضاً أنه حصل على شقة في بيت " تاركش" وجمعت الأم كل الأمتعة التي كانت لمزاج دار مثل صناديق الملابس، والأواني والمفروشات والسرير جميعاً في غرفة منفصلة، وفي المساء وصلت مزاج دار إلى بيت زوجها وفي الصباح استيقظت الأم وفتحت الحجرة وقالت لمحمد عاقل : "خذ يا بني! هذه الأمتعة الخاصة بالزوج وبزوجته ومن الأفضل أن تراها وتتفحصها.

محمد عاقل: ماذا تقولين يا أمي؟ هل أنا كنت في بيت غريب؟

الأم: يا بني لا تتحدث في هذا الأمر. وعليك أن تحمل أي شئ من هنا ومن هناك. وقالت لماما عظمت: " يا عظمت عليك أنت وجيرانك بتوصيل كل هذه الأمتعة إلى بيت تاركش.

وصلت صديقات أكبري جنيا، ورحمت، وزلفن، وسلمي وتحدثن معها وحملن كل الأمتعة وانصرفن.

(6)

بيت أكبري المنفصل وسوء تنظيمه

حضرت مزاج دار لتسكن في بيتها الجديد، وهي سعيدة مسرورة، وكانت أم محمد عاقل ترسل لهم وجبتي طعام لمدة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع قال محمد عاقل لزوجته: يا سيدتي عليك أن تبدئي الآن في إعداد بعض الطعام.

قالت مزاج دار: إن جميع الأثاث مبعثر حتى الآن هنا وهناك وانظر فأنا لم أفرغ من إعداد الموقد، ولم تسنح لي الفرصة بذلك حتى الآن.

و في نهاية الأمر ظلت تخبز في التنور لمدة سبعة أيام، وكان الزوج وزوجته كلاهما يأكلان الخبز وكانا يرسلان لشراء الكباب من السوق في الليل، والقشدة والزبادي في النهار، وأخيراً قال محمد عاقل لزوجته مزاج دار ذات يوم أن تطبخ الطعام، ولم تكن مزاج دار قد طبخت الطعام قط، فعندما خبزت الخبز كان شكله عجباً فلا هو مستدير، ولا هو مربع وأطرافه بعضها مدبب رقيق وبعضها غليظ، وفي بعض الأحيان محترق وفي أحيان أخرى غير ناضج، وأسود من الدخان، وعندما طبخت العدس كانت الحبات منفصلة في جانب والمرق في جانب آخر، المهم أن مزاج دار كانت تطبخ طعاماً لذيذاً بحيث من يراه يهرب منه الجوع، وطبخت اللحم أيضاً ولكنه بلا لون أو طعم وعندما كانت تضع الملح كان كأنه سم وبلا نكهة كأنه ماء. وقد صبر محمد عاقل عليها عدة أيام، وفي آخر الأمر بدأ يأكل في بيت أمه، وقد وجدت مزاج دار في ذلك راحتها، فكانت ترسل الخادمة إلى السوق في الصباح والمساء لتشتري لها التمر والقشدة واللبن الرائب، والكباب، وكان الطعام الذي تطبخه تأكله زلفن حتى صارت بدينة، فالقطط تصبح محظوظة عندما تتمزق شبكة الطعام، ولكن لا يمكن أن تكفي العشر روبيات شهرياً مع هذا البذخ والإسراف فبدأت تبيع أساس البيت في الخفاء، ولم يكن محمد عاقل يعلم بذلك أصلاً.

و في أحد الأيام ذهب محمد عاقل إلى عمله، وكانت مزاج دار نائمة حتى الظهر، وعندما جاءت إليها جنيا ورأت أنها تغط في نوم عميق، ذهبت إلى أخيها ميرن وأخبرته بذلك، وكان سارقاً ماهراً وسئ الخلق، وكانت مزاج دار لا تزال غارقة في النوم، وحضر ميرن و سرق جميع الأواني والأثاث في وضع النهار، وعندما استيقظت مزاج دار وجدت أن البيت قد سرق وكأنه كنس بمكنسة، وكانت توجد حجرة مغلقة بالقفل ولهذا أنقذت جميع محتوياتها وإلا كانت قد سرقت هي أيضاً، والآن لم يبق حتى كوب

واحد لشرب الماء، وعندما رجع محمد عاقل من العمل وعلم بذلك حزن حزناً عظيماً، ولكن ماذا يفيد الصراخ بعد أن تأكل العصافير الحقل، فتشاجر مع زوجته، واخذ يضرب رأسه وجلس أخيراً وانخرط في البكاء، ثم اقترض مالاً واشتري من السوق بعض الأثاثات البسيطة، وأعطته أمه بعض الأواني، وأرسلت له حماته بعض الطواجن والصحون والأواني، وتم تسيير الأمور بأي شكل من الأشكال.

(٧)
خداع محتالة لأكبري

وفي تلك الأيام قدمت إلى المدينة محتالة (عيارة) بالصدفة، وذاع صيتها في كل مكان حتى أن محمد عاقل قال لزوجته لا تسمحي لأي امرأة غريبة بالدخول إلى البيت، ففي هذه الأيام توجد محتالة وأنها قد احتالت على عدة بيوت وسرقتها، ولكن مزاج دار كانت شديدة الغباء، وكان من عادتها أنها تتفاعل وتتعارف مع كل واحد بسرعة، وذات يوم جاءت هذه المحتالة إلى الحي بعد أن تخفت في ملابس سيدة حاجة، وكانت هذه الحاجة الماكرة تحتفظ معها بمئات الأشياء للتبرك بها من أجل إغواء النساء والإيقاع بهن، مثل السبح، وتراب الشفاء، وماء زمزم، وتمور المدينة المنورة، وإسمد من جبل الطور، وأجزاء من كسوة الكعبة، وعقيق البحر وبعض الحصوات، والسور القرآنية، وكثير من الأدعية، وبعد أن جاءت إلى الحي افتتحت دكاناً لها والتفت الفتيات حولها، وعندما سمعت مزاج دار بذلك قالت لزلفن:

عليك أن تقومين باحضار هذه الحاجة هنا بعد أن تقوم من الحي، فنحن نريد أن نتبرك بزيارتها أيضاً، فذهبت زلفن واستدعت الحاجة، وقد قابلتها مزاج دار حفاوة وترحاب وعرضت الحاجة عليها جميع الأشياء وقد أعجبت مزاج دار بشيئين هما الإسمد والأدعية الخاصة بالإمام علي، وفطنت الحاجة من حديث مزاج دار بأن هذه المرأة ستسقط بسرعة في حبائلها، ووزنت لها الحاجة إسمد كثير بقرش واحد وأعطتها أدعية الإمام على بقرشين وأعطت لها من عندها خاتماً من الفيروز مجاناً على سبيل التبرك فتنت به مزاج دار وبعد ذلك أخذت الحاجة تروي لها أحاديث وهمية عن أحوال البحر والعرب وكانت مزاج دار تنصت إليها بشوق وشغف وتلتفت إليها التفاتة خاصة، فسألتها الحاجة: أ لم تنجبي أطفالا؟

قالت مزاج دار بآهة وحسرة: لم يكن لي نصيب.

سألتها الحاجة: منذ متى تزوجتى؟

قالت مزاج دار : لم يمر على زواجي عام.

تأكدت الحاجة الآن أن مزاج دار حمقاء، وبدأت تقول في نفسها إنها تحسرت بعد أن سمعت اسم الأولاد وكأنها تأمل ذلك منذ سنوات. وقالت الحاجة لا داعي لليأس فسوف يكون لديك الأطفال وسوف لا تتمكنين من

الاهتمام بهم ورعايتهم، ولا شك أن قلبك يضطرب لأنك وحيدة في البيت، فكيف حال زوجك؟

قالت مزاج دار: هو دائماً غير راض عني.

المهم أنه في أول لقاء أخبرت مزاج دار الحاجة بكل صغيرة وكبيرة عن أحوالها بلا تكلف، وعلمت الحاجة بجميع أسرارها في معرض حديثها معها، وهمت الحاجة بالرحيل بعد أن جلست لساعات طويلة، فتوسلت مزاج دار إليها قائلة: "حسناً سيدتي الحاجة متى ستعودين؟

قالت الحاجة: إن ابنه أخي تعيش في حي الشماعين، وهي مريضة جداً، وقد حضرت من مدينة "اجرا" من أجل علاجها، والفرصة ضئيلة لعلاجها بالدواء، ولكنني إن شاء الله سأحضر لزيارتك خلال يومين أو ثلاثة.

و في اليوم التالي حضرت الحاجة مرة ثانية وأتت معها بإزار حريري، وفرحت مزاج دار بعد أن رأت الحاجة قادمة من بعيد، وسألتها:

" ما هذا الإزار؟"

قالت الحاجة: إنه للبيع.

قالت مزاج دار: كم يساوي؟

قالت الحاجة: بأربع "أنات"، إن هناك سيدة تسكن في الحي، وهي الآن فقيرة وتعيش من حصيلة بيع هذه البضائع وأنا كثيراً ما أبيع لها هذه الأشياء.

و بعد أن رأت مزاج دار هذا الثوب رخيص إلى هذا الحد انقلبت على اعقابها وأخرجت النقود فوراً ووضعتها في يد الحاجة وقالت لها بتضرع وعزة : "أيتها السيدة الرحيمة عليك أن تعرضي على أولاً تلك الأشياء التي تريدين بيعها".

قالت الحاجة: " حسناً أنت أولاً والآخرون من بعدك". وبعد ذلك تجاذبا أطراف الحديث وعند رحيل الحاجة أخرجت مخلاة بها ملابس وورقة في طياتها حبات قليلة من القرنفل، فأعطت الحاجة حبتان من القرنفل إلى مزاج دار وقالت لها: " إنه بعد هذا اللقاء والحب في الدنيا يجب أن يفيد كل منا الآخر، فهاتان القرنفلتان التي أعطيتهما لك عليك أن تربطي إحداهما في ضفيرتك، والثانية من الأفضل أن تضعيها في عمامته، ولكن ربما يشتبه زوجك في الأمر فضعيها في

وسادته ومن اليوم سترين أثرها. وعليك أن تحتاطي وتكوني في مكان طاهر ونظيف، وقيسي على قدر طولك خيطا وأعطيه لي أعد لك تعويذة، فعندما ذهبت إلى الحج كانت تركت معي على نفس الباخرة سيدة من " بهو بال"، ولعلك سمعت عن اسمها إنها السيدة "بلقيس جهاني" لقد أعطاها الله كل ما تريده، كان لديها كل شئ، مال لا حصر له، والخدم والجواري والغلمان ومحفة، ولكنها كانت متألمة بسبب الأولاد، فلم تنجب أطفالاً، ومن ناحية أخري لم يكن زوجها الأمير يهتم بها قط، وربما كان لا يحبها بسبب عدم إنجابها للأولاد، وكانت السيدة جميلة المحيا كالشمس والقمر ورغم هذا الجمال والثراء فأنها كانت بسيطة متواضعة وتجلس مع البسطاء أمثالنا سواء بسواء وتستفسر منا، وكانت هذه السيدة تعتقد في الفقراء والصوفية بدرجة كبيرة، وذات مرة علمت بمجيء أحد الشيوخ على بعد ثلاثة أميال فخرجت إليه من بيتها سيراً على الأقدام في ليلة مظلمة ووصلت عنده ووقفت بأدب بين يديه وقالت لنكن فداء للفقراء من أهل الله، وذات مرة نظر إليها السيد وقال: أذهبي وسوف ترين الحكم في المنام، وقد رأت السيدة البشري في منامها أن أذهبي إلى الحج وأخرجي من البحر لؤلؤ المراد، بعد أن استيقظت في الصباح بدأت الاستعداد للذهاب للحج واصطحبت معها على الباخرة خمسمائة من المساكين بعد أن تولت نفقات حجهم وكنت أنا واحدة منهم، وبقيت معها طوال الوقت الوقت، وكانت السيدة (نور الله وجهها في الدارين) نحبني كثيراً وتناديني بالصديقة، وظلت الباخرة تسير بنا في الماء لمدة عشرة أيام متواصلة، وفي اليوم الحادي عشر تراءي لنا جبل في الماء فقال الربان: " هذا جبل الحبشة وكان يعيش فيه صوفي كبير من يذهب إليه يظفر بمراده، فقالت السيدة للربان: " عليك أن توصلني إلى هذا الجبل بأي طريقة". قال الربان: أيتها السيدة إن الباخرة لا تستطيع أن تصل إلى الجبل ولا شك أنني سوف أدلك واجعل الباخرة ترسو حتى تستقلين أحد القوارب للذهاب هناك. قالت السيدة: حسناً، يجب على أن أذهب إلى جبل الحبشة ومعي خمسة من النساء، أنا وأربعة أخريات، وعندما وصلنا إلى الجبل كانت تتضوع منه رائحة طيبة ومشينا حتى وصلنا إلى الصوفي "شاه صاحب" والمكان الذي يوجد فيه ليس فيه بشر وكان شاه صاحب يعيش في غار بمفرده ووجهه نوراني كالملائكة، فدعا لنا، وأعطي السيدة اثنتي عشرة حبة قرنفل، وقرأ عليها بعض الأدعية وقال لي: "اذهبي

وأحسني إلى الناس في أجرا ودلهي". وهاتان القرنفلتان يا بنيتي من تلك الاثنتي عشرة قرنفلة، وعندما عدنا جميعاً من الحج وجدنا أن الأمير الذي لم يكن يتحدث مع هذه السيدة (زوجته) قد حضر إلى بومبي منذ شهر مضي ليصطحب السيدة، وما أن نزلت السيدة من الباخرة حتى وضع الأمير رأسه على أقدام السيدة وانخرط في البكاء وطلب منها أن تعفو عنه، وبعد مضي ست سنوات من عودتها من الحج إلى "بهو بال" رزقها الله بأربعة أبناء وكنت أعيش مع السيدة وراودني الحنين إلى موطني وطلبت من السيدة أن تأذن لي بذلك فمنعتني كثيراً ولكني قلت لها أن "شاه صاحب" قد حملني مسئولية خدمة أهل دهلي وأجرا وأن ذهابي إلى هناك أمر ضروري، وبعد أن سمعت السيدة ذلك أذنت لي على كره منها.

و كان معها قرنفلتان، وحكاية الورقتين إنها حكاية جذابة، وقد صدقتها مزاج دار بقلبها وبروحها، وأعطتها الحاجة القرنفلتين وانصرفت. اغتسلت مزاج دار وبدلت ملابسها وتطيبت ووضعت في ضفيرتها قرنفلة قائلة بسم الله، وبدلت فراش ووسائد زوجها ووضعت قرنفلة في وسادة منها، وعندما عاد محمد عاقل إلى البيت ورأي زوجته نظيفة وجميلة وأنها بدلت الفراش دون أن يقول لها تملكه السرور وبدأ يتحدث معها باهتمام وود.

قالت مزاج دار: " أنظر لقد اشتريت اليوم شيئاً ما، قالت له هذا وعرضت عليه الثوب.

قال محمد عاقل: بكم اشتريته؟

قالت مزاج دار : " عليك أن تقدر أنت قيمته" وهو ثوب خاص مصنوع في لاهور ونفيس للغاية ومطرز بالخيوط والأسلاك الفضية والذهبية.
قال محمد عاقل: لا يقل بأي حال عن روبيتين.

مزاج دار: أخذته بأربعة آنات.

محمد عاقل: حقاً ما تقولين؟

مزاج دار: أقسم برأسك أنني اشتريته بأربعة آنات.

محمد عاقل: رخيص جداً من أين اشتريته؟

مزاج دار : من حاجة طيبة جداً تأتي إلى الحارة منذ أيام بعيدة، وكانت تبيع هذه البضائع.

و بعد أن قالت هذا عرضت مزاج دار عليه الكحل والأدعية وخاتم الفيروز لينظر إليها.

إن الطمع هو سبب المصائب التي يقع فيها الإنسان العاقل وينخدع، وحيوانات الغابة كالبلبل والببغاء وغيرها تهرب من هيئة الإنسان ولكنها تقع في الشرك طمعاً في الحب وتمضي بقية عمرها أسيرة في القفص. كذلك محمد عاقل فقد سر بعد أن رأي في ذلك مصلحة له، وعندما قالت مزاج دار أن "تلك الحاجة قد وعدتني بأن تحضر لي جميع البضائع التي ستبيعها".

قال محمد عاقل : من الضروري أن أري هذه البضائع، ولكنني أرجو ألا تكون مسروقة وتسبب لنا المتاعب، وألا تكون الحاجة محتالة.

قالت مزاج دار: أذكر الله هذه الحاجة ليست كذلك، وقد اعتقدت مزاج دار في القرنفلتين اعتقاداً راسخاً منذ اليوم الذي تحدثت فيه مع محمد عاقل، وفي اليوم الثاني أرسلت زلفن لكي تستدعي الحاجة، ومنذ اليوم اعتبرت مزاج دار الحاجة أماً وهي ابنة لها، وفي الليل ورد ذكر الحاجة لمحمد عاقل، فقال محمد عاقل: تمهلي! وكوني عاقلة، إن الكثيرات ينخدعن ويقعن في هذا الشرك. ولكن الطمع قد أسدل حجبه على عقل محمد عاقل نفسه لدرجة أنه لم يفهم من هذا الكلام الواضح أنه ليس هناك سبب ما كي تعطيها شئ ثمنه روبيتان بأربعة آنات، وكان من المناسب أن يمنع محمد عاقل الحاجة من الحضور منعاً باتاً ويعيد إليها جميع الأشياء ولكن أين هذا العقل لمزاج دار لكي تدرك كنه ذلك. وبعد عدة أيام سألت مزاج دار الحاجة لماذا لا تحضرين يا سيدتي أي متاع من أمتعة تلك السيدة في هذه الأيام؟

أدركت الحاجة أن مزاج دار يستهويها أي شئ فقالت لها: سأحضر لك أي شئ يناسبك. بعد عدة أيام أحضرت لها لؤلؤتين زائفتين وقالت لمزاج دار : "خذي يا سيدتي هاتين اللؤلؤتين من حلي السيدة نفسها" ولا أعلم هل ثمنهما ألف أو خمسمائة، وقد عرضتهما على الصائغ فكلف بهما وعقد العزم على أن يعطيني مائتي روبية، وكنت قد أخذتهما من السيدة بخمسين روبية فلتأخذيهما كما اشتريتهما فلن تجدي مثلهما بهذا الثمن.

قالت مزاج دار : ليس لدي خمسون روبية نقداً.

قالت الحاجة: ماذا نفعل يا ابنتي؟ عليك أن تبيعي الأساور إن لم تفعلي فسوف تباع اللؤلؤتان اليوم. قالت الحاجة ذلك بطريقة جعلت مزاج

دار تحضر صندوق حليها على الفور وتخرج الأساور وتعطيها للحاجة. وبعد أن رأت الحاجة حلي مزاج دار قالت: كيف تضعين الحلي بلا اهتمام وعناية مثلها كمثل الفجل والجزر، وعليك يا بنيتي أن تنظمي الحبات في العقد، وأن تجليها فإن القرط والعقد والأساور تتآكل بفعل التراب.

قالت مزاج دار: من الذي ينظم حباتها؟ ومن الذي يجلوها؟ إنه لا يمنحني الفرصة قط.

قالت الحاجة: يا ابنتي هذا ليس بالعمل الكبير. خذي اللؤلؤتين احتفظي بهما معك، وأنا أنظمها في الخيط وأنظف الحلي من التراب وأجلوها الآن.

سلمت مزاج دار لها جميع الحلي فقالت الحاجة: أرسلي زلفن معي، لتجلس عند الصائغ وأنا سأنظم العقد.

قالت مزاج دار : حسناً ثم نادت على زلفن، وعندما جاءت قالت لها الحاجة: فلتمشي معي قليلاً يا ابنتي ولتجلسي عند دكان الصائغ.

أخذت الحاجة الحلي واصطحبت معها زلفن، وبعد أن خرجا من الحارة فتحت الحاجة منديل الحلي وقالت لزلفن علينا أن نفصل الحلي التي بحاجة إلى التلميع عن التي في حاجة إلى النظم في الخيط، وعندما كانت تفصل الحلي قالت الحاجة لزلفن: أين مسمار (قفل) القرط؟

قالت زلفن: إنه هنا وهو شئ صغير وقد رأيته في هذه اللفافة (المنديل).

ثم قالت الحاجة : آه! لقد وضعته على غطاء علبة التنبول فاذهبي بسرعة يا زلفن واحضريه.

عادت زلفن مسرعة وصاحت من على الباب: يا سيدتي لقد وضع مسمار القرط على علبة التنبول وقد طلبته الحاجة فأعطيني إياه بسرعة فالحاجة جالسة أمام دكان البقال في نهاية الحارة.

عندما كانت زلفن تتحدث كانت مزاج دار في ذهول فقالت لها: هل أنت مجنونه، أي مسمار؟ لم يكن عندي؟ هل رأيته؟ فاسرعي يا تعيسة الحظ وانظري فلعلك لن تجديها في الحارة.

نكصت زلفن على عقبيها مسرعة وأخذت تنظر على الحاجة هنا وهناك فلم يكن لها أثر في أي مكان فنادت على مزاج دار وقالت لها:

سيدتي لم استدل على عنوان الحاجة وقد بحثت عنها حتى في السوق فأين اختفت في هذه المدة القصيرة؟

أخذت مزاج دار تضرب رأسها بعد أن سمعت هذا الكلام وتصيح : "لقد سرقت ! لقد نهبت! أنقذوني بالله عليكم أيها الناس. أسرعوا أيها الناس إلى حي " الشماعين" وبعد أن ذهبوا هناك علموا أنها استأجرت منزلاً لمدة شهر وكانت تعيش فيه ثم غادرته منذ أربعة أيام، فماذا أفعل الآن؟ جاء محمد عاقل وسمع بما حدث فضرب رأسه أسفاً وقال لزوجته : إنك ستخربين المنزل ولكني أريد أن أعرف منك أولاً.

قالت مزاج دار: ابتعد عني! أنت الآن تقول مثل هذا الكلام ولكنك بعد أن رأيت الثوب قلت لي من الضروري رؤية أمتعة السيدة.

الهم أنه وقعت مشاجرة كبيرة بين الزوج وزوجته وتجمع كل أهل الحي وانتشر الكلام في كل مكان واتضح أن هذه الحاجة جاءت إلى حارة "كنجني" وسرقت جميع حلي زوجة أحمد بخش خان بعد أن خدعتها بحيلة أنها ستضاعفها لها عند أحد الشيوخ، وفي حي القطن تقربت من ابنة زوج " مسيتا" وسلبت منها الحلي بحجة العناية بها، الخلاصة أن الحلي قد سرقت وبقيت أحاديث كثيرة عنها، واللؤلؤتين اللتين كانتا تقول إنهما يساويان ألف روبية عندما رآهما الناس قالوا أنهما لا يساويان إلا ثلاثة بيسات، وقد أخروا قسم الشرطة وقد بحث الناس من تلقاء أنفسهم كثيراً عن الحاجة ولكنهم لم يعثروا لها على أي أثر.

لقد سمعنا عن الملابس التي كانت في جهاز أكبري، فعندما كانت تعيش مع حماتها كانت تخرجها كل عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً وتعرضها لأشعة الشمس ولكن بعد انفصالها عن حماتها مع بداية موسم المطر كان صندوق الملابس قد وضع في الحجرة كما هو، وانقضي موسم المطر بأكمله دون أن يكون لها نصيب في رؤيته، وظلت تراوح مكانها هناك، وبمجئ الشتاء كان لا بد أن يفتح الصندوق لحاجتها إلى بطانية ولكنها وجدت أن الأرضة (العتة) قد أتلفت كثيرا من الملابس وقرضتها الفئران وأحدثت بها فتحات ولم يسلم منها أي ثوب.

لعلكم علمتم من خلال ما قرأتموه من سيرة أكبري كيف جنت الجدة على حياة أكبري بأسرها بسبب الحب والتدليل الزائد لها فلم تتعلم أي حرفة في طفولتها كما أنها لم تهذب من سلوكها، فعندما انفصلت أكبري عن حماتها في بيت مستقل كان يوجد عندها كل شئ الأوعية والمفروشات والملابس والحلي ولكنها بددت جميع الأموال والأمتعة في غضون عدة أيام

بسبب عدم معرفتها لطبيعة إدارة شئون المنزل وفي خلال عام واحد لم يكن في يديها وأذنيها حلي، ولو أن محمد عاقل أحمق وسيئ المزاج مثلها ربما انفصل كل منهما عن الآخر، ولكن محمد عاقل كان دائماً يتسم بالعقل والحكمة، ونكتفي بهذا القدر من سيرة أكبري لأنه لو أردنا الكتابة عنها كاملة لأمكننا تأليف ثلاثة أو أربعة مجلدات، ولكن قراءة سيرة حياة أكبري يصيب بالغضب حيناً وبالضيق والضجر حيناً آخر، ولكن القلب لا يرغب في كتابة المزيد عن أحوالها، فلماذا لا نكتب عن حياة أختها الصغرى (أصغري) لأن الحديث عنها يسعد قلوب القراء والسامعين.

(٨)
زواج أصغري ومختصر سيرة حياتها

كانت هذه الفتاة في بيت أبيها كالرحيق بالنسبة للزهرة، وكالعين في جسم الإنسان، وقد أجادت جميع الحرف والأعمال الخاصة بالمنزل، وقد وهب الله أصغري جميع المحاسن كالمروءة والحياء ومهابة الله، وحسن العشرة، وطيبة القلب، والتواضع، والنظام والأدب والذكاء والعلم، وكانت في طفولتها تنفر من اللعب والضحك ولغو الحديث وتقضي أوقاتها في القراءة وأعمال المنزل، ولم يرها أحد تتشاجر مع أحد أو تثرثر بالخرافات مع شخص ما، ولذلك كانت كل نساء الحي يحبونها ويعتبرونها كبناتهن، ولا شك أن كل أب وأم يتمني أن تكون له ابنة مثل أصغري وسيكون البيت الذي تصبح فيه أصغري زوجة بيتاً سعيد الحظ، وبفضل الله وكرمه أن أصغري خطبت لمحمد كامل، وهي في الثالثة عشرة من عمرها وذاع الخبر بأن الزواج سيتم بعد شهر وأيام قليلة، ومن ناحية أخرى فقد تملك الخوف والدة محمد كامل بعد رؤيتها لطباع أكبري وأسلوبها وطبقاً للمثل: "من يلسع من اللبن ينفخ في الزبادي" فكان بدنها (جلدها) يقشعر فزعاً كلما تذكرت أكبري، وفي السر كانت أم محمد عاقل تريد أن تخطب له فتاة صغيرة من مكان آخر وبطريقة ما علم محمد عاقل فقال لأمه: "أماه، لقد علمت أنك تبحثين عن فتاة لخطبتها لمحمد كامل".

قالت الأم : ماذا تقول يا بني؟ فأنا خجلة جداً، فماذا أفعل؟ وكيف لا أبحث ؟ أ لست أنت أمام ناظري، أنا مذنبة أمام الله من أجلك، فأنظر كيف يكون نصيب محمد كامل؟

قال محمد عاقل: أصدقك القول يا أمي لو أخذتي مصباح وبحثتي طول عمرك عن فتاة مثل أصغري بين ألف فتاة فلن تجدي مثل أصغري، فقد ميزها الله خلقاً وخلقة، فلا تفكري قط وسيري في إجراءات الزواج على بركة الله، ولا تفكري في أختها الكبرى ولعلك سمعت أن:

ليس النساء كبعضهن ولا كل الرجال رجال

ولم يساوي الله بين الأصابع الخمس

فلكل طبعه ولكل طبيعته المختلفة.

إن الأزهار التي في الحديقة بالآلاف

فانظر بمن يظفر الربيع،

فلكل لون مختلف ولكل أريج يتضوع.

لا حول ولا قوة إلا بال له فليس هناك أي وجة للمقارنة بين زوجة ابنك وأصغري.

- فما قيمة التراب في عالم الطهارة.

بالله عليك اطلبيها للزواج وستتأكدين من كلامي (نصيحتي) بعد ذلك، وفيما يتعلق بي فأنا لم أشك لك قط، فاطردي هذه الفكرة من خاطرك، أنا أعرف جيداً أنها لن تقتحم قلب أي شخص وأنت تحكمين على جميع الأمور بظاهر ها، والله عليم بالعواقب ولعلها تكون سيدة فاضلة وتكون زوجة لابنك وزوجة لأخي، وأقول لك مرة ثانية أن أصغري فتاة طيبة القلب ولعلها تصلح من شأن زوجة ابنك الكبرى (أكبري)، أنها صغيرة لكنها معروفة بأدبها في الحي بأكمله وهي جديرة بذلك، أنظري بالله عليك لا تتركي أصغري.

و بعد أن امتدح محمد عاقل أصغري بهذا القدر اقتنع محمد كامل بهذا الحديث، المهم أن الطرفين قد اتفقا بعد التشاور فيما بينهما على إتمام مراسم الزواج على خير في اليوم الثاني لعيد الأضحى، وكان والد أصغري دور انديش خان يعمل موظفاً في منطقة جبلية فأرسلوا له خطاباً، وقد ظهر البشر والسرور على وجه دور انديش خان بمجرد وصول الخطاب فقد كان يحب أصغري أكثر من جميع أولاده وقدم طلباً للإجازة فوراً ولكن طلبه قوبل بالرفض نظراً لحلول الشتاء وكانت زيارة الحاكم قد بدأت لذا كان عذراً معقولاً، وقد تألم دور انديش كثيراً لعدم حصوله على إجازة ولكن ماذا يفعل العبد العاجز؟ فقهر الفقير جعلت روحه تلوذ بالصمت، ولكن ابنه الأكبر انديش خان كان معه فأعطاه خمسمائة روبية وأرسله إلى المنزل بعد أن زوده بنصائحه الهامة وكانت الحلي والملابس والأواني موجودة في المنزل من قبل، وبمجرد أن وصل خير انديش خان إلى المنزل قام بشراء الأرز والسمن والقمح والتوابل والملح كل بقدر الحاجة، وبدأ في حياكة ملابس أصغري، وكانت رغبة الأم أن تمنح أصغري جهازاً أكثر من جهاز أختها الكبرى، فأعطتها الأواني أكثر وزناً والحلي أكثر عدداً، وفي النهاية فإن أصغري كانت تسكن في نفس المنزل فكان من الضروري أن تعلم بهذا الأمر، وعندما سمعت أصغري أنها ستحصل على جهاز أكثر من أختها تألمت أصغري وأخذت تفكر في حيلة ما لمنع أمها من ذلك ولو أنها فتاة حمقاء لسعدت بذلك وفي النهاية قالت لتماشا هانم ابنة خالتها على استحياء: " لقد استغرقت في التفكير بمجرد سماع ذلك وتملكني التفكير عدة أيام،

رباه ماذا أفعل؟ ومن الأفضل أن أذهب إليك ولم تتردد في الحديث معها نظراً لتقاربهما في العمر لذا عليك أن تقنعي أمي بألا تعطيني شئ أكثر من أختي أكبري.

قالت تماشا هانم بعد أن استمعت إليها: أنت أمراه محيرة، يقول المثل: "يعطي الحمار – فنقول إن عيني تألمني" إن الله يعطيك فلماذا ترفضين؟

قالت أصغري: أنت مجنونة، فسيترتب على ذلك عدة مشاكل وأنت تعرفين مزاج أختي ولابد أنها ستتألم وتسوء العلاقة بينها وبين أمي بدون حق وتسئ الظن بي.

قالت تماشا هانم: أختاه أين سوء العلاقة في هذا الأمر؟ هذا نصيبك وهناك مئات الطرق لتفهيمك فتزوجي على بركة الله واحتفلي بزواجك فقد بقيت مخطوبة لأربع سنوات ولم يكن لك يوم عيد فيها فلماذا لا تفهمين ذلك؟

قالت أصغري: حقا ولكن بالنسبة للجهاز فإنه عندما تحصل الصغيرة على جهاز أكثر فسوف تتألم الكبرى وسنسكن في حي واحد وسنلتقي يوميا فلماذا تتأثر القلوب بسبب هذا الأمر؟

قالت تماشا هانم: أختاه أنت تكدرين خاطرك بلا داع. حسنا! فسوف ينسي الجميع هذا في شهر أو شهرين (بمرور الوقت).

قالت أصغري: " راعي الله يا سيدتي فكيف تكون الخسارة مكسباً؟ فلا أحد يكمل حياته بعطاء الأم والأب وكم يكون عمر الجهاز وقد منحك الله القدرة فلا تصرين على هذا الأمر وليس لي حيلة أخرى ولن أو افق على ذلك بأي طريقة".

المهم أن أم أصغري علمت بهذا الأمر، وبدأت تفكر في أن تثنيها عن رغبتها وأخذت تقول في نفسها أنها ستعطيها كل شئ بطريقة أخرى، وستفهمها ذلك في موضع آخر، وخلاصة القول أن الزواج تم في ساعة مباركة في اليوم المحدد، وبدأ المهنئون يباركونهم، وكان خير انديش خان إنسانا منظما بحيث استطاع بمفرده إتمام مراسم زواج أخته على أكمل وجه وقام باستقبال المحتفلين بالعرس والترحيب بهم كل على قدر منزلته وأرضى أصحاب الحق بحقوقهم على أكمل وجه، وقد حدثت فتنة وضجة عندما حان وقت وداع أصغري، حيث كانت صدمة كبيرة للأم، وكذلك كان حال سيدات الحي اللائى جئن ليعانقن أصغري وهن يبكين وكل واحدة

منهن تدعو لها من قلبها، ودخلت أصغري بيت حماتها وهي محملة بجهاز ثقيل من دعاءهم، وهناك حصلت أصغري هانم على لقب " تميز دار" بعد رفع النقاب عن وجهها طبقاً للعادات والتقاليد

وسنعلم فيما بعد كيف أسندت إدارة شئون المنزل إلى أصغري، وما المشاكل التي واجهتها وكيف كانت تحلها بعقلها الراجح.

ذلك قليل عن أحوال أصغري نبغي به المقارنة مع حالة أكبري، كانت أصغري الابنة الثانية لأمها وزوجة الابن الثاني لحماتها، وكان أمنية كل طرف، أن يتم زواج أكبري، وكان عمر أكبري عند زواجها ستة عشر عاماً، بينما لم تكمل أصغري ثلاثة عشر عاماً عند زواجها، وعندما تزوجت أكبري كان راتب زوجها محمد عاقل عشر روبيات، في حين كان محمد كامل زوج أصغري لا زال يدرس، وكان محمد كامل أقل علماً وأقل عقلاً من محمد عاقل، ولم ترزق أكبري بأطفال بعد مضي عامين من زواجها، بينما جعل الله تعالى أصغري أماً وعمرها صغير في العالم الثاني لزواجها، ولم يحدث أن خرجت أكبري قط خارج المدينة في حين أمضت أصغري سنوات في سفر، وعلى كل حال لم تكن أحوال أصغري على ما يرام مقارنة بأحوال أكبري، ولكن أصغري تربت في طفولتها على تحمل المسئولية لذا زادت البركة في بيتها يوماً بعد يوم، وفي الوقت الذي لم يكن فيه أحد يعرف اسم أكبري كان لتميز دار قصر منيف مشيد في (سوق الهانم) يطاول عنان السماء، وصار سوق الهانم مشهوراً باسم أصغري هانم وأمرت تميز دار ببناء حوض وبئر في المسجد العالي في سوق الصاغة، وبعد أن نتجاوز السوق الخاص يوجد موضع باسمها هو (تميز كنج) مجاور لـ(لال دكي)، كما يتلقى عشرون من المسافرين حتى الآن وجبتان من إدام الحمص والخبز المخمر من مطبخ مسجد مولوي محمد حيات، وابتنت تميز دار نزل (خان) مقابل مسجد أوليا في منظمة (قطب صاحب)، ومع حلول شهر رمضان يأتي إلى (فتح بورى) خمسمائة نسخة من القرآن الكريم من مطابع بومباي ويتم توزيعها من قبلها، وكان الفقراء يحصلون على آلاف البطاطين من بيتها عند حلول فصل الشتاء.

و عندما أخبر خير انديش خان والده دور انديش خان أنه بفضل الله وكرمه قد تم عقد قرآن أخته العزيزة في الحادي عشر من ذي الحجة على مهر فاطمة رضي الله عنها – أدي دور انديش خان ركعتي صلاة شكرا لله تعالى لكنه لم يقو على فراق ابنته وظل متعلقاً بها ردحاً من الزمن.

(٩)
نصائح هامة للفتيات المتزوجات

إن الخطاب الذي كتبه دور انديش خان باسم أصغري بعد زواجها جدير بالقراء، وقد حصلنا على نسخة منه بالصدفة وهذا نص الخطاب:

" راحة الروح والفؤاد صغيرتي أصغري هانم سلمها الله تعالى، بعد الدعاء والشوق لرؤيتك وتقبيلك فقد علمت بخبر رحيلك من خطاب أخيك خير انديش خان وكانت أمنية القلب منذ سنوات أن أودي هذا الفرض تجاهك باهتمام خاص، ولكن الحاكم لم يمنحني الإجازة فبقيت مجبراً، لعله يبدو لك هذا الأمر وهو أنني كنت أحبك حباً خاصاً من بين اخوتك، وأنا لا أكتب هذا الكلام على سبيل المن والإحسان بل لأنك تربعت على عرش قلبي وقلوب الجميع بسبب خدماتك وامتثالك للأمر، ولقد حملت على عاتقك جميع أعباء المنزل منذ أن كنت في الثامنة من عمرك وسأظل أعي هذا الأمر دائماً وهو أنه بسببك نالت السيدة أي أمك الطمأنينة وراحة البال. ولو حدث ورجعت إلى المنزل في تلك الأثناء كان قلبي يسعد دائماً برؤية ترتيباتك والآن هناك خسارة بذهابك إلى بيت زوجك وربما لا يمكن تلافيها في هذا العمر، فليمنحك الله خير الجزاء وليظهر عليك أثر دعائي جزاءً لهذه الخدمة. وقد علمت كذلك من خطاب خير انديش خان أنك رفضت أخذ جهاز أكثر من جهاز أكبري هانم وقد ثبت من هذا علو همتك وبعد نظرك، ولكني أرسل لك نعم البدل عن هذه الخدمة وهو هذا الخطاب وعليك أن تحتفظي به لديك كدستور للعمل به، وعليك العمل تبلك النصائح وإن شاء الله ستذلل لك جميع المشاكل وستعيشين حياتك براحة وطمأنينة.

يجب أن تعلمي ما الزواج؟ ليس معني الزواج أن ترتدي الملابس الملونة وأن يجتمع لديك الضيوف، وأن تنالي الأموال والأمتعة والحلي، بل بالزواج تبدأ حياة جديدة، والتعامل مع أناس جدد والعيش في منزل جديد مثلما يوضع النير على الثيران فإن الناس هم الثيران والزواج هو النير، فالزواج هو أن تصبح الفتاة سيدة والفتي زوجاً، ومعناه أنه قد تم الإمساك بهما ووضعهما في عربة الدنيا وأنهما الآن سيسحبان هذه العربة ليصلا بها إلى القبر ومن ثم فإنه من الأفضل على المرء أن يقوي قلبه ويقوم بهذه المهمة وأن يعيش أيام حياته مها كانت بتوافق وود وكرامة وعزة وألا تتضاعف متاعب الدنيا ومصائبها أكثر بسبب العراك والخلاف والمشاجرات والمتاع والضجيج والشر والفساد والآهات والعويل.

يجب عليك يا ابنتي الحبيبة أصغري هانم التفكير في الفرق الذي جعله الله بين الزوج والزوجة وكما هو مكتوب في الكتب الدينية فإن سيدنا آدم كان مضطرباً من الوحدة في الجنة ولذلك خلق الله السيدة حواء لتسري عنه فكانت أول امرأة في الدنيا وكان خلق المرأة لإدخال السرور على قلب الرجل فقط، وواجب المرأة إسعاد الرجل ولكن للأسف فإن قليل من النساء في الدنيا يؤدين هذا الفرض، وقد رفع الله الرجال على النساء درجة ولم يحكم بذلك فحسب، بل أعطي الله الرجال بسطة في الجسم ومنحهم نوراً في عقولهم، وتنظيم شئون الدنيا مرتبط بذات الرجال، فالرجال يكسبون المال والنساء ينفقن ما كسبوه في الموقع والمكان المناسب ويحافظن عليه، إن الأسرة مثلها كمثل السفينة والرجل هو ملاحها، ولو لم يكن هناك ملاح فإن السفينة سوف تغرق في أمواج الماء أو ستتحطم بعد أن ترتطم في شاطئ ما، ولو لم ينظم الرجل الأمور في أسرته فمن المحتمل أن يسري فيها جميع أنواع الفساد، ويجب ألا تفكري أبداً أن السعادة في الدنيا تكون بالحصول على المال وحسب، ولا شك أن المال في كثير من الأوقات يسبب السعادة، إلا أن الشجار والفتنة والفساد توجد أكثر في أوساط الأسر الثرية، ويثبت من هذا أن السعادة لا تتحقق بالمال فقط، وعلى العكس من هذا فإن السعادة في إدارة شئون المنزل تكون سبب الود والوفاق ونري الفقراء يعيشون على شظف العيش لكنهم سعداء في حين أن الأمراء وزوجاتهم تعساء فيما بينهم رغم توافر وسائل العيش المواتية، وفعليك يا ابنتي الحبيبة أصغري هانم أن تغتنمي التفاهم وتخلقي الوفاق.

و الآن يجب أن نعلم أن الأمور التي تؤدي إلى الوفاق ليست منحصرة في حب الزوجة لزوجها فحسب، بل من الواجب عليها احترام زوجها علاوة على حبها له، ومن الجهل بمكان لو اعتبرت الزوجة نفسها متساوية في الدرجة مع الزوج، بل إن المرأة في هذا العصر قد اختارت دستوراً فاسداً يتنافى تماماً مع الأدب، فعندما يلتقي بعض الصديقات ويجتمعن ويتحدثن فيما بينهن فإنهن كثيراً ما يتذكرن أن زوج فلانة كيف يتعامل معها، وتقول إحداهن " لقد ضغطت عليه فلا مجال له لأن يرفض لي طلب أو يجيب جواباً مغايراً" وتفتخر الثانية قائلة: " أنا لا أتناول الطعام ما لم يتملقني ويرجوني لساعات طويلة" وتتعالى الثالثة قائلة: إنه ينادى عليها عشر مرات فتجيب عليه بصعوبة مرة واحد" وتقول الرابعة: "إنه مهما جلس على الأرض فأنني لا أنزل من على السرير"، الخامسة تقول في زهو: "كل ما يخرج من لساني من كلمات يحققها لي". إنهم في مراسم الزواج يفرغون الزواج من مضمونه حتى يجعلوا الزوج مطيعاً ويارا، فهم

في بعض الأماكن يضعون الكحل على حذاء العروس ثم يكحلون بـه عيـون الزوج، والهدف من هذا أن يظل الزوج مطيعاً ومخلصاً لزوجته ولا يقل لها أف، وفـي أمـاكن أخرى يثبتـون لفافـة تبـغ فـي خـاتم قدم العروس عند الاستحمام ويقوموا بإطعامها للزوج، ومعنـي هذا أن يظل الزوج رهن أمرها، ويتضح جلياً من هذه الأمور أن النساء على استعداد للتقليل من قدر الرجال والحط من شأنهم ولكن هذا التعليم سيئ للغاية، ولا تخلو نتائجه من عواقب وخيمة، لقد خلق الله الرجال كالأسود ومن المستحيل على أحد أن يهزمهم بالضغط والقوة، وإن أسهل الحيل هي طاعة أوامرهم وتملقهم والمرأة الحمقاء التـي ترغب فـي قهر الرجل بالضغط عليه تخطـئ خطـأ فادحاً وتزرع بذرة الفساد منذ البداية ولابد أن يكون عاقبتها الخسران مع أنها لا تدرك ذلك بالفعل. أصغري هانم إن نصيحتي لك أن تحترمي زوجك في الحديث والجلوس والقيام، وتوجد في الدين أحكام كثير متعلقة الزوج والزوجة، ولأنك قرأت ترجمة معاني القرآن وتفسيره وكثيرا من المجلات الدينية الأردية لذا فإنني آمل أن تكون بعض هذه الأحكام راسخة في ذاكرتك، ومجموعة تلك الأحكام تعد أعظم دستور للعمل به من أجل إدارة شئون المنزل، ولكن للأسف أن الناس لا يسعون إلى العمل بأحكام رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولهذا السبب يواجههن أنواعاً وأقساماً من المتاعب، وقد قرأت حديثا لرسول الله في كتاب هو: لو كنت آمرا أحدا بالسجود لأحد غير الله لأمرت الزوجة بالسجود لزوجها" إن الرسول الكريم يقول أنه يأمر الزوجة بالسجود لزوجها ويمكنك أن تستنتجي من هذا الحديث ما منزلة الزوج بالنسبة للزوجة وعليك في هذا الصدد مراعاة عادات البلاد وتقاليدها وهي أن الزوجة لا تستطيع أن تترك زوجها ولا أن تستبد له ولا أن تستغني عنه في أي وقت أو أي حال من الأحوال فليس أمامك سوي تملقه وطاعته والامتثال لأوامره بقلب صادق وبقدر الإمكان فليس هناك حيلة أخرى لعزتك وكرامتك ولن تكون سوي ذلك.

ما السبب في أن يكون الزواج بمثل هذه الفرحة؟ وبعد اليوم الرابع يبدأ الشجار بين الزوجة والحماة وأخوات الزوج. إن هذا الموضع جدير بالتفكير.

إن الزوج قبل الزواج يعيش مع أبيه وأمه وليس له علاقة بأحد سواهما، والأب والأم ربياه صغيراً ويتوقعان منه خدمتهما في شيخوختهما، ولكن بعد الزواج وما أن تنزل الزوجة من على المحفة تبدأ في التفكير في أن الزوج قد ترك الأب والأم من اليوم ثم تبدأ المشاجرات دائماً من جانب الزوجات، فلو أن الزوجة تعيش مع الأسرة ولا تشعر الحماة قط أنها تريد

أن تبعد عنها ابنها فلن يظهر الخلاف مطلقاً، وهذا الأمر يعرفه الجميع أنه بعد الزواج تكون العلاقة مع الأب والأم قصيرة وفي النهاية يتم الانفصال عن المنزل وسيعيش الزوج والزوجة في بيت منفصل، وهذا يحدث في العالم بأسره، ولكن الزوجات التعيسات لا يعلمن ذلك ويتعجلن مصيرهن بلا روية، وأن يحدث ذلك في نفس الوقت، والنميمة هي إحدى عيوب الزوجات وأساس الفساد حيث تحمل الزوجة كل ما يدور من حوار في بيت حماتها إلى أمها، والأمهات يستفسرن بأنفسهن عن ذلك ولكنهن لن يجنين من هذا القول والاستفسار سوي العراك والشجار.

و بعض الزوجات تكن مغرورات بحيث ينظرن بحقارة دائماً إلى كل ما يحصلن عليه في بيت الحماة مهما كان الطعام جيدا والملابس قيمة ومثل هذه الأمر يكدر خاطر الزوج. يجب عليك يا أصغري أن تحتاطي كثيراً من هذه الأمور، وينبغي أن تبدي البشاشة والسرور دائماً كلما ارتديتي الملابس وتناولتي الطعام لأن كل شئ في بيت الزوجية يستحق التقدير ويتضح من ذلك أنك تستحسنينه، وينبغي على كل عروس جديدة أن تضع هذا الأمر في ذاكرتها وهو ألا تعيش كاسفة البال في بيت الزوجية لأنه غير مألوف لديها، فلا شك أن القلب يتأثر بالغرباء ولكن يجب أن يعتاد القلب على ذلك فلا تبكي عند ذهابك إلى هناك وتصرين على الرجوع إلى بيت الأم، ولكي يزيد الأنس والألفة تدريجياً يجب ألا تظهري شوقاً متزايداً للذهاب إلى منزل أمك لأن أقارب زوجك لابد أنهم لا يحبذون ذلك.

و عليك مراعاة الوسطية في الحديث فلا يكون كثيراً فتثرثرين ولا قليلاً، فيعد غروراً إن عاقبة الثرثرة الكثيرة وخيمة فعندما تثرثرين ليل نهار فإنك تتناولين آلاف القضايا ولا تعرفين ما الكلام الذي تحدثتي فيه في هذا الموضوع ويجب ألا تلتزمي الصمت لأن تملق الناس يتم بواسطة الحديث فلا يتكلم الإنسان إلا عندما يطلب منه الكلام ولا يحسن بك أن تصري على رأيك، فلو أن هناك أمرا يخالف رأيك عليك أن تؤجليه في هذا الوقت، ومن ثم يمكنك الفصل فيه بطريقة مناسبة في أي وقت آخر، ويجب ألا تطلبي أي شئ.

إن الإنسان يسقط من الاعتبار بسبب مطالبه، ولا تشعرين بالخجل بالعمل الذي تؤديه الحماة وأخوات الزوج ويجب ألا تعتبري ما تقومي به بيديك، وأن أفضل طريقة للكسب ود الجميع هي احترام الكبار والرفق بالصغار، ويجب ألا تعهدي بعملك للآخرين وألا تهملي أي شئ لك فيسرقه الآخرين، وعندما يتناجى شخصان فيما بينهما يجب عليك الابتعاد عنهما،

وألا تستفسري عما دار بينهما من حوار، وعبثاً أن تظني أنهم يتحدثون عنك وأن تراعي الأدب في التعامل معهم منذ البداية، وأن الناس الذين تختلطين معهم بسرعة سرعان ما تدب الخلافات معهم بنفس القدر، وأريد منك أن تقرأى هذا الخطاب مرة واحدة على الأقل كل يوم حتى يظل معناه أمام عينيك، والدعاء لي – حرره خير انديش خان.

و بعد أن تلقت أصغري خطاب الأب سري في قلبها حب جارف تجاه أبيها وأرادت البكاء رغما عنها، ولكنها كانت عروس جديدة لا يمكنها البكاء في بيت الزوجية فتماسكت ووضعت خطاب والدها على عينيها ثم احتفظت به في كتاب "الأدعية" بعناية فائقة وكانت تقرأه كل يوم وتتدبر معانيه (مغزاه).

(١٠)

سلوك أصغري بعد الزواج ومشاركتها في إدارة شئون المنزل بالتدريج.

عندما كانت أصغري متزوجة حديثاً كان قلبها مضطرباً كثيراً وذلك بسبب تركها لمنزل أمها فجأة وعيشها في منزل جديد مع أناس جدد، لقد كانت معتادة على عمل ونظام ما، وكان من الصعب أن تظل ساعة واحدة دون قلق أو الجلوس صامته في حجرة مغلقة لشهور، ولم تبق لها الحرية التي نالتها في منزل والديها، وما أن جاءت هنا في بيت الزوجية حتى بدأ أفراد الأسرة جميعاً يراقبونها ويتتبعون كل أمورها، البعض ينظر إلى وجهها ويتأملها، ويقول البعض أن ضفائرها قصيرة، ويتفرسون في تكوين قدها، والحلي التي تتحلى بها، ويتبينون ملابسها وعندما تأكل هل تتناول طعاما كثيرا؟ وكم لقمة تلتقم؟ وكيف تفتح فمها وكيف تمضغ؟ وكيف تبلع؟ وعندما تستيقظ من النوم ينظرون كيف تعقد خمارها، وبأي طريقة تنهض، ويحسبون كم من الوقت تنام، وفي أي وقت تنام، ومتى تستيقظ؟ المهم أن جميع حركاتها وسكناتها كانت محط أنظارهم. وقد عانت أصغري معاناة شديدة في هذه الحالة ولكنها خرجت من هذا الامتحان القاسي بنجاح وأثني أفراد أسرة الزوج على جميع أدائها وذلك لكونها عاقلة مؤدبة ولا تتحدث كثيراً وهي عروس متزوجة في اليوم الرابع لها فيعتبرها الناس ثرثارة، ولا تصمت حتى لا يفهمون أنها متكبرة ومتعجرفة، ولا تتناول طعاماً كثيراً حتى اشتهر عنها في الحي أن حماتها وأخوات زوجها يحثونها على أن تأكل ولكنها لا تمتثل لهن، وبالنسبة للنوم فإنها لا تصعد إلى مخدعها لتنام مبكراً إلا بعد أن تشعل فتيل المصباح، ولا تنام لوقت متأخر وكأنها نامت بعد أن عقدت اتفاقية مع الموتى.

و قد جرت العادة أن تحيط فتيات الحي بالعروس الجديد وتلازمها، فعندما تنظر تجد خمسة أو عشرة فتيات موجودات عند أصغري، ولكن أصغري لا تبدي أي خصوصية تجاه فتاة ما، فلو جلست أي فتاة طوال اليوم لا تقول لها اذهبي إلى بيتك يا أختاه، ولو أن فتاة ما لم تأت فإنها لا تسأل أين كنت يا أختاه ولماذا لم تأت؟ وبأسلوب ضيافة أصغري هذا قل تزاحم الفتيات تدريجياً، وخاصة أن الفتيات الخبيثات قد اعتدن على التعارف، فعندما تلتقي بهن لا تقدم لهن التنبول، ولا يتجاذبن أطراف الحديث، ويشعرن بالخجل ومن ثم فقد انقطعن عنها من تلقاء أنفسهن في غضون بضعة أيام، وقد ضاعفت أصغري من ارتباطها بأخت زوجها محمودة منذ البداية، وكانت محمودة فتاة صغيرة، وبعد فترة قصيرة

استحوذت عليها أصغري فكانت محمودة تظل قابعة مع أصغري ليل نهار حتى كانت تناديها يا أمي، وذات مرة قالت لها أمها: " لماذا تحبين زوجة أخيك هذا وكنت تهربين من ظل زوجه أخيك الكبير؟"

أجابت محمودة: لأنها كانت تضربني في حين أنا وأنتم نحب زوجة أخي الصغير.

و بعد حديث أصغري مع محمودة عرفت كل شئ عن عملها ومنذ البداية علمت بجميع أحوال المنزل والأسرة والحي بعد أن استفسرت عن ذلك من محمودة، وكان الموضوع الذي لا تستطيع أصغري اثارته بسبب خجلها في بداية زواجها كانت تفعله عن طريق محمودة إلى أن بدأت أصغري التدخل في أعمال المنزل بالتدريج، وفي المساء كانت تطلب القطن من محمودة وتعد الفتائل للمصابيح وتضيئها وتجهز الخضروات، وتحيك الملابس الممزقة، وتعد التنبول لزوجها وحماها إلى أن وصلت إلى المطبخ رويداً رويداً وبدأت تقدم النصيحة والمشورة لما ما عظمت في تحمير الطعام وقلية وبدأ طهي الطعام طبقاً لرأي أصغري، وعندما بدأت أصغري التدخل في طهي الطعام أصبح أفراد الأسرة يستمتعون بالطعام ويعدونه نعمة عظيمة، وسارت الأمور على هذا الحال واليوم الذي لا تقدم فيه أصغري النصيحة لما ما عظمت لسبب ما لا يتناول أحد الطعام.

(١١)

اكتشاف أصغري خداع ماما عظمت وخيانتها، وبداية عداء ماما عظمت لها -

إن المشاجرات بين الزوجات والحماوات أمر عادي، ولكن أصغري لم تكن مؤهلة للشجار، وقد أفسدت بحكمتها أى خلاف، وكانت ماما عظمت تمسك بزمام الأمور في هذا البيت لدرجة أن جميع الأعمال لا تتم إلا من خلال هذه "الماما" كالبيع والشراء وشراء الملابس، المهم أن كل ما يمكن شراؤه من السوق كان يتم بمعرفة ماما عظمت حتى أن ماما عظمت كانت تجهز لهم الحلي، وكل الأشياء الضرورية تنجز عن طريق ماما عظمت، وخلاصة القول أن ماما عظمت كانت تدير هذا البيت مثل الرجال، وقد بدأ خداع ماما عظمت يتكشف منذ أن تدخلت أصغري في إعداد الطعام، وذات يوم كانوا يقومون بطهي الكباب وكانت أصغري جالسة في المطبخ تخبر ماما عظمت بطريقة الطهي وعندما أعد واللحم وحان الوقت لوضع الزبادي والتوابل قالت أصغري لماما: " اعطني الزبادي لأتذوقه كي أعرف هل هو حامض أو مناسب حتى لا يفسد الكباب". فأخرجت ماما الزبادي من إلا ناء وأعطته لأصغري في يدها، ولما تذوقته أصغري اتضح لها أنه حامض وقد انقضى عليه عدة أيام والزبادي منفصل عن الماء وصار لونه أزرق، فقالت أصغري : " ما أسوأ هذا الزبادي ولا يليق مطلقاً أن نضعه على الكباب، اذهبي بسرعة واحضري علبة زبادي صالحة وطازجة".

قالت ماما : " أيتها السيدة إن علبة زبادي لا تؤثر في كيلو الكباب! إنها كحبة كمون في فم الجمل. وهذا الزبادي الذي لا يروق لك يساوي آنة واحدة".

اندهشت أصغري بعد أن سمعت هذا الكلام وقالت : إننا في بيتنا نطبخ الكباب في أغلب الأيام، ودائماً ما كنا نضع على كيلو اللحم زبادي ثمنه بيسه ونصف وهذا الحساب مبالغ فيه فكنت أطلب أكثر منه وكان الكباب ناعماً وأحمر اللون.

قالت ماما : " دعك من حساب حيك، فأين حي " جاندني جوك" من حي "تركمان دروازه" إن الشئ الذي تجدينه في حي " جاندني جوك" ببيسه لا تجدينه هنا بآنه، فهذا حي غير مأهول ومنطقة نائية خربة موحشة، وكل شئ هنا قليل وهناك قحط في كل شئ.

و لأنها كانت قد تأخرت على إعداد الطعام التزمت أصغري الصمت بعد سماعها لهذا الكلام وقالت لماما : " حسناً. احضري الزبادي بسرعة بأي ثمن تجدينه" ولكن أصغري لم تكن ساذجة حتى توافق على كلام ماما، وكانت تقول في نفسها لابد في الأمر شئ، ولا ضير ولو كان هناك فرق طفيف في الثمن ولكن ما يدعو إلى الغضب أن يكون هناك فرق شاسع في الأسعار بين حيين في مدينة واحدة! وبدأت أصغري تراقبها منذ ذلك اليوم، وفي اليوم التالي أحضرت ماما التنبول فرأتها أصغري وقالت: لقد أحضرت يا ماما جميع الأوراق خضراء ولكنها ليست لذيذة ولا طعم لها وقد أقبل الشتاء والآن، وعليك أن تبحثي على تنبول ناضج وتأتينا به.

قالت ماما: لقد أحضرت تنبول جيد مرتين ببيسه والآن هنا ما شاء الله تنبول بنفقات نصف يوم ولهذا السبب أحضرت تنبول جديد".

و في تلك الأثناء حضرت من بيت أصغري خادمتها "كفايت النساء" لتستفسر عن أحوالها وكانت ورقة التنبول لا تزال أمامها، فسألت أصغري خادمتها قائلة: "يا سيدة كفايت النساء كيف تحصلين على التنبول هذه الأيام؟"

قالت كفايت النساء: " يا سيدتي أثني عشرة ورقة ببسيه".

فتحت أصغري الصندوق الصغير وأعطت كفايت النساء بيستان وقالت لها: احصري لنا تنبول من بائع التنبول في هذا الحي".

و بسرعة فائقة أحضرت كفايت النساء ثلاثون ورقة تنبول لذيذة. قالت أصغري : مقارنة بحي "جاندني جوك" تجدين ثلاثة ورقات تنبول ببيسة واحدة.

قالت كفايت النساء: سيدتي، إن هذا الحي هو بوابة المدينة والشئ الذي يدخل المدينة يدخل من هذه البوابة ولذلك تجدين هذه السلع مثل اللحم والبقول والتنبول رخيصة في هذا الحي، ولا شك أن جميع الخضروات والبقول الخضراء تأتي إلى المدينة من بوابة كابل مباشرة ولعلك تجدين التنبول غالي الثمن بقدر ما فتحصلين على التنبول القديم ثلاثين ببيسه والتنبول الجديد أربعين ببيسه.

قالت أصغري: تعساً لماما عظمت أنها تشعل النار في أسعار كل شئ. عليك يا كفايت النساء البقاء هنا عدة أيام وسوف أرسل إلى أمي أخبرها بذلك، ليتعهد أحد ما الأعمال هناك لعدة أيام.

قالت كفايت النساء: سيدتي، أنا طوع أمرك بأذن الله في كل من البيتين هنا وهناك. المهم أن كفايت النساء أحضرت من السوق جميع السلع بنفسها في غضون أربعة أيام وتم التأكد من خيانة ماما عظمت في كل شئ، ولكن رغم كل هذه الأمور لم تخبر أصغري حماتها بشئ ولم يخرج الأمر عن ثلاثتهم أصغري وكفايت النساء وماما عظمت وكانت أصغري إمرأه ذكية ولديها مروءة وأدركت أنه لا فائدة من تحقير هذه العجوز ماما عظمت وكشف خيانتها، وفي المساء كانت أصغرى تأكل التنبول في حجرتها بعد أن فرغت من تناول الطعام، وكانت كفايت النساء جالسة عندها، وفي تلك الأثناء قدمت ماما عظمت فقالت لها كفايت: لماذا يا أخت عظمت كل ما جرى؟ فمن من الخدم لا يسرق؟ انظري إن هذه الأسرة الحالية أخدم لديهم منذ سبع سنوات متواصلة وأقوم بتحمل جميع أعباء المنزل وشئونه منذ عدة سنوات، وليحفظ الله رب البيت وربة الإنفاق وأنا أحضر لهم بضائع وسلع بآلاف الروبيات، فلماذا لا أقول ذلك في الحقيقة بأننا نحن معشر الخدم نستولي على جزء صغير من ثمن المشتريات، وليغفر الله لنا، ولكن لا يمكن أن نسرق أكثر من هذا لأن تجاوز ذلك يدخل فى نطاق نكران الجميل.

قالت عظمت: سيدتي، من لا يعرف حالي؟ أنا الآن أخفى مصيبتي، فأنا أسرق وأنهب ولكن هذا السلوك ليس وليد اليوم ولكن هذا دأبي دائماً فانظري إلى حالتي قليلاً، فكم يكون العمل في هذا البيت بلاءاً، وأنا وحيدة في داخل المنزل وخارجه وأؤدي عمل أربعة من الخدم بمفردي يا سيدتي، ولا يوجد أحد يعصر عظامه (يتفاني) هكذا بلا مقابل، سيدتي لقد توقفت غير مرة عن ذلك واقلعت عنه ثم أعود إلى الخيانة مرة ثانية، فهذه طريقة تفكيري، والبعض يفهمها هكذا والبعض الآخر يفهمها بطريقة أخرى، فأنا بمفردي أعمل مقابل أربعة من الخدم ويجب أن أتقاضى وحدي راتب أربعة.

هذه حقيقة ماما عظمت كما هي فهذه المرأة تعمل في هذا البيت منذ خمسة وعشرين سنة ودائماً تسرق وتنهب في السر والخفاء ولم يشتبه فيها في أغلب الأيام، ولأنها كانت محتالة ذكية فلم يكتشف أمرها، وقد استبعدت أكثر من مرة، وعندما تنقطع وتتوقف يحضر البقال والقماش وبائع النحاس والجزار والصائغ الذين اقترضت منهم بضمانها لكي يطالبوا بأموالهم فكانت تعود مرة ثانية خوفاً من ذلك الأمر، وهكذا كانت السرقة والاحتيال قدر مقدر على ماما عظمت فتأخذ السلعة بدون وجه حق وتسرقها، فقد كان

دخل المنزل ضئيلا والعادات سيئة فكانت تقترض للطعام الجيد والملابس غالية الثمن ولجميع شئون المنزل، وكانت ماما عظمت تتقاضى عمولة القرض وكانت تقول إنها خزانة مفتوحة وأن خروجي لن يكون بالأمر السهل، وسوف أخرج من المنزل بعد أن أبيعه بالمزاد العلني أو أهدمه، منذ أن بدأت أصغري في التضييق عليها في الحساب أصبحت أصغري عدوة لدودة لماما عظمت وبدأت تفكر في حيلة للثأر منها ولتبرأة ساحتها، وبهذه الفكرة تسئ إلى أصغري أمام زوجها محمد كامل و أمه، ولم تكن أصغري تعلم عن ذلك مطلقاً بل إن أصغري عندما رأت أن ماما ذو سلطة كاملة على شئون المنزل وأنها لم تكف عن عادتها قالت في نفسها ما الفائدة من الثرثرة والكلام بغير حق ولا طائل، ولماذا أجعل نفسي سيئة أمام ماما هباءً فتوقفت تماماً عن الذهاب إلى المطبخ والتدخل في طهي الطعام، وكان أهل المنزل قد بدأوا يتذوقون الطعام من يد أصغري فبدأوا يقطبون جبينهم منذ الوهلة الأولي.

يقول أحدهم: إن اللحم نيء في الفم وغير ناضج، ويقول الآخر: لقد صار الملح في العدس كالسم ولا يمكن أن أضعه على لساني. ولكن من كان يستطيع أن يقول لأصغري اطهي الطعام؟

فاضطرت أصغري بعد توبيخ ماما عظمت إلى إعداد الطعام مرة أخرى لكي يأكل أفراد الأسرة.

(١٢)
الوشاية الأولى لماما عظمت على أصغري

في يوم من أيام موسم المطر كانت السماء ملبدة بالغيوم وكان رذاذ المطر الخفيف يتساقط وكانت الرياح الباردة لا تزال تهب، فقال محمد كامل أريد اليوم حلوي مقيلة ولكن بشرط أن تعدها تميز دار، وكانت أصغري لا تزال في حجرتها ولا تعلم أن محمد كامل قد طلب حلوى مقلية، وأحضرت ماما عظمت السمن والسكر والدقيق وغيرها من المواد وقالت لمحمد كامل: خذ يا سيدي فقد أحضرت جميع الحاجيات وسأذهب لأحضر زوجتك.

ذهبت ماما عظمت إلى حجرة أصغري ولم تتحدث معها عن الحلوى المقلية وهكذا عادت أدراجها وقالت لمحمد كامل: إن زوجتك تقول عندى صداع وألم في رأسي وأنها لن تستطيع إعداد الطعام العادي فهل يمكنها إعداد الحلوى المقلية. كان محمد كامل قد طلب الحلوى المقلية شوقاً إليها ورغبة فيها ولهذا عندما أكلها وكان لا طعم لها غضب غضباً شديداً وذهب إلى حجرته فرأي زوجته جالسة تخيط ثوبها تكتم غضبه وقال لها: لقد اعتذرت عن إعداد بعض الحلوى المقيلة بسبب الصداع ألم تجلب لك الخياطة صداعاً؟

كانت هذه المرة الأولى التي يبدي فيها محمد كامل عدم رضاه عن أصغري، وكالعادة فإن الجفوة بين الزوج والزوجة تنشأ هكذا من مثل هذه الأمور الصغيرة بين أكثر الذين يتزوجون في سن صغيرة ولكن بفضل الله جرت الأمور بين الزوج والزوجة على ما يرام فإذا رأي الزوج أمراً صغيراً مخالفاً لمزاجه فإنه يجلس عابساً وتبتعد عنه وتنام مكدرة ومقطبة الوجه، فما العجب من وقوع خلافات كثيرة بسبب هذه الأمور التافهة عند العيش في مكان واحد، وبسبب تفاهم الخلافات يفقد الطرفان التقارب والاحترام ويعيشان طوال عمرهما في هم وحزن، وأفضل وسيلة في هذا الصدد هي أن يتعامل الزوج والزوجة منذ البداية بوضوح وشفافية بعضهما البعض فلا ينشأ أدنى شقاق ولا تتراكم الخلافات وتتحول إلى فساد عظيم في النهاية، ومن الحكمة ألا يترك المرء الغضب يتملك منه ولو وقع أمر ما بسيط خلافاً لمزاجه فعليه ألا يكتمه في قلبه وأن يقوله بوضوح وجها لوجه فلو أن محمد كامل سأل زوجته على سبيل الشكوى لماذا لم تستطيعي القيام بمثل هذا العمل الصغير واعتذرتي بصداع في رأسك؟ لتم الاتفاق بينهما ببضعة كلمات في نفس الوقت وانتهي الأمر لانكشفت طبيعة ماما عظمت، ولكن محمد عاقل لم يتفوه ببنت شفة واحتفظ بالشكوى في نفسه وتوجست أصغري خيفة من محمد كامل بسبب عدم اكتراثه بها، وأدركت أنه لا سمح الله بداية الشجار، وعندما رأتها الحماه وجدتها مكدرة إلى حد ما فكانت في حيرة من أمرها وتتساءل ماذا جرى يا الهي؟

(١٣)
الفرية الثانية لماما عظمت على أصغري

لم يكن هذا الأمر قد طوي بعد إلا وقد ارتكبت ماما عظمت حماقة (فرية) أخرى، وكان شهر رمضان قد اقترب، فقالت أم محمد كامل لماما عظمت: " ماما، رمضان يقترب وعليك من الآن أن تقومي بجميع الاستعدادات، فالأواني الصغيرة والكبيرة تحتاج إلى تبييض بالقصدير، ولم يطلي المنزل على مدار عام كامل، وأن تلتقي ب " لا له هزاري مل" وتخبريه بأن يقرضنا خمسين روبية بقدر الإمكان لأن نفقات العيد تداهمنا.

قالت ماما عظمت: " إن تميز دار زوجة ابنك ستحل ضيفة على أمها، وسمعت أن القائم مقام (أبيها) قادم كذلك ولابد أنه سيستدعي بنتاه كلتيهما وقد ذكر هذا الأمر في أحد الأماكن وهو أن لتميز دار رغبة في الذهاب مع والدها وبما أن زوجة ابنك ستذهب فإن ابنك الصغير سيذهب أيضاً وستكونين يا سيدتي وحيدة فلماذا تقومين بطلاء المنزل ولماذا تبيضين الأواني؟ أما "هزاري مل" فقد صار عديم المروءة لسوء الحظ ويبعث كل يوم برجاله ليقفوا على باب المنزل ليتقاضوا الدين فكيف يقرضنا؟

دهشت أم محمد كامل بعد أن سمعت ذلك وكان سبب دهشتها أنه منذ اليوم الذي سافر فيه الزوج إلى لاهور وهو لم يعد يهتم بأمر المنزل فكان كلما يتذكر يرسل لنا بعض المصروفات مرة كل ستة أشهر أو سنة ولا علاقة له بي، كان محمد عاقل قد انفصل عن أمه وكان محمد كامل فقط يعيش في المنزل وبذهابة خلا المنزل. سألت والدة محمد كامل ماما عظمت: " لتعدقيني القول هل ستذهب زوجة ابنى تميزدار؟

قالت ماما: تذهب الزوجة أو لا تذهب الله أعلم إننى أقول الذى سمعته.

سألتها أم محمد كامل : يا تعيسة الحظ ممن سمعت؟ وكيف علمت؟

قالت ماما عظمت: سمعت من كفايت النساء عندما طلبت منها أن تقرضني روبيتين فقالت لي كان بودي أن أعطيك ولكني ذاهبة إلى الجبل، وسألتها عن أحوالها وعلمت أن جميع الأمور على ما يرام وأن القائم مقام (الوالد) سيحضر في غضون أيام قليلة وسيسافر الجميع صباح يوم العيد، وهل تقتصر على السماع، نحن لم نر الله ولكن عرفناه بالعقل ألم تفهمين ذلك يا سيدتي من أساليب زوجة ابنك تميز دار،

انظري إنها كانت في البداية تهتم بأعمال المنزل وترعى أموره، ولكنها أقسمت الآن ألا تنزل من حجرتها وترسل الخطاب تلو الخطاب لوالدها فأي أمر هنا سوى ذهابها.

اندهشت والدة محمد كامل بعد سماعها هذا الكلام وجلست تفكر فيه وعندما عاد محمد كامل من الخارج استدعته عندها وسألته قائلة: أريد أن أسألك في أمر ما وعليك أن تخبرني بصدق.

قال محمد كامل: ما الأمر الذي سأخفيه عنك يا أمي؟

قالت والدة محمد كامل له كل ما سمعته من ماما عظمت حرفا بحرف.

قال محمد كامل: أقول لك بصدق يا أمي أنني ليس لدي علم بذلك على الإطلاق، ولم تخبرني تميز دار بأي شئ.

قالت والدة محمد كامل: أنت كطفل أمامنا ونحن نتملق إليك لتتحدث إنه أمر هام إلى هذه الدرجة وأنت لا تعرف عنه شيئاً.

قال محمد كامل: لا تصدقي هذا الأمر أقسم برأسك أنني لا أعلم به.

و في تلك الأثناء جاءت ماما عظمت فقالت أم محمد كامل: لماذا قلت هذا يا ماما عظمت إن محمد كامل يقول إنه ليس لديه علم بذلك.

قالت ماما عظمت: يعتقد الزوج صواباً أو خطأ ولكن زوجتك تعد العدة للذهاب ولعلها أخفت ذلك عنك فهي ليست مزاج دار فلم تكن تكشف سرها لأحد، إن تميز دار لا تعطي خباياها لأحد.

سألت والدة محمد كامل : حسنا يا محمد كامل، ماذا تفعل لو أن هذا الأمر صحيحاً؟

قال محمد كامل: حسناً، كيف يمكنها ذلك فهل أذهب وأتركك وحيدة؟ وهل تجبرني تميز دار على مثل هذا العمل وأن تذهب دون إذني، واليوم سوف أسأل تميز دار عن هذا الأمر.

قالت والدة محمد كامل : هل تثق في كلام هذه التعيسة ماما عظمت، فلا تتحدث الآن مع زوجتك وعندما يتحقق الأمر سوف نري ذلك في حينه.

بهذه الطريقة في الحديث كانت ماما عظمت تفكر في الإساءة إلى أصغري أمام زوجها وحماتها ولم تسمع أصغري ما قيل من أحد بأي صورة ولكنها في نفس الوقت كانت قد أدركت كل هذا باستنتاجها وأنه لابد أن هناك توتر ونزاع ما، وكانت محمودة جاسوسة كبيرة عند أصغري

وكانت تقول لأصغري كل صغير وكبيرة وهكذا افتضح خبث ماما عظمت لأصغري، ولم تكن أصغري حمقاء لكي تغضب بسرعة، وفكرت أن أي كلام من جانبها في هذه المسألة يعد غير مناسب، وفي النهاية سيتكشف الأمر في حين من الأحيان، وقالت أصغري في نفسها حسناً، فلتبق عظمت وسأصلح من شأنها – إن شاء الله تعالى – ولو بلغ تفكيرها إلى نشر الفتنة والفساد من بيت إلى بيت فأنني سوف أقضي عليها – بإذن الله تعالى – في مكان موحش لا تجد فيه ماء ولن يقدر لها المجيء إلى هذا الحي.

و كان الشر قد استولي على مشاعر ماما عظمت وأخذت تحيك لها الوقيعة الثالثة.

(١٤)
وقيعة ماما عظمت الثالثة بأصغري

كان من عادة "هزار مل" عندما يري ماما عظمت تمر من أمام دكانة ذاهبة أو عائدة أن يتحدث معها بدون سبب قائلاً: لماذا لا تفكري يا ماما عظمت في دفع ديني؟ وكان يرسل إليها في المنزل من يطالبها بالدين كل سبعة أو ثمانية أيام، وذات يوم خرجت ماما عظمت لشراء بعض الحاجيات كعادتها فاعترض هزارى مل طريقها. قالت ماما عظمت : يا هزار مل لماذا تزعجني وتستهزئ بي في كثير من الأيام وبشكل متكرر؟ وتطالبني بالدين كلما تراني فعليك أن تطلب الدين من الذين اشترى لهم، فأنا امرأة فقيرة ولا حيلة لي، ولا علاقة لي بالمرابين ولا أتعامل معهم.

قال هزارى مل: ما هذا الكلام الذي تقولينه؟ ليس لك علاقة بي؟ أنت تأخذين كل شئ من الدكان ونعرفك أنت ونعطيك كل شئ بمعرفتك ولا نعرف أصحاب المنزل.

قالت عظمت : ثب إلى رشدك يا هزارى مل، فأنا لست ساذجة إلى هذا الحد فأنت تعلم أنني لا أملك شيئاً. وليس عندي مال ولا عقارات ولو أعطيتني مئات الروبيات فسوف أعطيها لك ولأقسمت أن تأخذها مني وتستولي على البيت الذي أنا فيه بعد أن تقدم شكوى للحكومة لبيعه في المزاد العلني.

انزعج هزارى مل بعد أن سمع مثل هذا الكلام الجاد والحاد من ماما عظمت وحار في أمرها وبدأ يهدأ من روعها والتحدث معها بلطف قائلاً: يبدو أنك تشاجرت مع أحد اليوم فأخبريني ماذا حدث؟ هل صاحبة المنزل ساخطة عليك وهل ابن صاحب المنزل غاضب منك؟ تعالي هنا واسمعي إلى كلامي.

عندما قال هزارى مل لماما تعالى هنا كان غلام يجلس هناك أمام الدكان أعطاه " بيسه" وقال له اذهب مسرعاً واحضر لي ورقتين من التنبول وقليلا من الزردة في يدك. وعندما جلست ماما عظمت ابتسم هزارى مل وقال : يبدو أنك تشاجرت اليوم مع أحد ما.

و قالت عظمت: لماذا أتشاجر لا قدر الله؟ وقد أجبت على كلامك وعليك أن تحاسبني وإنني كذبت عليك.

قال هزارى مل: هذا صحيح، فالمعاملة في يد المالك (صاحب المنزل) ولكن أليس كل ما يتم من معاملات يتم على يديك أم لا؟ وليس هناك ورقة ولا رقاع باسمي وأن كل ما تطلبينه باسم المالك نعطيه لك.

ماما عظمت: نعم، أعترف بذلك، ومتى أنكرته؟! فكل ما أخذته منك أعترف به أمام الملأ وأقول ذلك لكل الناس وكذلك سيدتي (وأخذت تدعو لها بتضرع) المسكينة لم تراجع الحساب قط.

هزاري مل: في الحقيقة السيدة طيبة جداً دعك من هذا الأمر. ثم سأل هزاري مل برفق: كيف حال السيدة الصغيرة، وهل هي على شاكلة أختها أم طبيعتها مختلفة عنها؟

ماما عظمت: يا لاله (هزاري مل) هي لا تسأل عن شئ قط، والبنت من أسرة ثرية وتتضايق بسرعة، ولا تحبذ بضاعة ما مهما كانت رخيصة دون أن تردها عدة مرات، وهي الآن – حفظها الله – أصبحت ماهرة في حرفتها وتتفوق على كثير من الزوجات في الدنيا، فهي تطبخ طعاماً شهياً، وفي الخياطة تتغلب على الخياطين، ولكن يا لاله هذا الأمر لا يمت بصلة للثروة، فهي منذ البداية قد وصنعت على قيوداً وأنت تعرف طبيعة عملى أنه حر بلا قيود، وفي النهاية تعبت وتركت الأمور، والسيدة المحترمة من أولياء الله وأن أمور المنزل تسير بفضل بركة أقدامها وأنفاسها، ونحن فقراء ممسكون بذيلها، وقد حاول كثير من الناس إثارة السيدة ولكنها – سلمها الله – لم يتكدر خاطرها ولم تلتفت إلى هذا الكلام بأي شكل من الأشكال.

هزاري مل: سمعت أن السيدة الصغيرة قد حصلت على جهاز كبير.

ماما عظمت مندفعة: إن جهازها أقل من الأخت الكبرى.

هزاري مل: عجيب جداً، فعند زواجها كان والدها دور انديش خان مأموراً، فكان لزماً عليه منحها جهازاً أكبر من البنت الكبرى.

ماما عظمت: متعجبة، ذلك لا صله له بالمأمور، فلقد جهز هذه المسكينة بجهاز لائق وهذا بناء على رأي البنت الصغيرة وأسدت لها أمها النصيحة ولكنها صممت ألا يكون جهازها أكبر من أختها.

هزاري مل: لو هذا هو الحال فإنها سوف تنفصل في بيت مستقل مثل أختها الكبرى.

ماما عظمت: كيف الانفصال، إنها ستفعل أكثر من هذا، لقد كانت الأخت الكبرى سيئة المزاج لكن كان قلبها صافي، أما هذه فكلامها عذب

وقلبها ماكر، ومهما تفانيت في خدمتها فإنها لا ترضي عن أي شئ والكلام الذي تقوله تصمم عليه فما في قلبها ليس على لسانها، فهذه المرأة لا يمكنها معاملة الناس معاملة حسنة ليوم واحد، وهي الآن تعد العدة للذهاب عند والدها في الجبل.

هزاري مل: ألم يأت أي خطاب هذه الأيام من لاهور؟

ماما عظمت: نحن ننتظر ذلك كل يوم، ولا نعلم ما السبب فلم يأت أي خطاب، والسيدة تبحث عن طريقه للإنفاق، ورمضان على الأبواب، وقد كانت تقول لي، أمس أو أول أمس اقترض من هزاري مل خمسين روبية.

عندما سمع هزاري مل اسم القرض اضطرب وقال لها: لو انتهيتم من دفع الدين السابق فليس لدي أي مانع في المستقبل، فقولي هذا يا سيدتي للسيدة الكبيرة بطريقة مناسبة وهي أن تفكر في دفع النقود بقدر الإمكان، والآن شركائي لا يمتنعون عن الدفع ولو حدث غير ذلك فسأطالبهم بالدين.

ماما عظمت: أعانك الله على استرداد نقودك، فمن أين تدفع السيدة الكبيرة وقد اقترضت نقودا بعدد شعر رأسها، وقد تراكمت عليها الديون.

هزاري مل: لا علاقة لنا بالدائنين، وسأضطر إلى أخذ حساب دكاني من السيدة الكبيرة، وأنا أحترم السيدة الكبيرة جداً، ولكن شريكي "جهدام لال" لا يوافق على هذا بأي شكل من الأشكال ولو سمع بهذا الأمر فسيقاضيك أمام المحكمة.

ماما عظمت: سأقول كل هذا للسيدة الكبيرة، ولكنني أعرف كل صغيرة عن أحوال المنزل، ولتقاضي ولتستغث، فلا نقود ولا دفع ولو كان هناك مال فلماذا نقترض؟

بعد هذا الحديث ودعت ماما عظمت هزاري مل وعادت إلى المنزل بالأشياء التي اشترتها فسألتها أم محمد كامل: عندما تذهبين إلى السوق يا ماما لا تفكرين مطلقاً في طهي الطعام؟ انظري لقد انتصف النهار ففي أي وقت ستعدين اللحم؟ ومتى سينضج؟ ومتى سنأكل؟

ماما: لقد تأخرت إلى هذا الحد لأنني تشاجرت مع المرابي هزاري مل، فهذا الخسيس ينبهني كل يوم (يذكرني بالدين) وأنا ذاهبة وعائدة، ولقد فاض الكيل بي اليوم، وقلت له لماذا تذكرني بالدين وتعترض طريقي وتسخر مني كل يوم، اصبر قليلاً وعندما تأتي المصروفات من

لاهور سوف ندفع لك جميع الديون القديمة والجديدة، ولكن هذا الخبيث قد حال دوني وفضحني في السوق أمام الملأ.

والدة محمد كامل: ماذا جري لهزاري مل؟ لم يكن هكذا، إننا نتعامل معه منذ سنوات وأعطيناه المتقدم والمتأخر ولم يتشاجر مطلقاً.

ماما: سيدني، لقد أصبح له مرابى آخر شريك له في الدكان، وهذا الدنئ هو الذي يتعجل سداد الدين، ويستوقف كل من عليه دين ليستوفي منه الدين ومن لا يسدد له يقاضيه، وقد قال لي هزاري مل عليك أن تتحدثي مع السيدة الكبيرة بطريقة مهذبة وتبلغيها من طرفي أنه لا حيلة لي في ذلك الأمر، وعليها أن تجد طريقة لدفع النقود في غضون عدة أيام بقدر الإمكان وإلا فأنه من المؤكد أن يرفع "جهدمي لال" القضية.

انزعجت والدة محمد كامل كثيراً من سماعها لهذا الخبر، وكان لها أخت صغري هي السيدة أميرة تسكن في سوق الهانم، وكانت ميسورة الحال قليلاً فقالت والدة محمد كامل لماما عظمت: إذا لم يأتينا الرد على خطابنا من لاهور فأي أمل لنا في صرف النقود؟ فماذا يحدث لو رفع هزاري مل علينا قضية حقاً؟ وليس عندي أثاث بهذا القدر لكي أبيعه وأسدد الدين لأنه إذا رفع علينا قضية فسوف تسوء سمعتنا في الحي ويتلطخ اسمنا في سائر أنحاء المدينة، فأحضري لي المحفة لأذهب عند السيدة أميرة وأبحث هناك عن مخرج لهذه الورطة بأي صورة.

قالت ماما: يا سيدتي، إنه سيقا ضينا وسينفذ ما يهدد به، ولا حيلة للسيدة الصغيرة فمن أين يأتي عندها المال؟ فهي في حيرة من أمرها هذه الأيام.

والدة محمد كامل: نحن مضطرون في النهاية لعمل أي شئ.

اقتربت ماما عظمت منها وهمست إليها وقالت: لو تعطينا السيدة تميز دار حلها وأساورها لمدة شهر فإن الأمر يظل كما هو بالفعل فنرهن هذه الأساور ونسدد ثلث الدين لهزاري مل وفي خلال شهر سيرسل الزوج المصروفات أو أقترض من أي مرابي آخر.

والدة محمد كامل: هل أنت مجنونة؟ لا تتفوهي بمثل هذا الكلام، أنا لا أوافق على أن أرهن حلي زوجة أبني وحتى لو اضطررت إلى بيع المنزل لا أقدر على طلب ذلك من زوجة أبني.

ماما عظمت: سيدتي، لقد قلت هذه الفكرة لأن زوجة الابن كالابنة وليست أجنبية ولا قدر الله نحن لا ننوي بيع الحلي وإنما سنرهنها لمدة شهر، وتظل الحلي في الصندوق الصغير وتوضع عند المرابي لكي يشعر بالطمأنينة.

والدة محمد كامل: مع هذا هناك فرق كبير بين الابنة وزوجة الابن لأن زوجة الابن متزوجة حديثاً، ولو سألتي عن الحقيقة فإنها لم يكشف عنها النقاب بشكل جيد، فهل يستطيع أحد أن يقول لها هذا الكلام، فلا تخبري أحد بمثل هذا الأمر، كما ينبغي ألا تسمع به محمودة فتنقله إلى زوجة أخيها.

ماما عظمت: سيدتي، أنت ما زلت الآن تقفين وتنصتين، ولكنك لم تفهمي تلك الأمور.

والدة محمد كامل: هلمي إلى بالمحفة سأذهب إلى أختي وسنتشاور في أمر سداد الدين.

و بينما كانت والدة محمد كامل تغادر المكان وتركب المحفة إلى سوق الهانم كانت محمودة قد أخبرت زوجة أخيها تميز دار بكل الأمور.

(١٥)

خطاب من طرف أصغري وبداية دفع شرور ماما عظمت

قامت أصغري على الفور وبلا تردد وكتبت خطاباً لأخيها الأكبر خير انديش خان تقول: أخي العزيز المحترم سلامي لك! بعد التحية، أعرض عليك أمرا هاما، فلم أكتب إليك بأحوالي منذ مدة ولعلك كنت تعرف أحوالي عن طريق أي خطاب أرسله للوالد العزيز، ومن المناسب الآن أن أعرض عليك أحوالي، وأقدم لك هذا الأمر بشكل خاص، وهو منذ أن جئت إلى بيت الزوجية لم أعاني أية معاناة بأي شكل من الأشكال، وبدعائكم لي لم يحدث معي تلك الأمور (المشاكل) التي كانت تشكو منها أختي الكبرى، وجميع أفراد الأسرة هنا يحبونني وأعيش في سعادة، ولكن قد نالني الاذي على أيدي الخادمة ماما عظمت ما لم أنله من حماة سيئة الطبع وأخت زوج سليطة اللسان، وتعد هذه المرأة أقدم خادمة في المنزل، وفي يدها تصريف جميع الأمور في الداخل والخارج وهذه المرأة سرقت البيت ونهبته وخربته، واقترضت قرضاً كبيراً ولا يبدو هناك سبيل لسداده ولم أكن أتدخل في شئون المنزل بأي شكل، ولكنني تدخلت في شئون المنزل المعتادة منذ عدة أيام فوجدت خداعا في كل شئ ومكرا في كل أمر، وبسبب قيودي عليها أصبحت عدوة لي ومنذ ذلك اليوم وهي تثير مشكلة جديدة لي كل يوم، ورغم ذلك لم أفضحها، ولكنني لا أطيق أبداً بقاء هذه الخادمة، كما أن طردها أمر بالغ الصعوبة لأن جميع قروض السوق، قد تمت بمعرفتها وعندما تسمع كلمة إيقافها عن العمل تقلب أصحاب الدين علينا، وليس هناك حساب مكتوب عن الديون لأن جميع تعاملاتها كانت شفوية، وأنا أريد أن أسدد الديون لجميع الدائنين وأوقف التعامل معهم وأن نطرد الخادمة ماما، وأنا متأكدة أنك ستحضر مع السيد الوالد في رمضان، وأريد من فضلك أن تأتي عن طريق لاهور، وأن تحضر الوالد معك لمدة أسبوعين على الأقل وسوف تقرر جميع المسائل أمام الناس، وأكتب إليك هذا الخطاب وأنا في حالة من الاضطراب الشديد فهناك مرابي يريد أن يقاضينا، وقد اقترحت ماما عظمت أن يتم رهن أساوري، وذهبت الحماة إلى أختها لتبحث عن وسيلة لدفع النقود والسلام.

كتبت أصغري خطاباً لأخيها من ناحية، وأرسلت إلى خالتها من ناحية أخرى تقول أنني وحيدة فأرسلي الخادمة تماشا هانم عندي لمدة يومين، وقد سمعت أنها نزلت ضيفة عندكم، المهم وصلت تماشا هانم في المساء، وبعد أن نزلت من على المحفة نادت: " الله الله يا سيدتي أصغري

كيف تكونين بلا مروءة إلى هذا الحد لقد أرسلت أطلب منك خطاب والدك فلم ترسليه إليَّ.

قالت أصغري: وهل حضر أحد لطلبه؟

قالت تماشا هانم: انظري، هذه هي ماما عظمت موجودة. فلماذا يا سيدتي ألم تكوني في منزلنا هذه الجمعة، وهل قلت لك أم لا؟

قالت ماما عظمت: نعم، قالت لي السيدة، وأنا عجوز مسنة ولا أتذكر الكلام وعندما رجعت هنا نسيت بسبب انشغالي بشئون المنزل.

قالت أصغري بصوت هامس: حقاً أنت تذكرين النهب والسرقة فقط. وقالت لتماشا هانم: الخطاب موجود وقد حصلت على كتاب جديد فيه كلام ممتع جداً فلتأخذيه أيضاً.

قالت أصغري لتماشا هانم كل شئ عن ماما عظمت، وكان مزاج تماشا هانم حادا جداً فأمسكت بالحذاء في ذلك الوقت ورفعته تريد أن تضرب به ماما عظمت ولكن أصغري أمسكت به وحالت دونها وقالت: بالله عليك يا أختاه لا تغضبي هكذا، ولا تتسرعي الآن فسوف تتدهور جميع الأمور.

قالت تماشا هانم: هكذا أنت مترددة وتحتفظين بهدوئك، ولو كنت أنا مكانك أقسم بالله لضربت بك السارقة بالحذاء لكي أقومها وتتذكر ذلك طيلة عمرها.

قالت أصغري: انظري، إن شاء الله لن يذهب نكرانها للجميل هباءً وسيحل عليها العقاب قريباً وبعد ذلك سألت تماشا هانم: لأي سبب ذهبت حماتك عند أختها.

قالت أصغري: هذه المسكينة أيضاً تطرق كل الأبواب بسبب تلك التعيسة ماما عظمت، ولكي تسدد قرضاً لمرابي، فقد جاءت ماما عظمت اليوم وقالت أنه سيقاضينا وقد ذهبت لتبحث له عن نقود.

تماشا هانم: من هو المرابي الذي يقاضيكم؟

أصغري: أنا لا أعرف اسمه.

سألت تماشا هانم ماما عظمت: أي مرابي هذا يا عظمت؟

ماما عظمت: هزاري مل يا سيدتي.

تماشا هانم: هل هو نفسه الذي دكانه في سوق الصاغة.

ماما عظمت: نعم، يا سيدتي هو.

و بعد أن سمعت هذا قالت تماشا هانم لأصغري: إننا في بيت حماتي نتعامل معه، وبالفعل فإن هذا الخبيث يمكنه أن يقاضيكم، وإنني بعد أن أعود من هنا سأتكلم مع أخيه وسنري كيف يصلح من أمره.

ظلت تماشا هانم عند أصغري لمدة يومين وودعتها في اليوم الثالث وقالت عندما همت بالرحيل: أختي أصغري أقسم لك بحياتي عندما ترجع حماتك. ويتم رفع دعوي قضائية فلابد أن تستدعوني، وفوضوا إلى أمر ماما عظمت.

و من ناحية أخرى وصلت والدة محمد كامل عند أختها فقالت لها: يا أختي الكبرى أنت تأتي إلى من حين لأخر وأنا محظوظة هذا الأسبوع. وكان هناك شخص يأتي إلى هنا كل يوم ليطمئن على أخبار تميز دار.

(١٦)
الدسيسة الرابعة لماما عظمت

فجأة وبلا سبب حاكت ماما عظمت دسيسة أخرى، فقد كان الحاكم قادما لزيارة المدينة في تلك الأيام، وكانت هناك تأكيدات تعليمات مشددة من قبل الحاكم على ضرورة نظافة المدينة، وألصقوا الإعلانات في كل حارة وفي كل حي بأن على جميع السكان أن يقوموا بتنظيف شوارعهم وحاراتهم وأن تطلي الأبواب باللون الأبيض وأن يزلوا المخلفات، وإذا وجدوا قمامة في مكان ما فسوف يدفع صاحبه غرامة وقد علق على بوابة الحي إعلان يتضمن ذلك المعني، ذهبت ماما عظمت وانتزعت ذلك الإعلان من على بوابة الحي ولصقته سراً على بابهم، وفي الليل أسرعت ماما عظمت لتخبر والدة محمد كامل في سوق الهانم وكانت مصارع أبواب المنازل لم تفتح بعد، فنادت عليها، وسمعت والدة محمد كامل ندائها وقالت: هلموا أسرعوا وافتحوا الباب لماذا أتت ماما عظمت مهرولة إلي فى مثل هذا الوقت غير المناسب؟

مثلت ماما عظمت أمامها فسألتها : خيراً يا ماما؟

قالت ماما عظمت: سيدتي هناك إعلان ملصق على المنزل وأنا لا أستطيع أن أقرأه وأتهجي الاسم صحيحاً، ومذكور أن هزاري مل قد رفع القضية.

قالت والدة محمد كامل لأختها: أختي أنا راحلة، وسأذهب إلى هزاري مل وأستدعيه للتفاهم حول هذا الأمر، وليلقي الله في قلبه الرحمة.

قالت الأخت: أختي، أنا خجلي لأنني لم أستطع توفير المال لك، ولكن يوجد في عنقي عقد فخذيه وارهنيه وسددي الدين.

قالت أم محمد كامل: حسناً سآخذ العقد ولكن نقود الدين تضاعفت ولا ينفع معها عقد واحد.

قالت الأخت: قال لي زوجي أنني سأقترض من مرابي آخر، فتوكلي على بركة الله وسأرسله في أثرك عند ما يعود.

المهم أن والدة محمد كامل وصلت إلى المنزل ورأت الإعلان ملصقاً على الباب فدلفت وجلست صامته في حالة من الأسف، وعندما علمت أصغري بمجيء حماتها نزلت من حجرتها وألقت السلام عليها، وبعد أن رأت حماتها حزينة سألتها قائلة: أمي العزيزة يبدو اليوم على وجهك ملامح الحزن.

الحماة: رفع المرابي القضية وليس في حوذتنا نقود لسداد الدين، ولم تحب السيدة أميرة على طلبي، ورأيت الإعلان ملصقاً على الباب فماذا أفعل؟

أصغري: لا تفكري في هذا مطلقاً، إذا رفع هزاري مل القضية فلا حرج في ذلك لأن أسرة زوج تماشا هانم تتعامل معه، وقد وعدتني تماشا هانم وعداً مغلظاً أنها ستتفاهم مع هزاري مل ولو لم يقتنع فسوف توفر نقود لسداد الدين من طريق آخر، فلماذا تفكري كل هذا التفكير وقد انتهي ما كان سيفعله هزاري مل من جانبه.

الحماة: لو أن محمد كامل هنا لأرسلته عند هزاري مل.

أصغري: الاختيار لك، لكن في رأي الخوف من المرابي ليس مناسباً بأي شكل من الأشكال وإلا فإنه سيتشجع في المستقبل ويهددنا ويخيفنا برفع القضية في أغلب الأحيان، وأفضل طريقة هي ألا تكون هنا أي إشارة على هذا الأمر، وأن يمارس عليه بعض الضغوط من الخارج لكي تثنيه عن المضي قدماً في إجراءات رفع القضية.

والدة محمد كامل: إن تماشا هانم لا تزال فتاة صغيرة ولا تعرف أمور التقاضي والمحاكم، وإن الاعتماد عليها قد يفسد الأمر وتضيع الفرصة من أيدينا.

أصغري: لاغرو أن تماشا هانم فتاة صغيرة ولكنني تدارست معها الأمر جيداً وطمأنتني.

كان هذا الحديث مستمراً عندما نادي السيد مسلم على الباب. قالت أصغري: انظري لقد جاء مسلم ولابد أنه أتي بأي خبر في هذا المسألة، وأشارت أصغري إلى محمودة فغادرت حجرتها ونادت على مسلم وسألته : هل أتيت بخبر يا مسلم؟

قال مسلم : إن أختي الكبيرة تسلم عليك، وتسأل عن حالك وتقول لك أنها استدعت هزاري مل ووبختـه وهددتـه كثيراً، ووعدها بأنه لن يرفع القضية.

اطمئن قلب والدة محمد كامل إلى حد ما بعد أن سمعت هذا الكلام، ولكن أصغري كانت في حيرة من شأنها إن تماشا هانم أرسلت لها هذه الرسالة وقد رفع هزارى مل القضية فما هذا الأمر؟ كما أن مسألة الإعلان أمر عجيب، فأنا جالسة فى المنزل ولا علم لي بشئ ولو أن هناك إعلان من الحاكم لأتي به أحد السعاة ولنادي علينا ولكنت قد لبيته، انصرف مسلم

وقالت أصغري لمحمودة: اذهبي وانزعي الورقة الملصقة على الباب واحضريها في صمت، فانتزعت محمودة الورقة وقرأتها أصغري فإذا بها أمر بالنظافة ولم يذكر شئ عن رفع القضية وفهمت أن هذه الحيلة أيضاً من ألاعيب ماما عظمت ولم تخبر الحماة بهذا الأمر ولكنها طمأنتها بشكل جيد وقالت لها اجلسي وأنت مرتاحة البال ولا تخافي مطلقاً من رفع القضية.

(١٧)
حكمة أصغري وحث زوجها على ترك الألعاب النارية في ليلة النصف من شعبان

قالت الحماة: لقد اطمأننت من جانب القضية بسبب كلامك، ولكن ليلة النصف من شعبان ورمضان على الأبواب والاحتفالات بهما تحتاج إلى نفقات كبيرة، وقد توقفت وصول الخطابات من لاهور ويتجمد الدم في عروقي بسبب التفكير في النفقات.

قالت أصغري: ما زالت هناك أيام عديدة على حلول رمضان، والله مسبب الأسباب، وربما يأتي لنا الرزق من الغيب في ذلك الوقت، ولم يتبق سوي أربعة أيام على ليلة النصف من شعبان لذا فإن الاحتفال بليلة النصف من شعبان لا يحتاج إلى نفقات كثيرة.

قالت الحماة: إن منزلنا ينفق عشرين روبية في ليلة النصف من شعبان كل عام، واسألي ماما عظمت فهي موجودة ومسئولة عن المصروفات.

قالت أصغري: إن المصروفات حالها عجيب، ولكن هناك أشياء ضرورية وأشياء غير ضرورية الاحتفال بليلة النصف من شعبان من الأمور غير الضرورية والتي لا تحتاج إلى مثل هذه النقود.

قالت الحماة: ابنتي، إن الشيوخ يقرأون الفاتحة للرسول وأولياء الله ولابد بعد ذلك أن يتزاور الناس في المنازل ويتبادلون الهدايا، وهناك أمر ينبغي ذكره وهو أنه يجب توفير مبلغ خمس روبيات لزوجك ولمحمودة للعب الألعاب النارية.

أصغرى: إن محمد كامل قد تزوج فما له والألعاب النارية.

الحماة: إنه ـ حفظه الله ـ تسري في طبيعته حتى الآن العاب الطفولة وسوف يضنيني ما لم يضرب مائة صاروخ ناري وعشرون قذيفة نارية (بمبه)، وكذلك سيسوء حال محمودة وتنخرط في البكاء.

أصغري: أمي العزيزة، إن ما يقوم به المسلمون من عادات وتقاليد في ليلة النصف من شعبان لا تمت بصلة إلى الدين وأبي لا يحتفل بليلة النصف من شعبان مثلما يحتفل بها الآخرون ولا نأكل من حلوتهم كما لم نطعم هؤلاء الناس، وكانوا يتجمعون حول أبي في المدينة في بداية الأمر. و لكن العام الذي تزوج فيه أبي تشاجرت معه أمي في ليلة النصف من شعبان لكنه قال لها أنا لن أسمح بهذه البدعة في بيتي وأن

النفقات التي تنفق سأعطيها لعشرين من الفقراء بدلاً من عشرة وذلك احتفالاً بليلة النصف من شعبان.

حماة أصغري: وهل تقول أسرتك بهذا أيضاً ويمنعون حلوي ليلة النصف من شعبان توزيع أطباق الطعام على الفقراء وزيارة القبور والأضرحة ونثر الورود وغيرها من هذه الأشياء.

إن تعيس الحظ في الدنيا لا يترك هذه العادات، والآن لو جاءنا من أي أحد بعض ما صنعه فلا بد أن نأخذه مضطرين، ومن غير الممكن – مثلما يقول الجيران – أن نأخذ ولا نعطي، ومن يفعل هكذا باسم موتي الأسرة ويوزع الصدقات والحلوى – عليهم في الأعياد ليصل ثوابها لأرواحهم.

أصغري: لو كان من الضروري الاحتفال بليلة النصف من شعبان فلنقرأ الفاتحة ونعد خمسة أو ستة كيلو من الحلوى ويتم توزيعها هنا وهناك وترسل من بيت إلى بيت، وسأقنع محمودة الآن بالتخلي عن ضرب الصواريخ النارية، المهم أن ليلة النصف من شعبان ستنقضي من جانبي ولا تفكري في الاقتراض ولن يقل الاحتفال عن المعتاد.

كان هذا هو حديث أصغري مع حماتها، ولكن أصغري كانت تفكر في طريقة ما لتمنع زوجها من اللعب بالألعاب النارية وفي نهاية الأمر أقنعت أصغري بحكمتها زوجها بترك هذه العادة ولم يتبرم زوجها من ذلك، وأخذت تسأل محمودة وتداعبها أمام محمد كامل قائلة: كيف يا أختي تستعدين للاحتفال بليلة النصف من شعبان؟

قالت محمودة: سيحضر أخي الألعاب النارية ويعطيني أنا أيضاً.

لم ينطق محمد كامل ببنت شفة فقالت أصغري: لماذا يا أخي ستحضر مثل هذه الأشياء التافهة؟ و ما المتعة في لعب الألعاب النارية يا محمودة؟

محمودة: كم يكون منظراً بديعاً يا زوجة أخي عندما تطلقين الصواريخ؟

أصغري: ستطلق آلاف الصواريخ في الحي، ويمكنك مشاهدتها من الغرفة.

محمودة: أواه، أو لم نطلق الصواريخ؟

أصغري: ألا تخافين منها؟

محمودة: أنا لا أطلقها بيدي.

أصغري: انظري إليهم وهم يطلقون صواريخهم النارية في الحي، واسمعي يا محمودة أنها لعبة خطرة جداً، وأخاف عليك أن تحترقي بها، فذات

مرة أطلق أحد الأطفال في حينا صاروخاً بيده فانفجر في عينيه وأصيبت بالعمي، وعندما رأيناه ابتعدنا عنه، يا محمودة ألا تنظرين إلى حال أمك الحبيبة، وهل هي حزينة أم لا؟

محمودة: هي حزينة.

أصغري: ألم تفكرين أحياناً لماذا هي حزينة؟

محمودة: لا أعرف ذلك.

أصغري: أواه، علاما تقولين أنني أحب أمي كثيراً.

محمودة: حسناً يا زوجة أخي! لماذا أمي حزينة؟

أصغري: بسبب ضيق ذات اليد في الانفاق، فلم يعطنا المرابي قرضاً، وهي تفكر من أين تأتي بالنقود لكي تشتري محمودة الصواريخ النارية.

محمودة: إذن لن أطلب الألعاب النارية؟

أصغري: أحسنتي! أنت بنت طيبة جداً وعانقت محمودة وقبلتها.

محمودة: في العام القادم – إن شاء الله – ربما تسنح الفرصة لأمي عندما يرسل أبي النفقات وعندئذ سنشتري الصواريخ النارية ونطلقها أليس كذلك يا زوجة أخي الحبيبة؟

أصغري: دعك من هذا، إن إطلاق الألعاب النارية يا محمودة يعد ذنباً يغضب الله تعالى كثيراً.

محمودة: وماذا أذن عن جميع الناس الذين يطلقون الألعاب النارية.

أصغري: الناس الذين يطلقون الألعاب هل هؤلاء الناس لا يكذبون ولا يسرقون ولا يسلبون حقوق الغير؟

محمودة: ولماذا لم تمنعي أمي الحبيبة مطلقا؟

أصغري: إنها لا تريد أن تضايقك.

محمودة: حسناً وما الذنب في هذا الأمر؟ إنني لن أوذي أحد.

أصغري: يا محمودة عندما تذهبين إلى الله تعالى سيحاسبك على كل شئ، فالألعاب النارية أشياء قيمتها مرتفعة، ولو أي إنسان يسرق في استعمال الماء بلا داع فإن الله تعالى سوف يسأله لماذا أهدرت ماءنا بدون وجه حق، وهكذا يكون هناك حساب على المال والطعام والملابس والصحة، المهم أننا سنحاسب على جميع النعم التي أنعم الله بها علينا برحمته، وعندما تخبرين الله أننا أنفقنا هذه النقود على شراء

الألعاب النارية سيقول الله تعالى لماذا لم تعطي هذه النقود لأي فقير محتاج؟

فالناس يموتون جوعاً ويخافون الفقر والعوز، فلماذا تبددين مالي هكذا؟ فماذا سيكون جوابك يا محمودة في ذلك الوقت؟ ألا تخشين الله تعالى.

محمودة: والآن ما عساه أنا فاعله يا زوجة أخي الحبيبة؟

أصغري: أقبلي على التوبه.

محمودة: وهل سيغفر الله لي ذنبى؟

أصغري: لا شك أن الله سيغفر لك فهو يحبنا أكثر من أمنا الحبيبة.

محمودة: لماذا يحبنا الله تعالى إلى هذا الحد؟

أصغري: يحبنا لأنه هو الذي خلقنا ورعانا مثلما تحبين أنت القطط الصغيرة وترعيها.

محمودة: كيف أتوب؟

أصغري: بأن تتعهدي عهداً صادقاً من القلب بأ لا تفعلى هذا فيما بعد.

محمودة: أنا لن أشتري الألعاب النارية مطلقاً، ولكن آخذها لو قدمها لي أحد ما مجاناً.

بعد ذلك قبلت أصغري محمودة وكان محمد كامل جالساً صامتاً يستمع إلى كل هذا الكلام ولأنه كان كلاماً معقولاً فقد وقر في قلبه ونزل من فوره، عند أمه وقال لها: سمعت يا أمي أنك تجلسين وتفكرين في الاحتفال بليلة النصف من شعبان، فلا تفكري في أمي فأنا لن أحتاج إلى العاب نارية وتقول محمودة إنني لن اشتريها وقد تبنا نحن الاثنان.

و خلاصة القول أن مبلغاً من المال قد نقص من المصروفات، وقرأوا الفاتحة واشتروا حلوى بروبيتين لهذه المناسبة واهتمت أصغري بتوزيع الحلوى بنفسها، وعندما تصل إلى المنزل حلوى من منزل آخر لا تبقها في المنزل بل ترسل أحدا ما ليرسلها إلى منزل آخر وكانت الحلوى قد وصلت إلى كل بيت وبروبيتين فقط احتفلوا بليلة النصف من شعبان احتفالاً عظيماً، وقد احترقت غيظاً عندما رأت هذه الترتيبات لأنها فقدت بذلك مبلغاً كبيراً من المال وكان كل شئ تأخذه لترسله إلى بيت آخر تأخذ نصفه، فكانت الحلوى التي تجففها في ليلة النصف من شعبان تجففها وتأكلها في شهور.

(١٨)

حضور والد أصغري وحماها لسداد الدين للدائنين، وطرد ماما عظمت بعد أن انفضح أمرها.

بدأت الاستعدادات لمجيء والد أصغري بعد الاحتفال بليلة النصف من شعبان، وانقضت نحو عشرة أيام الحديث عن هذا الأمر، وقد حضر والدها دور انديش خان قبل رمضان بأربعة أيام، وكانت أصغري قد علمت بمجئ والدها من قبل فأخذت الأذن من زوجها وحماتها بأنها سوف تذهب للقاء والدها المأمور في اليوم الذي يصل فيه، وعندما علمت أصغري بمجئ والدها استدعت المحفة فوراً وذهبت إليه وعانقها والدها واغرورقت عيناه بالدمع وظل يستفسر منها عن أحوالها لفترة طويلة، وقال لأصغري إن أخاك خير انديش خان ذهب إلى لاهور طبقا لمشورتك، وإن شاء الله سيصل هنا مع حماك غدا أو بعد غد، وكنت قد تلقيت منه خطاباً وأنا في الطريق، وقد حصل حماك على إجازة، المهم أن أصغري مكثت عند أمها طوال هذه الليلة وطوال نهار الغد، وقالت لوالدها عندما اقترب المساء: أنا سأذهب اليوم لو أذنت لي.

قال الوالد: عليك أن تمكثين معنا أسبوعاً وسوف أخبر حماك بذلك.

قالت أصغري: سوف أمتثل لأوامرك، ولكن المصلحة تقتضي وجودي في المنزل قبل مجيء والد زوجي. فكر الوالد وقال: نعم، كلامك معقول.

المهم أن أصغري ودعت والدها ووصلت إلى المنزل قبل المغرب، وفي اليوم التالي في وقت الغذاء وصل محمد فاضل والد محمد كامل وكان محمد فاضل يعمل سكرتيراً في حكومة أحد أمراء لاهور وكان يتقاضى راتباً قدره خمسون روبية شهرياً وكان الأمير مسئولاً عن المسكن والمواصلات وقد ذهب خير انديش خان إلى لاهور طبقاً لخطاب أصغري، وعرض خطاب أصغري على محمد فاضل وقد فرح حماها كثيراً بعد رؤية خطاب زوجة ابنه، وربما لم يكن سيحصل على إجازة هكذا بهذه السرعة، ولكنه اشتاق الآن لرؤية زوجة ابنه وحصل على إجازة شهر بعد أن تحدث كثيراً مع الأمير ورافق خير انديش خان، ولأن أصغري لم تلتق بحماها بعد الزواج فإنها بمجرد حضور حماها صعدت إلى حجرته، وكانت والدة محمد كامل في حيرة من أمرها وكانت تتساءل عن سبب مجيئه. المهم أنهم بدءوا يتحاورون بعد تناول الطعام، فقال محمد فاضل لزوجنه: اسمعي يا سيدتي، لقد استدعتني زوجة ابنك الصغير، وقد أخبرتني السيدة بجميع أحوالكم في

خطابها وحمله إليّ خير انديش خان، وقال محمد فاضل: استدعوا زوجة الابن.

صعدت الحماة إلى الغرفة وقالت لأصغري: هيا يا ابنتي لماذا تخجلين؟ عليك أن تسلمي عليه بعد حديث الحماة نهضت أصغري ورافقتها وانحنت وسلمت عليه وجلست منزوية بأدب، فقال لها محمد فاضل: اسمعي يا ابنتي، لقد جئت بسبب استدعائك لي، وقد سعدت أيما سعادة بعد قراءة خطابك، فليبارك الله في عمرك ويمنحك السعادة، والحقيقة أن بيتنا سيكون محظوظاً للغاية عندما تتولين إدارته، وأنا متأكد أن جميع الترتيبات سوف تتم في هذا البيت إن شاء الله طبقاً لرأيك ووفقا لمشورتك في غضون عدة أيام.

المهم أن محمد فاضل ظل لمدة أربعة أيام في مقابلات ولقاءات، ولم يهتم بأي شأن من شئون المنزل في الأيام الأولى لرمضان وذلك بسبب الصيام، وذات يوم استدعي زوجة ابنه وأجلسها بجواره وقال لماما عظمت: عليك أن تعدي حساب الدين أثناء وجودي، وأن تكتبي كل من له حق لكي ندفع ما علينا بقدر المستطاع وما تبقي يقسط لهم.

قالت ماما عظمت: لو أن هذا الحساب خاص بدين واحد لتذكرته شفوياً ولكن هناك حساب للجميع: الخياط والبقال والجزار وبائع الأقمشة والحلواني هذا علاوة على الدين الكبير لهزاري مل: وكل ما تريد أن تدفعه اعطه لي وأنا أسدده للجميع بأسمك.

و كان محمد فاضل رجلاً طيباً بسيطاً فهم أن يدفع لها ولكن أصغري قالت: ما الفائدة من دفع الدين بهذه الطريقة، فعلينا أن نعرف أولاً دين كل واحد ونمعن التفكير في سداده.

قالت ماما عظمت: بعد أن انتهي من الطعام سأذهب راجلة وأسأل كل واحد منهم عن دينه.

أصغري: ما الفائدة من الذهاب لسؤالهم؟ فمن يرغب في أخذ دينه عليه أن يأتي هنا.

ماما عظمت: ماذا تقولين يا سيدتي، أني لي أن أستدعيهم الآن؟ ومتى يجد هؤلاء الناس الوقت والفراغ من مشاغلهم والمجيء هنا بصحبتي.

أصغري: يا ماما إننا لا نستدعيهم كل يوم، فاذهبي واستدعيهم وسيستغرق ذلك الأمر يوما واحدا وسوف أتولى أنا مسئولية إعداد طعام العشاء، فافعلي هذا العمل اليوم، والذين يريدون أن يأخذوا أموالهم سوف

يسارعون إلى هنا بمجرد سماعهم بأمر الدفع، إن هزاري مل يذهب إلى مبني المحكمة على مسافة عدة أميال لرفع الدعوى القضائية ألن يأتي إلى هنا، وهل على أقدامه نقش الحناء؟ ومن منهم بعيدان بائع الأقمشة والجزار والخياط والحلواني جميعاً من هذه الحارة ماعدا البقال وهزاري مل فهما بعيد أن عن هنا فاتركيهما للغد ولننتهي اليوم من دفع هذا الحساب المتفرق.

لم تكن ماما عظمت توافق على تسوية الحساب بهذه الطريقة أبداً ولكن أصغري ضغطت عليها في الحديث ولم تدع لها مجالاً للرفض، وكان الحلواني أول من جاء نسأله محمد فاضل: كم حسابك يا لاله؟ قال الحلواني: ثلاثون روبية.

محمد فاضل: ما الأشياء التي أحضرتها هنا؟ إن ثلاثين روبية كثيرة جداً.

الحلواني: ثلاثون روبية ليس كثير يا سيدي، إن من بينها مبلغ حساب عشر كيلوات من السكر للاحتفال بليلة النصف من شعبان.

والدة محمد كامل: أي سكر ذلك؟ هذه المرة كل شئ في بيتنا اشتريناه نقداً من السوق فتغير لون وجه ماما عظمت بعد أن سمعت هذا الكلام، وقالت للحلواني، لماذا كتبت العشرة كيلوات من السكر في حسابهم؟ لقد اشتريتهم لأناس آخرين وقد أعلمتك بذلك.

الحلواني: إنك لم تذكرين لى اسم أي منزل، وقد أخذتيه باسم هذا المنزل وإلا ما الفائدة التي تعود على عندما اكتب الأشياء باسم الآخرين وأنا أعرفك ولا أعرف أحدا من هذا المنزل. المهم أن ماما عظمت بدأت تتلعثم في الكلام فقال محمد فاضل: حسناً، دع عنك حساب السكر، وأخبرني بالأشياء الأخرى.

المهم أن كثيرا من الأشياء التي ذكرها الحلواني لم تدخل المنزل أبداً، ومنها أربعة كيلوات من الحلوى للاحتفال بميلاد طفل والطريف أنه لم يعقد مجلس للاحتفال بمولود هنا قط، والنفقات الحقيقة نحوست أو سبع روبيات فقط والباقي كله كذب، تحرق قلب محمد فاضل واستشاط غضباً وسألها لماذا الخيانة يا عظمت؟ إذن القرض الذي اقترضيته على هذا المنزل كان بسببك، وبهذه الطريقة خربتي البيت.

تمت تسوية حساب الحلواني وجاء الدور على البقال فقال: إن حسابي يا سيدي حساب معتاد فهي تشتري كل يوم خضروات بآنتين.

والدة محمد كامل: كانت تدخل بيتي كيلو من الخضروات كل يوم بآنتين؟

البقال: سيدي، إن ماما عظمت كانت تشتري من دكاني ثلاثة كيلو.

ماما عظمت: نعم، أشتري ثلاثة كيلو، كيلو من الخضروات باسمكم، وكيلو باسم ابنتي وكيلو ثالث لبيت آخر، وأنا لا أنكر ذلك؟ وهذا الخضري يدون جميع الحساب على اسمكم.

البقال: أيتها العجوز الخائنة إنك دائماً تشتري ثلاثة كيلو على حساب هذا البيت وعندما تجدين روبية تكتبيها باسم هذا البيت.

و كذلك كان هناك كثيراً من الخداع والغش في تسوية حساب الجزار والخياط وقد ثبت أن ماما عظمت كانت تكمل نفقات بيت ابنتها (خيراتن) واثنان أو ثلاثة من جيرانها من حساب هذا البيت، كانت تشتري سلعاً باسم البيت وتبيعها في مكان آخر. المهم أنه تم تسوية الحساب المنفصل حتى المساء ولم يبق إلا حساب دين هزاري مل وبائع الأقمشة. فقال محمد فاضل: الوقت لا يسعفنا الآن، فلنأجل هذا اليوم وسنري ذلك غداً.

و لكن محمد فاضل قال هذا بصوت منخفض: لا تدعوا ماما عظمت تهرب.

أصغري: أين تهرب وتترك المنزل والجميع موجود بالمنزل، فلو لديها كرامة لكانت قد انتحرت، ولكن من عنده كرامة لا يقترف مثل هذه الأعمال، ومع ذلك لابد من مراقبتها ولكن فقط بهذا القدر بحيث نحتاط لخروجها ومجيئها.

و طلب محمد فاضل من أحد الخدم الذين جاءوا مرافقين له أن يراقبها في صمت، وعندما انتهت من تناول الطعام، نهضت ماما عظمت في هدوء وهمت بالخروج رافقها الخادم وتعقبها بخطي حثيثة، فذهبت ماما أولاً إلى بيتها واخذت من هناك شئ ما ووضعته تحت إبطها ثم توجهت مباشرة إلى منزل بائع الأقمشة ونادت عليه فخرج إليها بائع الأقمشة مذعوراً وقال لها: أيها السيدة العجوز ماذا أتي بك في هذا الوقت؟

عظمت: لقد حضر محمد فاضل وسوف يدفع الديون لجميع الدائنين، وسوف يستدعيك غداً ولا تتكلم معه عن الحساب لأن فيه فضيحة لي.

بائع الأقمشة: أي فضيحة لك في الحساب؟

ماما عظمت: أنت تعلم يا لاله أنني تعيسة الحظ وأن الطمع عادة سيئة جداً، وقد أخذت بعض الأقمشة والملابس من دكانك لنفسي على حساب هذا المنزل.

بائع الأقمشة: وهل أعلم ماذا اشتريت لحسابك.

ماما: أنا لا أتذكر الحساب الآن، ولكن ضع حساب الأقمشة والملابس وثمن الأمتار العشرة في حسابي، وفي يدي أربعة أساور يقدر ثمنها بسته عشرة روبية وربما تقل روبية بعد الاستعمال، فعليك أن تخصم خمسة عشرة روبية من حسابهم وأضف ما تبقي من روبيات على حسابي وسوف أدفعها.

بائع الأقمشة: حسناً، سآخذ الأساور التي ستعطيها لي، ولكن الوقت ليل.

عظمت: إن كرامتي الآن في يديك فأنقذها بقدر المستطاع.

و دعت ماما عظمت بائع الأقمشة وتوجهت مباشرة إلى منزل هزاري مل فاندهش لذلك وقال لها: من أين جئت في هذا الوقت؟ فجثت على قدميه وانخرطت في البكاء وأخذت تقول له: لقد اقترفت خطأ.

هزاري مل: وما هو؟

عظمت: أو عدني أنك ستعفو عني وسأقول لك

.هزاري مل: فلتتكلمي.

عظمت: جاءت المصروفات إلينا من لاهور منذ أربعة أشهر، وأرسل محمد فاضل لك مائة روبية فأنفقتها طرفي ولم أكشف عنها خوفا من أهل المنزل، والآن حضر محمد فاضل، وسيطلب منك حساب الدين فلا تقول له أنني صرفت هذه النقود جهتي وسأدفعها لك، وعليك ألا تكشف هذا المبلغ.

هزاري مل: لو أن الأمر يتعلق بروبيتين أو أربعة روبيات لأخفيتها ولكني لا أستطيع أن أخفي مائة روبية.

ماما عظمت: ألا تعتمد عليَّ في سداد المائة روبية؟

هزاري مل: بكل وضوح لا أستطيع أثق بك في أمر صغير، إن هذا هو سلوكك مع البيت الذي تربيتي فيه طوال عمرك فأني لك أن تلتزمي الحيطة والحذر مع الآخرين!

عظمت: حسناً يا لاله إن الأعداء يتجمعون عندما تحل بالإنسان الأوقات العصيبة، وإذا لم تكن تثق في فخذ حلي ابنتي وأساورها احتفظ بها لديك.

هزاري مل: نعم، هذا فيما يتعلق بمسألة الحساب، ولكن في النهار سوف نثمن الحلي ونعرف كم تساوي ولكنها كما تبدو ولا تساوي أكثر من خمسين أو ستين روبية.

ماما عظمت: مهلاً يا لاله! لا تكن جشعاً إلى هذا الحد، فقد طلبنا إعداد تسعة منها منذ أربعة أشهر وقد بلغ ثمنها مائة وعشرون روبية.

هزاري مل: أين الجشع في هذا الأمر؟ إن أحد لم يأخذ منك حليك سواء أكانت تساوي مائة أو مائتي، وسنعرف ثمنها بالضبط عند وزنها.

عادت ماما عظمت إلى المنزل بعد أن انتهت من جميع الترتيبات، وحكي خادم محمد فاضل الذي كان يتتبع خطاها كل ما حدث لسيده محمد فاضل، كما علمت أصغري أيضاً عن طريق والدة محمد كامل.

و في الصباح تم استدعاء بائع الأقمشة وهزاري مل، وبدأ أنه لا يوجد أي دليل في الحساب، وكانت ماما عظمت تتحدث بصوت عال فقال لها بائع الأقمشة: لماذا اثترثرين أينها العجوز؟ لقد طلبتي مني أن آخذ الأساور وأخبرتني أنها تساوي خمسة عشر روبية وثمنوها لي في السوق بتسع روبيات، ووضع هزاري مل الحلي والأساور أمامها وقال لعظمت: لا يا سيدتي لا شأن لي بهذه الحلي.

و سأل محمد فاضل كل من هزاري مل وبائع الأقمشة قائلاً: لماذا هذه الأشياء يا أخي ما هي؟ عندئذ قص عليه كل منهما ما حدث في الليلة البارحة، وكانت ماما عظمت تشعر وكأنها ضربت بألاف من الأحذية على وجهها، وعندما تمت تسوية حساب الدين أخرج محمد فاضل النقود ليدفعها فكان من الواجب أن يقسمها بينهما وقال لها لقد طلبت نقوداً من لاهور وعندما تأتي في غضون أيام قليلة سأدفع لكما ما تبقي من الحساب، وتساءل الجميع ممن سنأخذ حسابنا طرف ماما عظمت؟ وكانوا لا يزالون يتحدثون عندما كان مسلم ذاهباً إلى الكتاب وكان ماراً من هناك فسمع هذا الحديث، وعندما رجع قال لتماشا هانم يوجد اليوم جمع غفير أمام باب خالتي أصغري، ويتحاسبون مع حماها، وعندما سمعت تماشا هانم استقلت محفة ووصلت إلى هناك وعانقت أصغري وقالت: لماذا يا عزيزتي لم تخبريني بما حدث؟

أصغري: الحساب أمامك الآن وتعلمين به وسأخبرك بعد أن ينتهي. المهم أن محمد فاضل قال للدائنين فلتأخذوا من ماما عظمت ما أخذته منكم وتوجه ناحية ماما عظمت وقال لها: سددي لهم أموالهم.

قالت عظمت وعيناها تنظران إلى أسفل في ذل ومهانة: لدي حلي ابنتي فليأخذها جميع الدائنين وكل حلي ابنتي يقسم على حساب دين البقال والجزار والخياط وبائع الأقمشة، وفيما يتعلق بحساب المائة روبية

لهزاري مل فيمكن كتابة ورقة رسمية بها بشهادة الشهود. فقال محمد فاضل لماما عظمت: لقد كنت الآن تعيشي بسلام ولكن امرأة مثلك لا عهد لها وخادعة وناكرة للجميل ليس لها أي عمل في منزلنا.

أصغري: إنها كانت تتصف بصفة أخرى علاوة على نكران الجميل ألا وهي أنها كانت تفكر في تخريب المنزل، ألا تذكرين يا عظمت حكاية الحلوى المقلية التي بإعدادها أخو محمودة وذهبت إليه وكذبت عليه وقلت أن زوجة الابن تقول لدي صداع في رأسي، تكلمي متى قلت لك هذا ومتى كنت تعذرت بصداع في رأسي؟

عظمت: سيدتي، لقد كنت تقرأين القرآن في حجرتك، وقلت إنني صعدت إليك فرأيتك تقرأين فقفلت عائدة.

أصغري: وهل اختلقت حكاية صداع رأسي؟

عظمت: لقد فكرت أنك تقرأين من الصباح وحتى الأن وأني لك أن تشغلي بالك بالموقد؟

أصغري: أولاً ماذا كان هدفك من أمر ذهابي إلى الجبل؟ ألم أسدي لك النصح أو سمعتي ما أقواله؟

لم تجب عظمت عليها بأي جواب، ثم انتزعت أصغري الإعلان ووضعته أمام محمد فاضل وقالت: انظر هذه ألاعيب السيدة عظمت لقد انتزعت الإعلان بنفسها من على بوابة الحي وأحضرته وقامت بلصقه على المنزل وهي نفسها التي أخبرت أمي الحبيبة.

كانت أصغري تتحدث بهذا الكلام وكان وجه السيد محمد فاضل يحمر غيظاً ومن ناحية أخرى كانت تماشا هانم تقرض على أسنانها ثم قالت للسيد محمد فاضل: إنه لا يكفيك طردها فقط، إنها امرأة شريرة جداً. وبعد أن قالت هذا نادي على خادمه وقال له: اقتد يا بهادر هذه النجسة إلى مركز الشرطة وسنذكر في المحضر جميع الأحداث.

قالت أصغري للسيد محمد فاضل: يكفي الآن هذا العقاب الذي نالته ولتعفها من مركز الشرطة، وأشارت إلى ماما عظمت قائلة "ارحلي" ورافقت ماما إلى الباب المهم أنه قد تم طرد ماما عظمت من هنا لما اقترفته من ألاعيب، وعندما وصلت إلى البيت كانت ابنتها ممدة كالقطة فقالت لها: ألم أقل لك أقلعي عن هذا النهب، إن سرقة مائه يوم لن تجعلك ملكة ليوم واحد وسيتم الإمساك بك يوما ما، كنت لا تستجيبين لأحد، حسنا، لقد جنيت ما صنعته يداك، والآن لقد أسئت

إلى سمعتي عند أسرة زوجي ارحلي لا مكان لك في بيتي، وسأصبر على الحلي وسوف أحصل عليها لو كان مقدر لي ذلك. وبهذه الطريقة وبعد جهد ولأي طردت أصغري عدوتها وتخلصت من العذاب في المنزل.

(١٩)
التشاور حول تعيين خادمة أخرى في المنزل

عندما تم حسم موضوع ماما عظمت استأذنت أصغري للذهاب عند والدها وودعتهم في رضي وسعادة وظلت في بيت أبيها طوال الأسبوع وكانت قد استشارت والدها في تلك الأمور، فسألها والدها ليطمئن عليها: هل طردت ماما عظمت؟

أصغري: لقد انتهي كل شئ على خير بفضلك، وإل لما ذهب أخى الأكبر إلى لاهور، وما أتي والدى العزيز، وما تم تسوية الحساب القديم، ولا طردت عظمت.

دور انديش خان: ماذا عساه أن يكون تنظيم المنزل الآن؟

أصغري: إن تنظيم المنزل الآن يواجه صعوبة بعد أن رحلت ماما عظمت، وإن شاء الله سوف أصلح ما كانت قد خربته عظمت.

انديش خان: وما الإصلاحات التي استحدثتيها في المنزل.

أصغري: لم أحدث أي إصلاحات حتى الآن، فلقد واجهت المتاعب والشجار مع عظمت منذ البداية، ولا شك أن لدي الآن الرغبة في التفكير في كل شئ لترتيبه وبمشيئة الله سوف أخبرك بهذه الترتيبات عن طريق خطاباتي لك.

و كان والد أصغري قد قرر لها عشرة روبيات شهرياً بعد زواجها، فسأل أصغري: لو أنك تعانى من المصروفات فإنني أعطي لك بضعة روبيات أخرى.

أصغري: إن العشر روبيات تزيد عن حاجتي، بل إنني أدخر معي جميع الروبيات حتى اليوم فلماذا آخذ أكثر، وعندما أحتاج سوف أطلب بنفسي.

المهم ودعت أصغري والدها ورجعت إلى بيت زوجها فوجدت أن حماتها تنفخ في الموقد فسألتها أصغري بدهشة : ألم تعين خادمة أخرى حتى الآن.

الحماة: لقد جاءت عدة نساء ولكن كانت همتهم تفتر بعد سماع الراتب، فمن الصعب تعيين خادمة مثل عظمت أنها كانت تخدم لمدة خمسة وعشرين عاماً ثمان آنات في الشهر، وعندما حضرت خادمة الآن اعتبرت الروبيتين وطعامها قليلاً، لذا انتظرت لحين عودتك.

أصغري: هناك خادمة أمامي ولكنها تطلب راتبا أكبر، إن لكفايت النساء أخت صغرى هي ديانت النساء تجيد جميع أنواع الطهي والخياطة، وذات مرة قالت لي كفايت النساء لو احتاج منزل إلى خادمة جيدة فإن ديانت النساء جاهزة للخدمة.

والدة محمد كامل: وما الراتب الذي ستتقاضاه؟

أصغري: لقد طلبت من فمها ثلاث روبيات والطعام، ولكن ربما ترضي بروبيتين بعد التفاهم معها.

والدة محمد كامل: لو تقبل الخادمة بروبيتين والطعام فهناك أمام منزلنا توجد زوجة طباخ المنزل وابنتها "جنيا" يتضرعان إلي.

أصغري: أنا لا أعين أم جنيا ولو بأربعة آنات.

والدة محمد كامل: لماذا؟

أصغري: الخادم المقيم بالقرب منا أمر سئ وبغض النظر عن هذا فإن الشئ الذي يروق لها ستحمله إلى بيتها، ولأن البيت قريب من بيتها فإن أم جنيا ستذهب إلى بيتها كل ساعة وربما ظلت في بيتها حتى الليل.

والدة محمد كامل: لزوجة بخشو ابنة قالت لي عليها عدة مرات.

أصغري: إنها زلفن التي تعيش عند قصر سيد فيروز. تلك العايقة التي ترتدي ملابس جديدة ومزركشة.

والدة محمد كامل: ما لنا وزينتها فهي متزوجة حديثاً ولديها شوق لارتداء الملابس الجديدة، وتسكن في منزل فيروز.

أصغري: لا ينبغي تعيين خادمة كهذه.

والدة محمد كامل : إن والدة زلفن نفسها توافق على الخدمة.

أصغري: معها ابنة صغيرة ملازمة لها دائماً، ولا تترك أمها لحظة واحدة، والاسم خادمة واحدة وسيتناول الطعام اثنان.

والدة محمد كامل: لا توجد خادمة أخرى في ذاكرتي.

أصغري: انظري، سأستدعي ديانت النساء.

والدة محمد كامل: وماذا عن الراتب؟

أصغري: من المحال أن تجدي خادمة أمينة براتب قليل، فهؤلاء الأمناء يأخذون ثلاث روبيات في كل مكان ولكنهم شرفاء، ولكن من هم على

شاكلة ماما عظمت يرضين بثمان آنات لكنهن ينهبن البيت، وصدق المثل القائل: "الغالي ثمنه فيه والرخيص به عيب".

و عندما حان وقت الطعام قامت الحماة وزوجة الابن بإعداد الطعام، وبعد الطعام أخذت أصغري محمودة معها وصعدت إلى غرفتها، فقد كانت أصغري قليلة النزول من حجرتها ما دام السيد محمد فاضل موجوداً، فكانت تنزل أسفل فقط في الصباح والمساء، بل إنها منعت محمودة كذلك وقالت لها لا تنزلي في كل وقت، وكانت محمودة صغيرة فسألتها: حسنا يا زوجة أخي الحبيبة ولكن لماذا؟

قالت أصغري: لا يجب أن نتجول أما الكبار كل وقت.

(٢٠)
تحديد نفقات المنزل

بعد تناول الطعام بدأ الشجار بين السيد محمد فاضل وزوجته حول تحديد نفقات المنزل وكانت الزوجة تشتكي من أن المصروفات التي يدفعها قليلة جداً، وأن هناك مطالبة بالمجاملات يجب الوفاء بها كالاحتفال بالأعياد والمناسبات والزواج، وكان السيد محمد فاضل يقول أن عشرين روبية شهرياً ليست قليلة ويقول لها أنه ليس لديك ملكة التدبير، ولهذا السبب انعدمت البركة في المنزل وفي تلك الأثناء نادي السيد محمد فاضل على محمودة فجاءت محمودة فطلب منها أن تستدعي زوجة أخيها، وعندما سمعت أصغري خبر استدعائها أصابها الحيرة فلماذا يستدعيها في هذا الوقت وسألت محمودة ماذا حدث؟

قالت محمودة: إنهما يتشاجران، فذهبت أصغري وقال لها السيد محمد فاضل: من يقوم بإدارة شئون البيت يا ابنتي؟

قالت أصغري: ستقوم بها الأم مثلما تقوم بها الآن.

قال محمد فاضل: لقد رأينا نتيجة إدارتها لأمور المنزل، إن المنزل الذي ينفق عليه عشرون روبية شهرياً أ يكون على هذه الحالة؟ فليس به أواني مرتبة ولا شئ ذو قيمة ولو أنني طلبت ملعقة من الشربات في أي وقت يعلم الله، هل سأجدها في المنزل أم لا؟

أصغري: وما تقصير الأم الحبيبة؟ لقد خربت عظمت البيت خيبها الله.

محمد فاضل: لم يكن في المنزل أي ترتيب، وما سلطة عظمت، وهل كانت خادمة أم صاحبة المنزل؟

أصغري: لقد اعتمدتم على سيدة عجوز لمدة خمسة وعشرين عاماً، فمن ذا الذي يستطيع أن يكشف خداعها؟ إن مثل هذه المرأة العجوز لا يستطيع أحد أن يشك فيها.

محمد فاضل: ولكنك في نهاية الأمر هل اكتشفت خداعها أم لا؟

أصغري: لقد شككت فيها وكانت سيئة الحظ، فعندما ذكرت مسألة رفع القضية أيقظت الدبابير من نومها بعد أن أثارت الشكوك حولها.

عندئذ تكلمت الحماة قائلة: إنك تتقاضى خمسين روبية وتحتفظ لنفسك بمفردك بثلاثين روبية، وترسل هنا للأسرة عشرين روبية.

محمد فاضل: إن نفقات المنزل في الداخل تختلف عنها في الخارج، تعتقدين أنني بمفردي وماذا عن الخادم، والعربة، والمنزل، والملابس المناسبة؟

الزوجة: نفقات العربة والمنزل يدفعها الأمير.

محمد فاضل: إنني أطعم الحصان علفاً من جيبي، وأدفع أربعة روبيات للسائس وإصلاح المكان، وأنا مطالب بأن أقيم وزنا لهؤلاء الذين أتعامل معهم أثناء العمل طبقاً لتعليمات بلاط الأمير ولا أعلم كيف أقضي أيامي بهذه الطريقة.

قالت أصغري مخاطبة حماتها: أمي الحبيبة ما فائدة تكرار الحديث عن العشرين روبية وألف شكر لله على ما نحصل عليه، وليطرح الله البركة في دخل ووالدنا العزيز وكأنه آلاف الروبيات.

الحماة: ابنتي، إن العشرين روبية لا تكفي لطلبات المنزل.

كفت الحماة عن الكلام بإشارة من أصغري التي قالت لمحمد فاضل: أعطني النفقات الآن ولكن يجب أن نتلقى ما تعطينا إياه من نفقات شهراً بشهر حتى لا يأتي وقت لا يكون عندنا نقود فنضطر إلى الاقتراض، وبذلك تذهب البركة من المنزل بسبب القرض.

محمد فاضل: إن قواعد صرف الرواتب في الحكومة الهندية مضطربة للغاية، فتصرف أحياناً كل ستة أشهر، ونحصل عليها أحيانا كل سنة، ولهذا السبب لا يمكنني أن أرسل النفقات بانتظام، ولكني سأقول لهزاري مل أن يعطيكم عشرين روبية كل شهر.

أصغري: سوف يعطينا المرابي ولكنه سيطلب منك الفائدة (الربا).

محمد فاضل: لن يأخذ ربا لأن له معاملات مع حكومتنا وإن فعل ذلك سيحكم عليه.

أصغري: حسناً، لا بأس من هذا الأمر.

المهم أن العشرين روبية أخذت، ولكن والدة محمد كامل كانت متبرمة وتحدثت مع أصغري على انفراد في هذا الصدد، فقالت أصغري: سوف أدير شئون المنزل بعشرين روبية إن شاء الله فلا تفكري في هذا الأمر، وفي الواقع لو قل دخل السيد محمد فاضل عن ثلاثين روبية يمكن أن يضر ذلك بمكانة، إن المختار لا يعتمد على الدخل بأي شكل من الأشكال من البداية للنهاية، ولدينا دخل محدود مثل قطع لحم صغيرة في مرق كثير، بل إن محمد فاضل نفسه يعيش في معاناة ولن يكون من المناسب أن يحصل المنزل على أربعة روبيات أكثر.

و قد التزمت الحماة الصمت بعد أن سمعت هذا الكلام.

(٢١)

تعيين ديانت النساء محل ماما عظمت، وتولى أصغري إدارة شئون المنزل

أرسلت أصغري تستدعي ديانت النساء، واتفقت معها على أن تتقاضى روبيتان والطعام وحذرت ديانت النساء من نقل أسرار المنزل لأحد ما، وقالت أعتبرك مثل أختك الكبيرة التي تعمل في منزلنا.

قالت ديانت النساء: أيتها الزوجة، فليميتني الله تلك الساعة التي يقع فيها نظري على مال حرام، وليس هناك حاجة للسرقة ومنكم أنتم، وعندما أجوع فإنني أتحمل لأنني أعلم أن سرقة مال الغير حرام.

حل العيد في اليوم التالي وغادر محمد فاضل المنزل إلى لاهور، وقامت أصغري بشراء جميع السلع الضرورية والأساسية بالجملة، وفيما بعد كانت دائماً ما تشتري جميع الحاجيات بالجملة بعد أن رأت أنها رخيصة في موسمها وأوانها فكانت تشتري كل شئ في وقته المناسب مثل الفلفل والبصل والغلة والعدس والبقول والأرز والسكر الأحمر والسمن وخشب الوقود، والفواكه الجافة والخضروات الجافة، وكانوا خمسة أفراد بعد انضمام ديانت النساء يتناولون كيلو لحم كامل في وجبتين وكانت ديانت النساء تشاركهم وأحياناً يطلبون خضروات ومرة يطلبون طعاماً بدون لحم، وأحياناً تعد لهم الكباب، ويأكلون وجبة عدس واحدة في النهار علاوة على الإدام، واليوم السابع حسب العادة كان أرزا باللحم (بلاو) وأرز حلو، وأعدت في المطبخ ثلاثة أقسام أحدها للطرشى والآخر للحلويات والثالث للمخللات، وصنعت عدة أنواع من المربات والسلطات، وعلاوة على تلك الأنواع قامت بإعداد شربات من الرمان، وعصير ليمون، وأعدت زجاجات من المشروبات الحمراء والصفراء، وكان يوجد في المنزل جميع الأشياء الضرورية، بالرغم من هذه الأدوات لم تنفق أكثر من خمسة عشر روبية، واشترت بالروبيات الخمس التي ادخرتها جميع الأواني وأدوات المطبخ من الملاعق والأطباق وما يلزم من أدوات لإعداد الشاي، واشترت صندوقين لتضع فيهما هذه الأدوات، وكذلك دولابين أحدهما في المطبخ والثاني في حجرتها لحفظ السلع وأصلحت مقاعد الجلوس القديمة، وأعدت سريرين. المهم أن أصغري أصلحت أمر المنزل بهذه العشرين روبية بحيث يبدو من ظاهر حاله أنه على أكمل وجه، وهناك وفرة وترتيب في كل شئ.

و في أيام عظمت كانت تعطي محمودة دائماً ثلاثة أو أربع "بيسات" يومياً لتشتري حلوى من السوق بسبب أن المائدة كانت تخلو منها، أما الآن فقد بدأت في وضع الخبز على المائدة في الغذاء والعشاء وأحياناً كانت

تخرج قطعتي لحم من أجل محمودة، وتمنحها أحياناً قبضة من السكر الأحمر، وتوزع أحياناً قطعة من المربي على كل واحد، وتوقف الشراء من الدكان كل يوم، وولو رغبت محمودة في شراء أي شئ في يوم من الأيام تجده في المنزل، ولم يحصل فقير ما طيلة حياته على قبضة دقيق أو نصف رغيف خبز من هذا البيت، والآن بدأوا يعطوا الفقراء رغيفان من الخبز في الغذاء وفي العشاء، وكانت الأمتعة والأدوات الموجودة في المنزل مبعثرة مثل البقول بسوء تنظيم عجيب، أما الآن فبدأ كل شئ يوضع مكانه وبالنسبة لحزم الملابس فإنهم كانوا يربطون الملابس بترتيب وصارت مطوية بشكل جيد، وكانت الغلة والماء في الحجرة وكل شئ مغطي بعناية، والأواني نظيفة. وموضوعة في مكانها، والأواني النحاسية في جانب والصيني في جانب آخر، وكأن المنزل آلة تسير كالمعتاد، وبالتدريج بدأت أصغري توفر روبيتين ثم أربعة روبيات وتدخرها على حدة على سبيل الأمانة وعندما تولت أصغري تنظيم أمور المنزل أقسمت على أن تنسي الاقتراض وألا تشتري شئ من جهدام ومن السوق بالدين، وكانت أصغري تكتب جميع مصروفات المنزل في دفتر، وعندما تقترب أي سلعة من النفاد تخبرها ديانت النساء قائلة: سيدتي، السمن لدينا يكفي ليومين عندئذ تخرج أصغري الدفتر وتنظر فيه، وفي أي تاريخ اشترت السمن، وكم يوم ما تم استهلاكه فيه، وكانت تؤاخذ، ديانت النساء على استهلاكه، ولم يكن هناك مجال للتبذير في أي شئ وأن يترك بلا حساب، بل إنها كانت تكتب في الدفتر حساب طحن الدقيق وغسل الملابس.

(٢٢)

أصغري تمنع زوجها من اللعب وتوجه اهتمامه إلى التعليم

عندما انتظم كل شئ في المنزل وتم ترتيب الأمور بشكل طبيعي وجهت أصغري اهتمامها إلى أعمال أخرى، ومنها أن محمد كامل كان يدرس ولكنه بسبب سوء تدبيره وعدم رغبته في العلم كان يتعلم كطالب حر، وكان والده يعيش بالخارج، ومع أن محمد عاقل أخوه الأكبر ولكن كان الفرق بين الأخوين الأكبر والأصغر عام ونصف فقط، ولذا كان تأثيره على محمد كامل ضعيفاً، بل كان منعدماً، فكان محمد كامل يتلقى دروسه في الصباح والمساء أيضاً ويلعب مع أصدقائه وأقرانه الشطرنج، وفي بعض المرات يستغرقه اللعب فيعود للمنزل متأخراً في الليل، وكانت أصغري تعلم بهذا الحال ولكنها كانت تتحين الفرصة المناسبة لكي تتحدث إليه بهدوء دون أن تغضبه وتكدر خاطره، وذات يوم عاد محمد كامل متأخراً جداً وكان سعيداً مسروراً لعله كسب في اللعب، فطلب الطعام بمجرد وصوله، فأسرعت ديانت النساء لتسخين الإدام والطعام فظن محمد كامل أنها ما زالت تطبخ حتى الآن فتساءل : ما زال قدرك يا ديانت النساء لم ينزل من على الموقد حتى الآن.

قالت أصغري: لقد أنزلته ورفعته عدة مرات ولكنك تأخرت كثيراً على تناول الطعام فصار بارداً فعليك أن ترتب أمورك لتأتي مبكراً لتناول الطعام أو أن تتناوله في الخارج، إن أمك الحبيبة قد تعبت من انتظارك كل يوم.

محمد كامل: أنتم تنتظرونني! كنت أعلم أنكم قد تناولتم الطعام.

أصغري: حفظك الله، إنه ليس من المناسب أن تتناول النساء الطعام قبل الرجال.

محمد كامل: لو أن الأمر في يومين أو أربعة أيام فإنه يمكن تجاوزه، ولكن لا تفكروا في عدم رضائي فأنا أسمح لكم أن تتناولوا الطعام بكل سرور.

حينئذ صعدت أصغري إلى حجرتها في صمت وتبعها محمد كامل الذي تحدث إليها بود قائلاً : يا أصغري ما العجيب في حديثي فأنا لا أستطيع عمل شئ ضد رغبتكم، وأنتم تريدون منى أن أعير عاداتي وأن أعود مبكراً.

محمد كامل: أنا لا أفضل الخروج بعد تناول الطعام، وأنا متأخر ويضطرب قلبي كثيراً عندما أكون في البيت بلا عمل ولهذا السبب أتأخر عن عمد وأعود متأخراً فأتناول الطعام وأنام.

أصغري: أما العمل فهو من اختيارك، ويمكن للمرء أن يستغل وقته في آلاف الأعمال فهل هواية القراءة عمل بسيط؟ لقد كنت أشاهد أخي الكبير يقرأ في الكتاب حتى منتصف الليل، وكان يتأسف كثيراً في اليوم الذي ينام فيه مصادفة، أنت تعمل قليلاً ولهذا السبب يضيق قلبك ذرعاً من البطالة.

محمد كامل: وماذا أعمل؟ فأنا أدرس صباحا ومساء وأذاكر دروسي.

أصغري: لا أعلم كيف تدرس؟ ففي اليوم الذي كنا نحاسب عظمت على الدين سألك الوالد العزيز عن الدين فلم تستطع أن تخبره ولهذا شعرت بالخجل.

محمد كامل: الحساب تخصص آخر، وأنا أتعلم العربية فما علاقة اللغة العربية بالحساب؟

أصغري: إن هدف التعلم هو أن تنجز أي عمل في الدنيا دون تأخير، إن أخي الأكبر درس الفارسية كثيراً لكنه لم يحصل على وظيفة، فقال له الوالد لا تفكر في الوظيفة أبداً ما دمت لم تتعلم الحساب وأعمال المحاكم، والآن أخي مآل انديش يدرس في المدرسة وصار أذكي من أخي الأكبر في الحساب وقد سعد والدي به، وكان يقول لتتعلم في المدرسة لمدة عامين وسأجد لك وظيفة في أي مكان.

محمد كامل: هل الأمر متوقف على الالتحاق بالمدرسة، فليس بالمدينة معلمون هكذا.

اصغري: الوقت الذي تضيعه في اللعب استغله في الدراسة.

محمد كامل: ما اللعب، فهل أنا ألعب ليل نهار؟ أحياناً ألعب ساعة أو ساعتين.

أصغري: اللعب عادة مثل الأفيون، تبدأ صغيره ثم تكبر وعندئذ تكون عادة قبيحة ومن ثم تثير المشاكل، أولاً فهذا اللعب ذنب، وعلاوة على هذا فإنه يمنع الإنسان من تحصيل المعالي الأخرى، والجادون لا يلعبون قط، والعاطلون لا شك أنتم يقضون يومهم في اللعب هكذا، واللاعب الذي يفوز في تلك الألعاب يفرح ويسعد، والذي يخسر يتألم ويحزن والسعادة بهذه الطريقة تكون لا أساس لها كما أن الحزن أيضاً يكون

بلا وجه حق، وأكثر الذين يلعبون يتشاجرون فيما بينهم هباءً فتقبل نصيحتي وتوقف نهائياً عن تلك الألعاب، إن الناس لا يتكلمون أمامك ولكنهم يضحكون من وراءك ويتغامزون عليك، ولو جاء أحد ينادي عليك في المنزل تجيبه الخادمة من الداخل بأنه غادر المكان عندئذ يقول هذا المرء لمرافقيه على سبيل القدح، إنه مشي إلى بيت السيد حسيني وسيقابلونه هناك للعب الشطرنج، إن والدك العزيز اسمه معروف في المدينة، والناس يحترمونه، وذهابك لمثل هذا المكان يسئ إلى سمعته، وقد سمعت الوالد العزيز يتأسف لذلك ويقول هذا قدري! ليس هناك ابن من الابنين تسعد القلب رؤيته، إن محمد عاقل كان قد تعلم قليلاً والآن فقد أثرت وظيفته عليه حتى أنه نسي ما درسه، وهذا الابن الصغير لا تسنح له الفرصة بسبب اللعب، ولكن والدنا العزيز سيعلم حتماً من شخص ما، وكان قد سألني ولكني في ذلك القوت أدرت الكلام إلى موضوع آخر بطريقة ما.

لقد أثرت نصيحة أصغري في محمد كامل تأثيراً بالغاً حتى أنه ترك اللعب كلية وبدأ دراسة اللغة العربية بجدية أكثر من ذي قبل، وشرع في تعلم الحساب وغيره على يد مدرس خارج المدرسة، وبارك الله في وقته وواظب على دراسته وتحسن استعداده لتحصيل اللغة العربية في عدة أيام فقط، وصار قادراً على حل المسائل في كتب الحساب والرياضيات.

(٢٣)

افتتاح أصغري مدرسة للبنات

ظل محمد كامل مشغولاً من جانبه، وكانت أصغري تقوم في تلك الفترة بتسيير أمور المنزل وكان في هذا الحي رجل ثري ومشهور جداً هو حكيم روح الله خان، وكان حكيم روح الله نفسه يعمل في ديوان حكومة مهراجا (أمير) مدينة بتياله، ولكن منزله وجميع أولاده كانوا في هذا الحي، وكان لديه قصور ومنازل ومحلات وخدم وحرس، ويعد منزله من أعرق منازل المدينة وأقاربه ومعارفه أناس شرفاء لهم تقاليد متوارثة، وقد ظل فتح الله خان الأخ الأصغر لحكيم روح الله خان ذا سلطة كاملة ولمدة طويلة في حكومة والى ولاية أندور واقتضت المصلحة أن يعتزل العمل عندما رأى منشئ عمو جان يتدخل تدخلاً سافراً في شئون الحكومة، ولكنه كان يمتلك ملايين الروبيات في منزله فلم يأبه بالوظيفة وكان قد اشترى في المدينة عقارات بآلاف الروبيات، وكان عائد إيجارات هذه العقارات تقدر بمئات الآلاف من الروبيات، وكان يعيش في عز وأبهة، وعساكر الحرس على دهاليز منزله، وثلاثون أو أربعون خادماً في داخل المنزل وخارجه وتوجد لديه الخيول والأفيال والمحفة وعربة بأربع عجلات يجرها حصان للركوب، وكان لفتح الله خان بنتان هما: جمال آرا وحسن آرا، وكانت جمال آرا قد تزوجت بابن نواب اسفنديارخان ولكنها انفصلت عنه في نهاية الأمر لعدم التفاهم بينهما، ولكن لم يقع الطلاق ـ لا قدر الله ـ ولم يبق بينهما صلة بأي شكل من الأشكال وعادت إلى منزل أبيها بجميع جهازها، وكانت حسن آرا قد خطبت في أسرة نواب جهجر، وكانت لتلك الفتاتين خالة تسمى شاه زماني بيجم تعيش في نفس الحي الذي كانت تعيش فيه أصغري، وقد عمت شهرة كفاءة أصغري في هذا الحي، وكانت شاه زماني بيجم أيضاً واقفة تماماً على أحوال أصغري وقد شاهدتهما عدة مرات في حفلات الزواج، وقد جاءت شاه زماني بيجم من أجل مقابلة أختها الصغرى والدة حسن آرا، وطبقاً لقوانين الدنيا وأعرافها لا يوجد أي فرد من البشر خالي من الألم وهذا الأمر ليس من جانب الله تعالى، فلو أن المرء يشعر بالسعادة من كل جانب فإنه ينسي الله ولا يذكره ولا يعتبر نفسه عبداً، لقد كانت جميع سبل العيش في الدنيا متيسرة لسلطانة الأخب الصغرى لشاه زماني بيجم، ولكنها ظلت مكدرة الخاطر وحزينة بسبب أولادها، فمن ناحية جمال آرا فإنها بعد الاحتفال بليلة زفافها عادت إلى بيت أبيها غاضبة، ومن ناحية حسن آرا فقد كانت تثير المتاعب بسبب مزاجها المتقلب، فالجميع في بيتها كانوا يشتكون منها، فلا تراعي الأم، ولا تتأدب مع حماها، ولا تهاب الأب والخدم باكون

منها، والجواري يطلبن الانفصال عنها، وخلاصة القول أن حسن آرا أحدثت ضجة هائلة في سائر أرجاء المنزل، وكانت شاه زماني بيجم تهدف بمجيئها إليها أن تمكث مع حسن آرا ساعة أو ساعتين في هدوء باعتبارها خالتها الكبرى، ولكن هيهات لها فما أن نزلت شاه زماني بيجم من العربة حتى بدأ ينبعث الصراخ والعويل فجاءت إليها نرجس باكية وتقول انظري يا سيدتي إن الابنة الصغرى مزقت طرحتي الجديدة إرباً فمن يصلحها لي الآن؟ وصاحت سوسن قائلة: سيدتي إن الابنة الصغرى قد خدشت خدي، وصاحت جلاب بلبل قائلة: إنها أسالت الدماء من أذني، وصرخت المرضعة قائلة: انظري كيف ضربت ابنتي المسكينة بعصي بهذه القوة حتى أحدثت إصابات وتركت كدمات في ساعدها وانبعثت استغاثة من الخادمة في المطبخ قائلة: بالله عليك أن تفهميها بألاتنثر الرماد على قدور الطعام، نادت شاه زماني بيجم: تعالى هنا يا حسن.

جاءت حسن آرا بعد أن عرفت صوت خالتها، ولكنها لم تسلم عليها ولم تدعو لها، في يديها رماد وفي قدميها وحل وعانقت خالتها وهي على هذه الحالة. فقالت الخالة: لقد حل الجنون بك.

قالت حسن آرا: إن سنبل الغولة تشاجرت معي، وبعد أن قالت هذا الكلام، تركت حضن خالتها وجذبت سنبل من رأسها وحاولت الخالة منع ابنة أختها ولكنها لم ترعوي خاطبت شاه زماني بيجم أختها قائلة: بالله عليك يا أختي سلطانة عليك أن تأتي بمدرسة لهذه البنت.

سلطانة بيجم: ماذا أفعل يا أختي الكبيرة. إنني أبحث منذ شهور عن مدرسة ولم أعثر عليها شاه زماني بيجم: كيف هذا يا أختاه؟ كيف تقولين هذا القول؟ أتبحثي في المدينة بأسرها وتوجد بجوارك وفي نفس حيك مدرسة أفضل من ألاف المدرسات وهي زوجة ابن محمد فاضل الصغير.

سلطانة: لا أعلم بها حتى اليوم، انظري سأرسل لها شخص الآن، وبعد أن قالت هذا الكلام نادت على مدبرة منزلها وقالت لها: يا ماني جي، هل السيد محمد فاضل يسكن في هذا الحي؟

إن "باجي أمان" تقول أن زوجة ابنة الصغير متعلمة جداً، فانظري إن وافقت على وظيفة مدرسة فأخبريها أننا مستعدون لدفع عشر روبيات شهرياً بخلاف الطعام والملابس ونفقات التنبول، وعندما تختم البنت الجزء الأول من القرآن وتتعلم قواعد الأدب فإننا سنمنح حضرت المدرسة هدية علاوة على الراتب.

أتت "ما ني جي" إلى منزل محمد فاضل، وسلمت على والدة محمد كامل وسألتها: حسناً يا سيدتي هل أنت زوجة السيد محمد فاضل؟

ديانت النساء: نعم. هي، تفضلي بالجلوس، من أين أتيت؟

ما ني جي: أين زوجة ابنك الصغير؟

والدة محمد كامل: في غرفتها.

ما ني جي: سأصعد إليها.

ديانت النساء: أنا سأخبرها وستأتي الزوجة هنا.

ما ني جي: جئت من قبل منزل السيد حكيم.

سألتها والدة محمد كامل عن أحوال جميع أفراد العائلة الكبار والصغار اسماً باسم وقالت لماني:

ماذا تطلبين من تميز دار؟

ما ني جي: جئت لهذا البيت لأقول لها.

و كان قد حان وقت نزول تميز دار إلى باحة المنزل لأن أصغري تنزل إلى أسفل بعد أداء صلاة العصر، وتصلي صلاتي المغرب والعشاء في الطابق الأول، وما أن رأت ماني جي أصغري حتى قالت لها عن وظيفة المدرسة وأن عليها التفكير في ذلك، وفي معرض الحديث قالت لها إن السيدة سلطانة بيجم وافقت على أن تتولى تعليم ابنتها الصغرى وأن السيدة شاه زماني بيجم قد حكت لها عنك ومن ثم أرسلتني السيدة سلطانة إليك.

أصغري: بلغي سلامي الحار إلى السيدتين، وقولي لهما إن كل ما أعرفه قليل أو كثير لن أضن به عليهما بأي صورة، فالإنسان يتعلم لكي يفيد الآخرين، ولعل السيدة شاه زماني بيجم تعلم أن العديد من البنات يتلقين التعليم في بيتي، وأود من أعماق قلبي أن أدرس لبنت السيدة سلطانة، ولكن ماذا أفعل فلا السيدة سلطانة سترسل ابنتها هنا ولا أنا أستطيع الذهاب إلى منزلها.

لم تكن ما ني جي قد ذكرت لها الراتب بعد، ولكنها قالت لها بصوت خاشع إن السيدة سلطانة مستعدة لتحمل جميع النفقات.

أصغري: هذا كله من كرمها وهذا كلام جميل يليق بها، ولكننا نحن الفقراء نعيش تحت رعايتها، والله تعالى لم يتركنا جوعي وعرايا، وأنا

أستطيع أن أدرس لها دون مقابل، ولو أنها تحتاج إلى مدرسة براتب فستجد في المدينة مدرسات كثيرات.

بعد ذلك سألت ماني جي عن أحوال أصغري وعندما علمت أنها ابنة للمأمور وأن محمد فاضل يتقاضى من وظيفته خمسين روبية في الشهر ندمت ماني جي لأنها أشارت إلى الوظيفة بغير وجه حق، ولكن بعد أن استمعت إلى حديث أصغري ولهت ماني جي بها وكانت قد رأت في بيتها كل ملامح بيوت الأمراء، ولكنها بهتت بعد سماع كلمات أصغري الفصيحة والرقيقة، واعتذرت إليها قائلة: فلتصفحي عني يا سيدتي.

أصغري: لماذا تشعرينني بالذنب؟ أولاً فهي وظيفة، والوظيفة في بيت السيد حكيم لا عيب فيها ولا ذنب ولو سألتني بسبب عدم معرفتك فلا بأس في ذلك.

المهم أن ماني جي ودعتهم وعندما وصلت إلى بيت مخدومتها قالت: سيدتي إن المدرسة حقاً أفضل من آلاف المدرسات، ومن يري محياها يصبح إنساناً آخر، ومن يجلس بالقرب منها يتلقى الإنسانية، ومن يقع عليه ظلها يتعلم الفصاحة، ومن يهب عليه الهواء من طرفها يتعلم الأدب، ولكنها ليست من طلاب الوظيفة فهي ابنة مأمور، وزوجة ابن قائم مقام أمير لاهور، ولديها خادمة في المنزل، والرواق مفروش بمفارش فضية مثبت عليها تكايا، وترتدي فاخر الثياب وتحيا حياة سعيدة ولا تحفل بالوظيفة.

قالت شاه زماني بيجم: هذا الكلام صادق يا أختى سلطانة، لقد أرسلتني ماني جي إليها ولكني أكن متأكدة أنها ستقبل الوظيفة.

ماني جي: لكنها إنسانة رائعة، ورضيت بالتدريس مجاناً بكل سرور.

سألت سلطانة: وهل تأتي إلى هنا؟

ماني جي: حسنا يا سيدتي، كيف تأتي إلى هنا وهي لا ترغب في الوظيفة.

سلطانة: هل تذهب إليها البنت؟

شاه زماني: أي عيب في ذلك؟ إن منزلها بعيد عن هنا مسافة قدمين، وماذا تظنين في السيد محمد فاضل، إنه ابن أخت عمة على تقي خان.

سلطانة: حسناً بهذه الحسبة فهو من عائلتنا.

شاه زماني: لا سمح الله هو إنسان بسيط، وكان يشغل وظيفة محترمة لكنه عندما تشاجر مع الأمير أصبح فقيراً، ومع ذلك فعنده خادمة دائماً وعلى بابه حارسان.

سلطانة: على كل حال ستذهب إليها حسن آرا هناك.

و في اليوم التالي توجهت الأختان شاه زماني وسلطانة وفي صحبتهن حسن آرا، و معا أن أثث منزل أصغري متواضع ولكن السيدتين امتدحناه وأثنيا عليه بسبب ذوقه الرفيع وترتيبه المنظم، وكان كل شئ موجوداً أمامهم، العطور بأنواع مختلفة، والمكسرات والحبهان وجميع لوازم الشاي كل شئ كان موجوداً عندها، وأعدت لهن التنبول اللذيذ.

قالت الأختان لأصغري : من فضلك أن تعلمي حسن آرا بإخلاص.

أصغري: أولاً أنا ما أوتيت من العلم إلا قليلاً، ولكن ذلك القليل الذي تلقيته بعناية عن الكبار لن أتواني – إن شاء الله – في تعلميه إياها بقدر الإمكان.

و عند الانصراف أعطت السيدة سلطانة بيجم أصغري ديناراً أشرفياً.

أصغري: لا ضرورة لهذا ولا يمكن لي أن آخذ منك مقابل تعليمها.

سلطانة: استغفر الله هذا ليس تعويضاً بل هذا لحلوى البداية "بسم الله" .

أصغري: نحن نوزع الحلوى في البداية على سبيل التبرك بربع دينار أشرفي، ويكفي لإطعام الأطفال الحلوى كيلو أو كيلو ونصف من الحلوى، وبعد أن قالت هذا أشارت إلى ديانت النساء، أن تحضر طبق ملىء بالحلوى من حجرتها، ثم قرأت أصغري الفاتحة بنفسها وأعطت الحلوى لحسن آرا ثم رفعت الطبق وأعطته لديانت النساء لتوزعه على جميع الأطفال،فقالت سلطانة: لقد شعرت بالخجل منك.

أصغري: أي شئ لائق بنا نحن المساكين، ولكن ما عندي سوف أبذله لها لكي تتعلم حسن آرا، وعندما يتحقق ذلك – بفضل الله – سأكون فرحة مسرورة.

المهم أن أصغري أعطت الأختان شاه زماني بيجم وسلطانة بيجم الدينار قبل انصرافهن وقد سلما حسن آرا لأصغري.

(٢٤)

منهج التعليم في مدرسة أصغري

المنهج الذي اتبعته أصغري في تعليم حسن آرا سأقوم بتأليف كتابا منفصلاً حوله لأنني لو كتبت كل ذلك المنهج هنا يتضاعف حجم هذا الكتاب[١]، وكل ما يعنينا في هذا المقام أنه بمجرد أن ذهبت حسن آرا إلى أصغري تهافت عليها جموع أهل الحي، وكل من رآها أرسل إليها ابنته، ولكن أصغري اختارت بنات الأشراف فقط ورفضت الباقين بطريقة مهذبة حيث قالت: أنا أذهب إلى بيت أمي في أغلب الأيام، وأنه لا فائدة من التعليم ما لم يكن يتم بطريقة نظامية، ورغم ذلك كان يجلس عندها عشرون بنتاً، ولكن أصغري كانت قد أقسمت على ألا تأخذ نقوداً من أي بنت، بل إنها أنفقت روبيتين على بنات مدرستها وكان التدريس يبدأ من الصباح حتى الظهر ثم فسحة للطعام أربع ساعات ثم يدرس بعد ذلك بقية اليوم حتى وقت الغروب، وكانت تعلمهن الخياطة ولم تكن الخياطة فحسب، بل جميع أنواع التطريز والخياطة وكل أنواع التفصيل وإعداد التوابل وخياطة الأزرار، وفي بداية الأمر أنفقت أصغري عشر روبيات على شراء المواد الخام لتعليمهن، ولكنها بعد ذلك بدأت توفر وتربح من هذه الأعمال فكان كل ما تصنعنه البنات تعطيه لديانت النساء في صمت لتبيعه في السوق وبهذه الطريقة كانت توفر للمدرسة تدريجياً مبلغاً كبيراً من المال وبالتالي كانوا يعدون للبنت الفقيرة ملابسها من هذا المال، وأشترت كتاب "مول" لتعليم الطهي، وأتت البنات بخادمة خاصة لتحريك المروحة وسقاية الماء، وكانت تتلقى راتبها من مال المدرسة، وبالنسبة لأحوال البنات اللاتي كن يذهبن عند مدرسات أخريات كانت أنفسهن تتقطع خوفا ورعباً منهن، ولكن تلميذات أصغري كن يعشقنها حيث تبدأ البنات في التوافد عليها تلقائياً وهي لم تستيقظ من نومها بعد ويمكثن عندها حتى وقت متأخر من الليل ويتركنها بصعوبة ولهذا السبب أحبتهم أصغري وكانت تدرس لهم بطريقة جيدة وتعلمهن كل الأمور فأصبحن كالمغزل الذي يدور من الصباح ولا يتوقف حتى غروب النهار، وكانت أصغرى تعلم تلميذات بنفس المنهج الذى علمها إياه والدها، وكانت تعتبر هؤلاء التلميذات صديقات لها وعندما تتزوج أي بنت كانت تشتري لها بعض الحلي من نقود المدرسة وتهديها لها، ولو أرادت أصغري أن توسع مدرستها لصارت جميع مدارس المدينة خاوية على عروشها ولقامت مئات الأمهات بالتودد إليها لقبول بناتهن عندها، ولكانت البنات أنفسهن يسارعن إليها لأنهن يمكثن في المدارس الأخرى طوال اليوم تحت القيود الصادمة للمدرسات، فالتعليم قليل والضرب كثير والأعمال تتزايد ولا يتعلمن طوال اليوم سوي كلمة أو كلمتين، والضرب أمر معتاد صباحاً ومساء ومن تصمت ويقع نظر المدرسة عليها تحل بها

[١] الكلام للمؤلف.

الشدائد، ولو سألت عن الأعمال اللاتي يقمن بها فإنهن يكنسن المنزل بمجرد قدومهن في الصباح، ويقمن بفرش أسرة المدرسة والمدرس والأولاد وحتى الجيران، وتجتمع أربعة من البنات التعيسات لكي يحملن الأسرة الثقيلة وإذا حدثت مصيبة ووقع السرير على إحداهن فإنها تتألم ولا تبكي لأنه لو حدث وصرخت فإن المدرسة تعاقبها عقابا شديداً فليس أما مها غير حفظ القرآن وعدم الشكوى، وكانت إحدى البنات تحمل ابن المدرسة وكان ظهرها ينوء من ثقله، ولكنها تتحمل خوفاً من أن تضربها، وفي ذلك الوقت كانت صرخات البنات المضروبات تصل إلى الآذان، فالبنات يفضلن عذاب العمل على مصيبة الضرب فيبدأن في تنظيف الأواني التي استعملت بالأمس حتى يتعب كاهلهن، وكانت المدرسة تضرب الأخت الصغرى لها فتصيح وتتوسل إليها قائلة: حسناً يا أستاذتي العزيزة مت من الضرب! حسناً أنا ربيبتك! من أجل الله! ومن أجل الرسول! أنا جارية للنائبة! آه وأماه! وبعد أن ينتهين من تلك الأعمال يقمن بطحن التوابل وعجن الدقيق، وإشعال النار عندما يحين الوقت لقلى اللحم ثم تنام المدرسة فى الظهيرة وتظل التلميذات الصغيرات يحركن المروحة ويدعون من قلوبهن: اللهم لا تنهض من نومها هذا مرة ثانية.

المهم أنه لم يكن في مدرسة أصغري الضرب المعتاد والسكوت عليه والخوف من أن تقع نظر المدرسة على التلميذات وعند الاستفسار عن حفظ الدروس كانت أصغري في الصباح تقول لأي بنت أنت لم تحفظي الدرس وستسوء سمعة مدرستنا بسببك، وسوف أستدعي أمك وأقول لها سيدتي لا مكان لابنتك، وعليك أن تلحقيها عند مدرسة أخرى، وما أن تقول هذا حتى تنقطع أنفاس التلميذة خوفاً ومن ثم تقبل على حفظ الدرس، ومن لم تستذكر دروسها تقول لها: أختاه أنت لم تحفظى الدرس اليوم وستقوم التلميذات الأخريات بالخياطة وقت الظهر وعليك أن تستذكري دروسك، وبهذا القول كانت تحفظ الدرس بسرعة فائقة، وكانت كل من محمودة وحسن آرا ينوبان عن أصغري في المدرسة، فلا يوجد في هذه المدرسة كنس، ولا فرش للأسرة، ولا حملها ولا غسل للأسرة ولا تنظيف الأواني، ولا حمل لأولاد المدرسة بل كانت هناك سيدة تقوم على خدمة التلميذات، فيدرسن بمحبة وسلام ويقرأن ويتعلمن الخياطة بشوق ورغبة، وأذكر هنا في هذا المكان حكاية عن هذه المدرسة سيتضح منها منهج أصغري في التعليم بشكل مختصر.

(٢٥)

حكاية ممتعة متعلقة بإدارة المدرسة

كانت "سيفهن" سيدة لها بنت تدعي "فضيلت" عمرها عشر سنوات، وكان لفضيلت هذه شوق ورغبة فطرية في التعليم والخياطة، ولكن سيفهن كانت تريد من فضيلت أن تكنس البيت كله، وتنظف الأوعية المتسخة وتلمعها، ولكن لم يكن قلب فضيلت يرغب في مثل هذه الأعمال وقد أصرت الأم على رأيها ولكن فضيلت ظلت على عنادها معها، وذات يوم اصطحبت سيفهن فضيلت وذهبت على كرة منها لكي تلحقها في مدرسة أصغري، وقالت : أيتها المعلمة المحترمة هذه البنت عاطلة وعديمة النفع، وكلما كلفتها بعمل ما نجيب على باختصار، فعليك أن تلقنيها الأدب حتى يبدأ قلبها يميل إلى أعمال البيت، فرأت أصغري أنها وجدت في فضيلت ضالتها ومن ناحية أخرى- وجدت فضيلت المعلمة كما تمنت فكانت تأتي إليها في الصباح الباكر ثم تذهب إلى بيتها لتناول طعام الغذاء، وبعد تناول الطعام تهرع مسرعة حاملة الماء معها لتشربه في المدرسة وهي تأتي إليها في وقت العصر وتعود لبيتها في الساعة الرابعة ليلاً، وكانت سيفهن تأتي إليها أحياناً لتطمئن عليها وقد رأتها عدة مرات تلعب لعبة العرائس مع زميلاتها وذات يوم تأخرت فضيلت في العودة حتى الساعة الرابعة ليلاً فجاءت سيفهن لتأخذها فرأت محمودة تقص عليهن الحكايات وحولها جميع تلميذات المدرسة وكانت المعلمة نفسها جالسة بين التلميذات تستمع إلى الحكايات فاحترق قلب سيفهن غضباً لرؤية ذلك وقالت: مرحي أيتها المعلمة المحترمة لقد أفسدتم البنات فما من مرة جئت فيها لرؤية فضيلت ووجدتها تتعلم قط، فهل هذه مدرسة أم ملعب تأتي إليه البنات لتجرين فيه.

لم تستحسن جميع التلميذات هذا الكلام من سيفهن، وخاصة ابنتها فضيلت ولكن لم تجب واحدة منهن عليها احتراماً للمعلمة أصغري وفي النهاية قالت المعلمة: لو أن ابنتك لم تتعلم وفقاً لرغبتك فلك الخيار في أن تأخذي ابنتك من المدرسة، ولكن لا تسيئ بغير وجه حق إلى المدرسة، وأسألك أولاً كم يوماً درست فيه فضيلت في مدرسة "مائى جي"؟

قالت سفيهن : لقد ظلت تتعلم على يد خواجه معين الدين من هلال ربيع الثاني حتى جمادى الثاني وجاءت عند كم في شهر رجب.

سألت أصغري: ماذا درست فضيلت عندما مائى جي؟

قالت سفيهن: حفظت في ثلاثة شهور جزءاً ونصف جزء من القرآن من و"المحصنات" حتى قوله تعالى "لا يحب الله الجهر بالسوء".

قالت أصغري: حفظت جزءاً ونصف جزء من القرآن في ثلاثة أشهر أي نصف جزء في الشهر، إن ابنتك فضيلت في هذه المدرسة منذ شهر رجب وحتى هلال شهر ذي القعدة أي مر عليها أربعة أشهر وقد ختمت أمس حتى قوله تعالى: " وما أبرئ نفسي" أي أنها قرأت حتى الجزء الثالث عشر ولو حسبنا ذلك نجد أنها تعلمت جزءاً من القرآن تقريباً في كل شهر أي ضعف ما تعلمته في مدرسة مائي جي فضلاً عن هذا أنه عندما جاءت فضيلت هنا لم تكن تعرف أن تخط خطاً أسود ولا أن تكتب اسمها، أما الآن فهي تكتب اسمها ولم تكن تعرف الحروف الهجائية ولا تعرف أن تكمل العدد حتى عشرين، والآن حفظت جدول الضرب حتى خمسة عشر، ولم تكن تعرف الخياطة، والآن انظري إلى ما صنعته يدها، أحضري يا عقيلة قليلاً مما خاطته فضيلت من الصندوق وأريه إياها، وما قامت به فضيلت من جميع أنواع التطريز.

قالت فضيلت: سأذهب لأحضرها يا معلمتي العزيزة "و هرعت" فضيلت بسرعة وأنت بما طرزته ووشته، وقد بهتت سيفهن بعد أن سمعت عشرة إجابات لسؤال واحد.

قالت أصغري: أختناه قولي بعض الإنصاف هل من الممكن أن تتعلم ابنتك في أربعة أشهر أكثر من هذا؟

تصببت سيفهن عرقاً من الخجل، ولن تستطيع الآن أن ترفع عينيها أمام المعلمة، وقد توقفت محمودة عن حكايتها المسلية بسبب مجئ سيفهن سيئة الحظ، وبدأت كل التلميذات ينظرن تجاهها ويحملقن فيها مشدوهين، فقالت سيفهن : أيتها المعلمة كنت قد علمت أن فضيلت تظل هنا طوال اليوم، وتعود متأخرة هكذا في الليل فتتناول الطعام وتنام وليست هناك فرصة للإجابة على سؤالي وقد صادف لي المرات العديدة التي جئت فيها إليها أنها كانت تلعب لعبة العرائس أحياناً، أو تقفز وتمرح هنا وهناك أحياناً أخرى، وأحياناً تستمع إلى الحكايات فظننت بسبب ذلك أنها تضيع وقتها في اللعب والقفز فأرجو أن تسامحيني على ما بدر مني من كلام.

أصغري: لا شك أن شكك لم يكن في محله، ولكنني أعلمهن تلك الأمور النافعة في اللعب وأنا أعلم التلميذات إعداد جميع أنواع الطعام من خلال اللعب بالعرائس وكذلك مقدار التوابل وكمية الملح، ومعرفة

تذوق الطعام ويكتسبن الخبرة من ذلك، فماذا فعلت يا فضيلت الجمعة الماضية؟ وما كمية طعام الزردة (الأرز الأصفر) التي طبختيها مع البنات؟ عليك أن تخبرينا بالمقادير والمصروفات.

قالت فضيلت: بالنسبة للمصروفات فقد دونتها محمودة في دفترها، أما المقادير فقد قمت بمراعاتها ومتابعتها جيداً طبقاً لأوامرك، وقد استوعبتها بطريقة جيدة، وكانت المقادير عبارة عن كيلو كامل من الأرز يوضع في قدر كبير واشترينا أعواد من توابل "هار سنجهار" ببيسة واحدة، وحوالي لتر ونصف من الماء وعندما وصل الماء إلى درجة الغليان وتغير لونه قمنا بتصفيته ووضعنا الأرز في هذه العصارة حتى نضج قليلاً (أي نصف نضوج) ثم وضعنا الأرز على القماش حتى امتص جميع الماء منه، ثم وضعنا مائة وخمسة وعشرين جراماً من السمن في القدر ثم أضفنا إليه حبات القرنقل وقلبناه ثم وضعنا الأرز عليه ثم وضعنا وزنا من السكر مماثلاً للأرز والماء المناسب الذي يكفي لنضج الأرز ووضعنا الزبيب في السمن ثم وضعناه على الأرز ووضعنا القدر على النار حتى نضج تماماً.

أصغري: أما المقادير فهي صحيحة، ولكن الأرز الذي رأيته قد نضج كثيراً لأنك لم تغسليه بالماء البارد بعد نشره على القماش. ثم خاطبت أصغري سيفهن قائلة: لماذا يا أختاه طبخت ابنتك الأرز الأصفر بطريقة جيدة؟ إن كل هذا بسبب لعبة العرائس فأخبرينا يا أخت محمودة بتكاليف طهي الأرز الأصفر.

أحضرت محمودة دفتر الحساب وقالت: أيتها المعلمة المحترمة اشترينا ستة كيلو من الأرز بثلاثة آنات إلا الربع، أعواد توابل "هار سنجهار" والقرنفل ببيسة واحدة، واثنان كيلو سمن، واشترينا ربع كيلو سمن أيضاً وضعناه عند القلي، وفي أثناء الطهي وضعها زبيب على الأرز والسمن بآنه ونصف، والسكر بأربع آنات، وزبيب ببيسة واحدة، وإجمالي المصروفات اثنتا عشرة آنة إلا الربع، واشتركت جميع التلميذات فى طهى الطعام فى المصروفات أيضاً، فدفعت أنا آنتين إلا الربع، وفضيلت آنه، وعقيلة آنتين، وحسن آرا ثلاث آنات، وأمة الله دفعت أربع آنات، وعالية خمس آنات، وسلمي ست آنات، ودفعت أم البنين سبع آنات، والأختان شكيلة وجميلة دفعتا تسع آنات.

أصغري: لقد أخطأت في الحساب يا محمودة.

فكرت محمودة ثم قالت: نعم، يا معلمتي لقد بقي بعض النقود من ثمن الأرز ولكن البقال الخائن قد اختلسها، وقد حصلنا على أعواد توابل الهار سنجهار والقرنغل بثمن رخيص ووفرنا بذلك بيسة. اذهبي يا ديانت النساء وأحضري الباقي من البقال.

أصغري: ماذا حدث لك؟ إن مسألة تعاملك مع الباقي أمر قديم، والآن لم تقولي شيئاً، وبسبب خطأك حدث نقص في الحساب، وخاطبت أصغري حسن آرا قائلة: عرفتم الآن مقادير طهي "الزرده" وتكاليفها، حسناً ماذا فعلتم بالقدر الملئ بالزردة؟

حسن آرا: قمنا بملئ طبقين متوسطين من الزردة وأرسلناهما إلى المسجد في سبيل الله، وملأنا بالباقي ثلاثة عشر طبق لأننا خمسة وعشرون بنتاً في المدرسة، كل اثنتين في طبق واحد، وأنا الوحيدة التي كان لي طبق بمفردي.

أصغري: هل أخذت نصيب مضاعف؟

حسن آرا: لا، كان طبقي نصف طبق واسألي الجميع.

أصغري: لماذا افترقتي عن إخوتك؟

صمتت حسن آرا وقالت أمة الله: إنها يا معلمتي تأنف من تناول الطعام مع الجميع.

حسن آرا: يا معلمتي الأمر ليس أمر أنفة أو كرامة، لقد أتيت إلى المائدة متأخرة فبقيت بمفردي ويمكنك أن تسألي محمودة.

أمة الله: لماذا رفضتي أن تشربي سؤر مائي الآن منذ لخظات قليلة؟

حسن آرا: لقد غضبت لأنني قلت على المرء أن يأخذ من الماء بقدر عطشه وأن ترك سؤر الماء في القدح بعد الشرب يعد عيباً.

ثم سألت أصغري محمودة: هل طبختم جميع الوجبات المذكورة في كتاب "خوان نعمت" الذي أعطيته لك أم لا؟

بعد فترة من التفكير قالت محمودة: على قدر فتى فقد انتهينا من طبخ جميع الوصفات بل طبخنا هذه الوجبات أكثر من مرة، وإن البنات الكبار يعرفن الآن طهى جميع وصفات الطعام اليومي المعتاد علاوة على جميع أنواع الكباب ويفضلون الكباب الشامي، والكفته، والأرز العادي والأرز باللحم (قورمه)، والبرياني، ونور محلي والأرز الأصفر (زرده) وسموسة الحلوة والمالحة، وقلمي بري، وغيرها من أنواع الحلوى مثل: حلوى

التمر، وبوراني وفيريني وحلوى سوهن وغيرها وقد قمن بإعدادها مراراً. وأن جميع البنات كن يشاهدن الطهي بل وقمن بالطهي بأيديهن، ولكي تعلمي فقد تم ذلك في مدرستنا باسم لعبة العرائس، ولكننا نطبخ لأسرة خاصة كبيرة العدد، وأن حسن آرا تحب المربي والمخللات كثيراً، أما باقي البنات فلا يعرفن عن هذه الأشياء إلا القليل.

بعد ذلك قالت أصغري لسيفهن: لعلك عرفتي الآن يا أختاه فائدة لعبة الأرائس عندنا ولماذا ترجع بعض البنات إلى بيوتهن في وقت متأخر من الليل، وإذا حضرت غداً ستتشاهدي بنفسك لعبة العرائس، ولو مكثتي حتى المساء فإنك ستستمعين إلى حكايات مشوقة.

انصرفت جميع التلميذات، واقتربت سيفهن من أصغري وبدأت تقول لها:

بالله عليك أيتها المعلمة أرجو أن تسامحيني على أخطائي.

و في اليوم التالي جاءت سيفهن وعرضت عليها البنات ما صنعته من ملابس ومشغولات ومطرزات وما قمنا بتفصيلة وحياكته من الملابس الحريمى والرجالي، وقد عرضت أصغري عليها كل إنتاجهن وكانت سيفهن منبهته من رؤيتها، وبعد ذلك عرضت الفتيات لعبة العرائس وكن يستعملن في هذه اللعبة جميع أثاث البيت من الأسرة والكراسى والمفارش والملبوسات والبسط والسجاد وكذلك جميع الأواني وكل أنواع الزينة وكل موضوع في مكانة، وكانت العرائس مزينة وكأنها عروس حقيقية فى يوم جلوتها، وقد تجمع الضيوف وعندما شاهدت العرائس قالت أصغري لسيفهن: إننا نعلم البنات جميع المناسبات والعادات الاجتماعية عن طريق لعبة العرائس مثل، الزواج والخطوبة والولادة والفطام والصيام والختان والاحتفال بالأعياد كالمولد النبوي وغيرها من المناسبات الدينية والاجتماعية، أختي سيفهن إن البنات اللائى التحقن بالمدرسة منذ فترة طويلة مثل أم البنين أو أخت زوجي محمودة أو حسن آرا يعرفن أكثر من ابنتك لأنها التحقت بالمدرسة منذ أيام قليلة.

قالت سيفهن: استغفر الله، فلو أوكل إليهن الآن إدارة وترتيب أي منزل كبير فإنهن بمشيئة الله سيقمن بهذا العمل مثل أية امرأة مدربة وذات خبرة.

أصغرى: أنا لا أهتم بالتعليم فقط بل أعلمهن علاوة على القراءة والكتابة الأعمال الدنيوية التي سيتحملن مسئوليتها بعد أيام قلائل.

بعد أن قالت أصغري هذا الكلام نادت على حسن آرا وقالت لها: لقد رتبت المنزل لعرائسك جيداً ولكن يوجد هناك نقص فقط لأنك لم تهتمي بتلوين ملابس عرائسك، فلماذا لم تلونيها؟

حسن آرا: فيما يتعلق بالألوان فقد علمتني إياها محمودة كثيراً ولكني لم ألون الملابس بسبب كسلي.

أصغري: حسناً، أخبرينا بها.

حسن آرا: معلمتي، إن ألون موسم المطر هي: الأحمر والبرتقالي والرماني والوردي وغيرها، وألون موسم الشتاء هي: الأصفر والأحمر والعنابي والكاكي والكريزي والأسود والأزرق والوردي والزعفراني وغيرها، وألون موسم الصيف هي: البصلي والأبيض والقطني واللوزي والكافوري ولون زهرة الخشخاش والأصفر وغيرها، إن الألوان كثيرة ولكنني ذكرت الألوان التي ترتديها أكثر العرائس.

أصغري: لقد عددت كثيراً من أسماء الألوان، وعليك أن تخبرينا كيف تستخلصى هذه الألوان.

حسن آرا: ذكرت تلك الألوان التي استخرجتها بنفسي.

أصغري: أخبرينا كيف تأتي باللون الأحمر.

حسن آرا: اشتريت نوعاً من الأعشاب ذات ألوان غامقة ووضعتها في ماء يغلي جيداً وأضفت إليها حجر الشب ووضعت فوقها هذه الأعشاب وقلبتها حتى أعطتني اللون الأحمر ثم لونت به هذه الملابس.

أصغري: ألم تحصلي على أعشاب القند؟

حسن آرا: سوف تسقخرجى اللون الأحمر عندما تخلطي مسحوق حجر الشب بعد الغليان مع أزهار التيسو، فاللون الأحمر الجيد لا يلون بدون أعشاب القند ولو يفصل لون "البانات" بدلاً من "القند" فإنه يستخلص منه لون جيد سبحان الله ويمكن من خلال مزج اللونين السيطرة على جميع الألوان وإخضاعها وتلوين الملابس والحلوى والطعام ولون "مجنتن" الأصفر يلون ألوانا زاهية جداً، وكان والدي العزيز يطلب طهي الزردة (الأرز الأصفر) بلون "مجنتن" الأصفر فيكون لونها أفضل من الزعفران.

اضطربت أصغري وسألتها : يا حسن آرا، ألم تأكلي الأرز الملون بلون "مجنتن" الأصفر؟

حسن آرا: لم آكله ولكن لماذا يا أستاذتي؟ أليس هذا أمر سئ؟

أصغري هانم: نعم، يوجد سم في لون "مجنتن" الأصفر فاحذري ألا تضعي أي شئ منه على لسانك.

حسن آرا: لقد أكلت كثيراً من الطعام في الاحتفال بشهر محرم ملونة بـ "مجنتن" الأصفر.

أصغري هانم: ماذا حدث؟ إنه لم يلحق بك أي ضرر بسبب أن هناك مواداً أخرى أضيفت لهذه الأطعمة فأبطلت تأثير "مجنتن" الأصفر، ولكن عليك أن تعلمي أن فيها سم.

حسن آرا: إن الناس يأكلون الحلوى الملونة بـ" مجنتن" الأصفر.

أصغري هانم: إنهم يضرون بأنفسهم كثيراً فعندما يصل السم إلى نسبة معينة فمن المؤكد أنه سيؤثر عليهم.

و عندما حل المساء وضعت البنات الكتب وأدوات الخياطة جانباً لكي يلعبن طبقاً للعادة وجلسن لسماع القصص والألغاز فقالت أصغري لسيفهن لا تذكري هنا قصص العصافير لأنه يوجد كتاب للقصص والحكايات المشوقة وهو "منتخب الحكايات" وفيه أحسن القصص ويمكننا أن نستحلص العبرة من كل قصة، والآن سنسلي هؤلاء البنات بقصص وحكايات هذا الكتاب، فقصيها علينا بطريقة واضحة وأنا على استعداد لبيان معانيها، ولو أتيحت لي الفرصة فإنني أشير إلى العقد التي في ثنايا الحكايات وعليك أن تفهميها جيداً وأن تجيبي على كلامي فلو لم يكن صحيحاً سأخبرك بذلك، إن حل الألغاز ينمي عقولهن ويشحذ أذهانهن، ولكن عليك أن تجلسي معهن وتشاهديهن، لأن أم عالية استدعتني اليوم لأن ابنها مريض وقد تضرعت إلى كثيراً لاستدعائي، ولو لم أذهب سوف تستاء كما أن قلبي لا يطاوعني على ألاَّ أذهب.

سيفهن: حسناً، لقد سمعت أن ابنها لا يرضع اللبن منذ عدة أيام وأن المسكينة خائفة جداً، وندعو الله أن يشفي ويظل على قيد الحياة، ولقد رزقها الله تعالى طفلاً بعد شوق وانتظار لمدة عشر سنوات وأن هذا الطفل المولود لعالية ربما تستدعيك أيتها المعلمة لعلاجه.

أصغري: لا أفهم كثيراً في العلاج والتداوي ولكن هذا الولد قد مرض مرة من قبل بالجفاف ووضعت له مجموعة من الأعشاب فتعافي الولد بفضل الله تعالى وتم شفاؤه.

سيفهن: ما شاء الله أنت أيتها المعلمة طبيبة ممتازة.

أصغري: اذكري الله يا سيدتي إن منزلة الأطباء كبيرة وأني لمسكينة مثلي أن تكون حكيمة وكل ما في الأمر أنهم كانوا يعتنون عناية كبيرة بالأدوية والعلاج في بيت والدي وقد حفظت وأنا صغيرة أسماء بعض الأدوية وطريقة تركيبها وبهذه الطريقة عرفت استعمال عدداً من الأدوية كنت أصفها لهم عند الضرورة، وكانت النساء تأتين إلى لاستشارتي في علاج أطفالهن وعندما كنت أواجه مشكلة ما كنت أنصحهن بالذهاب للطبيب.

سيفهن: أيتها المعلمة إنك بلطف منك عرضت على نظام التعليم في مدرستك والله أن هذا لم يقلل من مكانتك، وأريد أن أنظر كيف تروي البنات الحكايات وكيف تعلميهن من خلال القصص.

أصغري: أختاه، أنا متأخرة ولكني سأعرض عليك هذا من أجلك، حسناً أيتها البنات من عليها الدور اليوم؟

محمودة: الدور على أمة الله ولكن اطلبي من فضيلت أن تروي الحكايات.

أصغرى: حسنا ارو لنا يا فضيلت بسرعة أية حكاية قصيرة من أى كتاب ترغبين فيه. شرعت فضيلت فى رواية الحكاية فقالت: كان هناك ملك.

أصغري: من هو الملك الذي تحكين عنه؟

فضيلت: كان اسمه "بهادر شاه" وكان ملك دهلي.

أصغري: أنت تروين هذه الحكاية وكأنهن يعرفن دهلي وبهادر شاه.

فضيلت: نطلق كلمة ملك على الحاكم.

أصغري: وهل كل مأمور حاكم؟

فضيلت: لا، المأمور حاكم وليس ملك بل موظف لدي الملك.

أصغري: لماذا ليس لنا حاكم؟

فضيلت: هو حاكم بالطبع، ولكن الملك أكبر حاكم ويحكم الجميع.

أصغري: من ملكنا؟

فصيلت: ليس لنا أي ملك منذ أن قبض الإنجليز على بهادر شاه ونفوه إلى رانجون.

ضحكت البنات جميعاً بعد أن سمعت هذا الكلام.

أصغري: أنت مخطئة جداً يا فضيلت، لقد قلت أنت بنفسك أن هناك حاكما كبيراً ويحكم الجميع وهو الملك، وأنت تعرضين أنه بعد أن قبض الإنجليز على بهادر شاه ونفوه إلى "كالي باني" صاروا هم الملوك أم لا؟

فضيلت: نعم، صاروا كذلك.

أصغري: حسناً، أخبرينا من ملكنا الآن؟

فضيلت: الإنجليز.

أصغري: هل الإنجليز اسم خاص بأحد الأشخاص؟

فضيلت: لا الإنجليز مئات الآلاف.

أصغري: هل جميع الإنجليز ملوك؟

فصيلت : ولما لا؟ فضحكت البنات بعد سماع هذا الكلام وأشارت أصغري إلى حسن آرا قائلة: أجيبي.

حسن آرا: يا معلمتي، ملكتنا هي الملكة فيكتوريا.

أصغري: رجل هو أم امرأة؟

حسن آرا: امرأة.

أصغري: أين تعيشين؟

حسن آرا: في لندن.

أصغري: أين لندن؟

حسن آرا: هي أكبر مدينة في بلاد الإنجليز.

أصغري: كم مساحتها؟

حسن آرا: قرأت في أحد الكتب أنها أربعة آلاف كوس.

أصغري: وكم طول الكوس؟

حسن آرا: أيتها المعلمة، يقولون أنه من هنا حتى مكان سلطان نظام الدين ثلاثة أكواس.

ضحكت محمودة بعد سماع هذا الكلام وقالت: يكون ١٧٦٠ متراً.

سألت أصغري محمودة: في المرة التي ذهبت فيها إلى "قطب مينار" وكنت معي ألم تري أنه كانت هناك أحجاراً مغروسة في الشارع من الناحية اليسرى وكان مكتوبا على تلك الأحجار شئ ما، فماذا كانت هذه الأحجار؟

محمودة: لقد فهمت بالتخمين أنها أحجار لقياس المسافات، ولكن كانت السيارة تسير مسرعة لدرجة أن عيني لم تقع على الأحجار ولم أتمكن جيداً من قراءة ما هو مكتوب عليها.

أصغري: لم تكن أحجار للأكواس، بل كانت أحجار الأميال، فالميل يكون نصف كوس وهناك حجر مغروس على مسافة كل ميل مكتوب عليه من هنا إلى دهلي كم ميل، وكذلك كم ميل إلى مكان منارة القطب، وبعد ذلك خاطبت أصغري حسن آرا، وسألتها: أين تقع لندن؟

حسن آرا: في الشمال.

أصغري: هل هي بلاد حارة أم باردة؟

حسن آرا: أنا لا أعرف.

محمودة: هي باردة جداً، إن الحر يقل كلما اتجهنا للشمال ويزيد الحر كلما اتجهنا للجنوب.

سيفهن: حسناً أيتها المعلمة، الملك يكون امرأة؟

أصغري: وما العجب في هذا الأمر؟

سيفهن: أليس هذا أمراً عجيباً؟ فماذا عساها أن تفعل المرأة؟

اصغري: تفعل المرأة ما يفعله الملك الرجل وتهتم برعاية شئون الرعية وإدارة البلاد.

سيفهن: إن ما تفعله المرأة ناقص، فالإنجليز يفعلون كل شئ ونصبوا المرأة ملكة اسمية.

أصغري: كل هؤلاء الإنجليز موظفون عند الملكة، ولكل واحد منهم عمل مستقل، ولكل واحد منهم ميوله المختلفة، ويظلون جميعاً مستعدون لأداء أعمالهم، وعندما يكون الرجل ملكاً لا يتحمل بمفرده مسئولية العالم بأسره على عاتقه بل يقوم الموظفون بأداء جميع الأعمال.

سيفهن: إن قلبي لا يقبل أن تقوم المرأة بأعمال الملكية.

أصغري: ألم تسمعي عن اسم ملكة "بهوبال".

سيفهن: لماذا لم أسمع؟ إن حماي نفسه كان موظفاً في بهوبال.

أصغري: إذن أدركت أن لملكة بهوبال مملكة صغيرة وأن الملكة فيكتوريا لديها مملكة كبيرة، ومثلما تنظم ملكة بهوبال أمور مملكتها الصغيرة، فإن الملكة فيكتوريا تدير مملكتها الواسعة، وحكومة بهوبال صغيرة وعدد الموظفين بها قليلون ويتلقون رواتب قليلة، أما حكومة الملكة فيكتوريا فهي حكومة عظيمة الشأن ويعمل بها ملايين من الموظفين ويتلقون رواتب كبيرة.

سيفهن: حسناً أليس للملكة زوج؟

أصغري: نعم، ولكن ليس للمرء حيلة في الموت فقد توفاه الله وصارت الملكة أرملة منذ عدة سنوات.

سيفهن: وهل للملكة أولاد؟

أصغري: نعم، حباها الله الأولاد والبنات والأحفاد جميعاً.

سيفهن: حسناً، لماذا لا تأتي هذه الملكة إلى هذه البلاد؟

أصغري: لديها هناك ملك واسع، ولا تسنح لها الفرصة بسبب الأعمال هناك، ويذهب الملوك لمقابلتها وهذا ليس أمرا سهلاً، ولكن ابنها الأوسط قادم هذه الأيام والاستعدادات تجري على قدم وساق لهذه الزيارة كما قرأت عن ذلك في الصحيفة.

سيفهن: حسناً، كيف تعرف الملكة بأخبار هذه البلاد وهي بعيدة عنها آلاف الأميال؟

أصغري: ولما لا تعرف؟ إن كل خبر صغير يصل إليها ليل نهار من خلال البريد والتلغراف ويرسلون آلاف الصحف إلى إنجلترا.

سيفهن: ألا يمكن رؤية الملكة؟

ماذا أقول لك لكن يمكنك بالطبع رؤية صورتها.

سيفهن: خيراً، أريني صورتها.

أصغري: أختاه هل أنت تمزحين ألم تري روبية؟

سيفهن: لقد رأيت الروبية.

أصغري: إن صورة المرأة المطبوعة عليها هي صورة الملكة، وتوجد صورة الملكة على طوابع البريد، ولدي صورة رائعة للملكة كان أحد

الإنجليز قد أعطاها لأبي. وقد أرسلها إلى، فاحضري صندوقي يا محمودة.

أخرجت أصغري الصورة من الصندوق وعرضتها عليها وشاهد جميع البنات صورة الملكة بشغف.

سيفهن: يا لها من صورة جميلة!

أصغري: لا شك أنها صورة الملكة ولكن انظري الغرق بينها وبين صورتها على الروبية، وهذه الصورة ليست مرسومة باليد، وهناك مرآة وتضع أمامها أدوات الزينة وكأنها صورة منعكسة.

سيفهن: صورة الملكة جميلة جداً.

أصغري: أنت الآن تري صورة الملكة وهي صغيرة ولكن عمرها الآن صار أكبر بسبب مشاغل إدارة دفة الحكم ومتاعب الزواج، حسناً لقد رأيت صورة الملكة ذلك الحين عندما كانت متزوجة حديثاً وكانت بلا أدني مبالغة مثل البدر في تمامه.

سيفهن: أيتها المعلمة، لماذا لم يجلس الابن الأكبر على العرش بعد وفاة الأب وجلست الملكة؟

أصغري: لم ترث الملكة هذا العرش عن زوجها بل عن عمها وقد تزوجت الملكة بعد جلوسها على العرش.

سيفهن: ولماذا لا يقولون الآن على زوج الملكة أنه ملك؟

أصغري: لا، ولكنه كان من العائلة الملكية.

سيفهن: كما استقر في ذهني فما للمرأة بإدارة شئون الدولة.

أصغري: لماذا تثرثرين وتتحدثين بلغو الحديث، عليك أن تعتبري الملكة امرأة مثلك ومثلي، فأي عجب في هذا، فالنساء اللآتي يرفعن الله درجات يمنحهم كذلك العقل والشجاعة، فلا كل النساء متساويات ولا كل الرجال على وتيرة واحدة فهل تفكرين في أن الملكة تنظم أمور المملكة كما يبدو في الواقع أو أنها تفعل كل شئ، لا بل يساعدها بعض الوزراء والمستشارين وتكون الملكة ملكة بالاسم فقط، وهذا مثلما تقوليه وقد تحدثنا حول هذا الموضوع كثيراً وهو أننا في ظل حكم الملكة – حفظها الله – ننعم بالأمن والأمان، ولا يوجد ظلم ولا بطش بأي شكل من الأشكال، ولا ضحايا، ولا سخرة، ولا نهب وسلب، ولا قتل وترويع، ولا عراك ولا شجار، ويمكنكم أن تجدوا

هذا الفرق عندما تذهبون إلى مملكة أخرى – لا قدر الله – ولكنني قرأت في كتب التاريخ وطالعت في الصحف أن بعض الملوك الظالمين يعاملون رعاياهم بقسوة وعندما نري أحوالهم ترتعد قلوبنا من الخوف، وهناك حتى الآن في العالم ملوك مثل هؤلاء الملوك الظالمين، ولكن الراحة التي منحنا الله إياها في ظل حكم ملكتنا فيكتوريا لا مثيل لها على وجه الأرض، والحقيقة أنه بالرغم من أن الملكة لا تعيش بيننا فإننا نحن الرعية نستفيد منها فائدة عظمة وقد علمت أنها عندما تسمع بأي معاناة صغيرة قد حاقت برعاياها فإن قلبها يشعر بالقلق، ونستشف من الحكايات التي نطالعها في الصحف بين الحين والحين مدي عطف الملكة ورحمتها وخوفها من الله، وإنها بلا شك تهتم اهتماماً بالغاً بشئون رعاياها ولهذا السبب أرسلت الملكة ابنها لهذا الغرض لكي يشاهد بعينيه أحوال الرعية ويخبرها بما رأي عندما يعود.

سيفهن: ومتى يأتي ابن الملكة؟

أصغري: لم يتحدد تاريخ قدومه حتى الآن ولكن يجب أن تفهمي أن في مجيئه خير لنا، وربما يصل في غضون شهرين ونصف.

سيفهن: وهل سيأتي إلى هنا في دهلي أيضاً؟

أصغري: لابد وأنه سيزور جميع أنحاء الهند، ودهلي مدينة كبيرة ومعروفة، وظلت عاصمة للملوك المسلمين مئات السنين، ولا يمكن ألا يأتي هنا.

سيفهن: فمن نحن؟ بالنسبة لنا يأتي أو لا يأتي سيان لأننا لن نتمكن من رؤيته.

أصغري: ماذا تفعلين عندما تتمكنين من رؤيته؟ سوف أعرض عليكم صوره عندما تأتي إلى.

سيفهن: أيتها المعلمة، لو عندك صورة لابن الملكة اعرضيها علينا الآن.

أصغري: أنا لم أره وليس عندي صورة له، ولكن والدي سيذهب إلى البلاط في كلكتا وكتب لي أنه لو أخذت صور للرعية مع جميع الأسرة المالكة سيحضرها لي.

سيفهن: ذكرت لنا حسن آرا أن لندن على مسافة أربعة آلاف كوس، فهل الذهاب إلى هناك والعودة تستغرق عدة سنين.

أصغري: لا، أنهم يصلون بطمأنينة خلال شهر عن طريق البحر.

سيفهن: يذهبون بالبحر! يا لقلوب الجيش الإنجليزى! ألا يخافون البحر؟ إنني أشعر بقشعريرة في جلدي لمجرد سماع اسم البحر.

أصغري: وماذا يخيفك من البحر؟ فأنت عندما تركبين في الباخرة تصبح كأنها بيتك الخاص.

سيفهن: يا معلمتي، ألا تخافين من الغرق؟ لقد ذهب حماي للحج مع الأمير قطب الدين خان في العالم الماضي فغرقا ولم يعودا.

أصغري: نعم، هذا من قبيل الصدفة، فالباخرة تغرق أحياناً – لا قدر الله – وفي أغلب الأيام تغرق البواخر ولكن لا علاقة لذلك بالسفر، وطريق البحر الآن أكثر عمراناً وأماناً من الطرق البرية، وهناك مئات الآلاف من البواخر تذهب وتأتي ليل نهار، كما أن الإنجليز وزوجاتهم وأولادهم وكل تجارتهم يصلون إلى هنا عن طريق البواخر والسفن.

سيفهن: فيما يتعلق بزوجات الإنجليز فإن قلوبهن قاسية وخالية من الرحمة وقد سمعت أنهن يرسلن أطفالهن الصغار إلى بلاد الغرب ولا يضطرب لذلك قلوبهن لا أعرف أى نوع من الأمهات هؤلاء؟ ومن أين يأتى لقلوبهن الصبر على ذلك؟ إن قلوبهن كالحجارة لأنهن يرسلن أولادهن للخارج، ولا يقلقن عليهم إن سافروا بالبحر أو طاروا في الهواء.

أصغري: أما التجوال في الخارج الذي تتحدثين عنه فإنه ليس في بلادهم التزام بالحجاب وكنا في أيام الثورة قد هربنا إلى إحدى القرى، فكانت جميع زوجاتهم وبناتهم يخرجن هناك دون الالتزام بالحجاب، وبقيت هناك أربعة أشهر وشاهدت اللآئ يخرجن وتمنيت من الله أن يكون الحجاب من نصيبهن، ولماذا تعتبرين إرسال أولادهن إلى خارج (إنجلترا) ليس حباً للأولاد؟ فلا غرو أن هؤلاء الأمهات يحبون أولادهن بالعقل ولا يحببنهن بقلوبهن مثل الأمهات عندنا فيمنعن الأولاد من التعليم، ويحولون بينهم وبين تحصيل العلوم تحت اسم الحب وهن في الحقيقة يزرعن الشوك في حق الأولاد ولن يتمكن الأولاد من مواجهة الحياة ويسيئون بذلك إلى اسم الحب.

سكت الجميع عندما وصل الحوار إلى هذه النقطة، وبدأت فضيلت تروي قصتها فقالت لم يكن لهذا الملك ابناً ولكن كانت له ابنة وحيدة،

وأدرك الملك أن هذه الابنة سترث الملك بعده فأحسن تعليمها جميع أسس وقوانين إدارة المملكة وعلمها القراءة والكتابة، وأسند إليها كثير من الأعمال في حياته. وعندما وصلت فضيلت إلى هذا الحدث قالت أصغري: أختاه أنت تروين فصتك بسرعة وقلبي يمتلئ بآلاف الأسئلة حول هذه الأحداث ولكن ماذا أفعل وقد اقترب النهار من نهايته ولابد من الذهاب إلى بيت أم عالية، ووقت المساء لا يليق الذهاب فيه لعيادة المريض، والآن لا أستطيع البقاء وأنتن أيتها البنات استمعن إلى القصة، وقالت لسيفهن: في حفظ الله يا أختاه، أنا ذاهبة، وإذا أردتي فاجلسي معهن أو فلتأتي غداً وستفعل ذلك هنا في النهار.

المهم أن أصغري ذهبت إلى منزل عالية وظلت سيفهن بين البنات حتى المساء، وخلفت محمودة وحسن آرا أصغري هانم وظلوا يتجاذبوا أطراف الحديث أثناء رواية القصة.

و اتضح جيداً بهذا الوصف منهج التعليم والتلقين في مدرسة أصغري، وكانت أصغري بلا شك تحب حسن آرا كثيراً، وعلاوة على هذا فإن محمودة أخت زوجها قد أحسنت تعليم حسن آرا لدرجة أنها علمتها اللغة الأردية بطريقتها الخاصة وبلا تكلف في عامين، ولم تعد سيئة المزاج كما كانت في السابق، ولا سريعة الغضب، وأصبحت هادئة، وتقرأ وتكتب ومتعلمة وصارت ابنة محبوبة وعاقلة، وكان بيت جمال آرا قد خرب منزل سنوات فعمره الله مرة ثانية بفضل أصغري، ولكنني سأكتب نهاية القصة في كتاب آخر.

الخلاصة أن جميع أسرة حكيم فتح الله الصغير والكبير كانوا يحبون أصغري ويقدرونها كابنتهم، وقد أعطت السيدة سلطانة بيجم حلي مرصعة بآلاف من الجواهر لها ولكن أصغري لم تأخذها، ولم تفرط أمة الله في كرامتها، وعندما اقترب زواج حسن آرا ضغط حكيم فتح الله على السيد محمد فاضل وأعطي له أساور وحلى محلاة بالجواهر بآلاف الروبيات لأصغري وقال لها: اسمعي أنت في منزله ابنائي وأحفادي، ولا أعطيها لك لأنك قمتي بتعليمها بل أعتبرك ابنتي ولو لم تأخذيها سوف أحزن حزناً شديداً، ومن ناحية أخرى أقنع محمد فاضل أصغري بأخذها فأخذتها أصغري.

(٢٦)

أصغري تنصح زوجها بأهمية الوظيفة

بينما كانت أصغري منهمكة في مدرستها هنا كان محمد كامل مضطرباً بسبب البطالة، فقال لأصغري ذات يوم: أنا مضطرب جداً الآن، ولو تنصحيني فأنني أذهب عند والدك المأمور في الجبل لأبحث عن وظيفة بواسطته.

فكرت أصغري قليلاً ثم قالت: الوظيفة هامة وضرورية وأنت تري أننا بحاجة إليها وكيف تنقضى أمور المنزل في ضيق، وقد صار الوالد العزيز طاعناً في السن، ومن الجدير به أن يجلس في المنزل، وعليك أن تعمل ليستريح، علاوة على هذا فإن محمودة أصبحت شابة وأفكر في خطبتها وأتمني من الله أن يتم زواجها في عائلة كريمة وأنا أتدبر في هذا الأمر، وإن شاء الله يتم هذا الأمر هذه السنة ولكن هذا يتطلب جهازاً كبيراً وليس لديه وقت بسبب الوظيفة، وثانياً لا يستطيع مساعدتنا وليس أمامنا أي مخرج إلا في وظيفتك، ولكنني لا أنصحك بالذهاب إلى الجبل فمن ناحية الوالد فسوف يسعى ويتوسط لك وفي الغالب ستحصل على وظيفة مناسبة بسرعة، ولكن الاعتماد الآخرين في الحصول على وظيفة أمر غير جيد، وعليك أن تبحث عنها بقوة ساعدك، ومع أن أبي ليس غريباً لكن يجب أن تكون لك اليد الطولي بين الأقارب، إن الحصول على الوظيفة بل وطلبها أيضاً ليس عيباً، ومع ذلك لا قدر الله لك أن تتلقى الإحسان من أحد فتخضع له دائماً وأفراد الأسرة حفظهم الله الذين لا يتحدثون على الوظيفة في حضورنا لابد أنهم سيتكلمون من وراء ظهورنا ويقولون انظروا لقد حصل على الوظيفة اعتماداً على حماه.

محمد كامل: إذن ماذا أفعل؟ هل أذهب إلى لاهور؟

أصغري: ماذا تفعل في لاهور؟ إن حكومة الحاكم نفسها منهارة، ووالدي العزيز مع مكانته لديهم لا يعرف من أين يأتون بالمال ليدفعوا له خمسين روبية فكيف تتسع هذه الحكومة لموظف جيد.

محمد كامل: وماذا عن الحكومات الكثيرة الأخرى.

أصغري: عندما بدأ العمل عند الإنجليز تخربت إمارات جميع الأمراء والحكام، ولم يبق لديها من الشهرة الغابرة التي حصلوا عليها سوي بعض الصور المطوية عندهم، ولم يتلقوا رواتبهم لسنوات مما أدي إلى تدهور أحوالهم.

محمد كامل: وما الحل؟

أصغري: ابحث عن وظيفة عند الإنجليز.

محمد كامل: لا توجد وظيفة عند الإنجليز بدون سعي وتوصية، وهناك مئات الآلاف من الناس أفضل مني قد أعياهم البحث عن وظيفة ولم يحصلوا عليها.

أصغري: نعم، هذا صحيح ولكن عندما يصمم الإنسان على أمر ما بعد أن يتوكل على الله لا تخطر على باله فكرة اليأس، وأعلم أن هناك آلافا يبحثون على وظيفة ولا يعثرون عليها، لكن الموظفين الذين هم على شاكلتك يجدون الوظيفة بالحظ دون سعي أو عناء، وأنت تري أن هناك جديرين بالوظيفة ولكن عندما يرضي الله عنهم لن تغني عنهم جدارتهم ولا توصياتهم حيث يستدعونهم للوظيفة وهم فى منازلهم.

محمد كامل: هل خلاصة هذا الكلام أن أجلس في البيت؟

أصغري: لم أقصد هذا مطلقاً، ولكن يجب عليك أن تسعي إليها بقدر المستطاع.

محمد كامل: هذه هي المشكلة كيف أسعى؟

أصغري: عليك أن تقيم علاقات مع الناس الذين يحترفون الوظائف وتضاعف من التودد إليهم وبهذا تعلم بالوظيفة عن طريقهم، وستصل إلى أي حاكم بواسطتهم كذلك.

بدأ محمد كامل في التعرف على هؤلاء الناس الذين يعلمون في الوظائف حتى أنه بدأ يتردد على المأمور ورئيس الإدارة ومن هم على شاكلتهما، وأصبح معروفاً للجميع بسبب تردده عليهم كل يوم أنه يبحث عن وظيفة حتى أنه تعرف على بنده على بيك الذي كان يعمل كاتبا في المحكمة فقال له: أيها السيد إن كنت تبحث عن عمل فامشي معي إلى المحكمة وبعد فترة أرجو أن أزودك بالخبرة عن أعمال المصلحة وأعرفك على الحكام وبهذه الطريقة ستحصل على الوظيفة في حين من الأحيان، وبدأ محمد كامل الذهاب إلى المحكمة والعمل مع بنده على بيك حتى أنه كان يأتي بالتوقيع والتصديق من الحاكم، وبدأ يتعرف على الحكام، وفي تلك الأثناء حصل صغار الموظفين على عمل مقابل عدة أضعاف وقد وجد محمد كامل وظيفة عندما حصل أحد الموظفين على إجازة وعوضه بثلث أو نصف الراتب إلى أن ذهب كاتب دفتر اليومية في إجازة لمدة ثلاثة شهور مصادفة وكان يتقاضى عشرة روبيات شهرياً، وقد قدم استقالته بعد ثلاثة شهور

وحل محلة محمد كامل وعندما كانت أصغري تذكر الوظيفة من حين لآخر كان محمد كامل يقول باحتقار إنها وظيفة سيئة حيث أكدح طوال اليوم مقابل عشر روبيات، وليس هناك أي عمل إضافي، ولا أمل في الترقية مستقبلاً، فسوف أتركها، وكانت أصغري تلومه دائماً على هذه الأفكار وتقول لقد وصلت إلى هذه الدرجة من الجحود فهل نسيت تلك الأيام التي كنت تبحث فيها عن عمل ولم توفق في ذلك، أو أن الحكومة لم تقدرك، وهل العشر روبيات قليلة، أنظر إلى أخيك الأكبر ظل موظفاً بعشر روبيات عند تاجر لعدة سنوات وأنت عندما حصلت على الوظيفة تزهد فيها الآن وتحتقرها وفي النهاية ستضيع الوظيفة بنفسك إن القليل يصبح كثيراً فقد كان أبي في أول الأمر كاتباً نظير ثمان روبيات شهرياً، والآن أصبح مأموراً بفضل الله، ولو أراد الله فسوف يرقي أكثر، ولا تفكر في مضاعفة دخلك بالرشوة لأنها حرام ولا يكون في المال بركة مطلقاً، وأنت لا يمكن لك أن تأخذ أكثر مما قدر لك فلماذا تتهافت نية الإنسان ويتشتت باله؟ فلو أراد الحصول على أكثر من هذا فإن الله يرزقه بالحلال.

(٢٧)
ذهاب محمد كامل للعمل خارج الولاية بالتشاور مع أصغري وحصوله على الترقية.

خلاصة القول أن أصغري كانت دائماً تنصح محمد كامل وتتشاور معه وقد حدث أن الحاكم الذي كان محمد كامل يعمل عنده قد انتقل إلى "سيالكوت"، وكان هذا الحاكم يشفق كثيراً على محمد كامل، وقد علم محمد كامل بهذا الأمر في المحكمة نهاراً فلما عاد إلى البيت كان كاسف البال وحزيناً.

سألته أصغري قائلة: ماذا حدث؟ ولماذا أنت حزين اليوم؟

محمد كامل: ماذا أقول إن السيد جيمس سينتقل إلى سيالكوت وكنت أحبه والآن لم يبق لي أي رغبة في العمل بالمحكمة.

صمتت أصغري فترة طويلة ثم قالت: لا شك أن انتقال السيد جيمس أمر مؤسف ولكن لا يجب أن يصل بك الحزن إلى هذا الحد وسيهب الله الرحمة في قلب الحاكم الآخر الذي سيحل محله، وينبغي على المرء ألا يعتمد على شخص بعينه.

ثم سألته أصغري: متى سيغادر السيد جيمس؟

محمد كامل: سيسافر مساء غد كما ورد في رسائل البريد؟

أصغري: ألم تذهب إلى منزله؟

محمد كامل: ولماذا أذهب الآن.

أصغري: هذا هو الوقت المناسب للقاء، ولو لم يحدث شئ فسيعطيك على الأقل خطاب تزكية، ولعله يفكر فى ذلك الوقت في أخلاقك وأدبك وينظر إليها بعين المروءة.

محمد كامل: إن ما قلتيه صحيح فلماذا أذهب؟ فلن تخرج الكلمات من فمي بسبب حزني على فراقه، إنه من المستحيل أن التقي أنا والسيد جيمس، حسناً لابد أن أذهب إليه في الصباح. وفي الصباح الباكر ارتدي محمد كامل ملابسه وذهب إلى منزل السيد جيمس.

قال جيمس له: أذهب الآن إلى سيالكوت يا محمد كامل، وأنا كنت راضيا عنك تماماً، فلو ترغب في أن تذهب معي إلى سيالكوت فسأحصل لك على وظيفة عندي بخمسة عشر روبية.

فكر محمد كامل ثم قال: سأكون مستعدا للإجابة عليك بعد أن استشير والدتي.

المهم عاد محمد كامل إلى المنزل وقال إن السيد جيمس سيأخذني معه وعندما سمعت أم محمد كامل ذلك صاحت وبكت ولكن أصغري هدأت من روعها، وفي نهاية الأمر سألها محمد كامل قولي لي يا أمي بماذا أجيب عليه؟

قالت أم محمد كامل: ماذا تجيب عليه، فهل تسافر معه من أجله، أو أن ترسل جندياً له.

محمد كامل: لا يا أماه أنا لم أعده، ولكنه سيقول في نفسه كم كان هذا الهندي أناني فقد كذب على وقت السفر.

قالت والدة محمد كامل: حسناً، اذهب إليه وقل له لا أستطيع الذهاب يا سيدي.

سأل محمد كامل أصغري: ما رأيك في أمر السيد جيمس؟

قالت أصغري: الصلاح والرأي شئ ورغبة القلب شئ آخر، فالقلب كان يرغب في أن تظل معنا فالبيت تنتظم فيه الأمور بأنفاسك وفي النهاية يجب أن يكون هناك رجل في البيت، ولو سألت عن الرأي السديد فإن ذهابك مناسب، فعندما يقول حاكم ما ستسافر معي فإنه من المؤكد أن يسلك معه سلوكاً حسنا بعد أن يصل إلى مقره.

محمد كامل: إن قلبي لا يريد الذهاب ثلاثمائة كوس من أجل خمس روبيات أكثر، والمثل يقول: نصف رغيف في البيت خيراً من رغيف كامل خارجه.

أصغري: إذن الاختيار لك، ولكن لقد سنحت لك الفرصة فلا تضيعها من يدك، فمن لا يسافر أنظر إلي أبي وأبيك إن هؤلاء الناس قد قضيا عمريهما في السفر، إنك ستحصل على خمس روبيات بالفعل ولكن أنظر كم خمس روبيات ستأخذ فيما بعد، ولو لم تسافر فلا تبدي تبرمك بالعشر روبيات.

محمد كامل: سأذهب لتقديم استقالتي من الوظيفة هنا، وافرض أنني لم أجد أي عمل هناك ففي هذه الحالة أكون قد فقدت العمل هنا وفقدت العمل هناك.

أصغري: أولاً فإن الفرض بأنك لن تحصل هناك على أي عمل هو مخالف للعقل لأن السيد جيمس حاكم كبير ويريدك أن تعمل، ولا تجد عمل! أنا لا أفهم هذا الأمر، ولماذا تستقيل عليك أن تأخذ إجازة لمد شهر.

محمد كامل: وهل يوافقوا هنا على الإجازة؟

أصغري: وماذا يكون في الموافقة؟ تحدث مع السيد جيمس وسيكتب لك خطاب توصية.

المهم أن أصغري أقنعت محمد كامل بصعوبة ووافق على السفر وأعطته من عندها خمسين روبية نقداً وأعدت له ستة أزواج من الملابس الجديدة وجعلت ابن ديانت النساء رفيقاً له، لقد سافر محمد كامل إلى سيالكوت ومن ناحية أخرى كتبت أصغري خطاباً لأبيه محمد فاضل بجميع هذه الأحوال وكتبت له أن السيد جيمس مسافر إلى سيالكوت ولابد أنه سيمر على لاهور فأذهب إليه هناك وقابله وعليك أن توصي عليه بعض الأمراء فإن ذلك سيكون مفيداً جداً له، فبحث محمد فاضل عن السيد جيمس وكان هناك بعض حكام مراكز وقري سيالكوت وقد تمت دعوة محمد فاضل من قبل أمير لاهور وأقيمت المأدبة لهم في حديقة قصر الأمير وبعد تناول الطعام كان السيد جيمس والأمير جالسان يتجاذبان أطراف الحديث عندئذ قال محمد فاضل للسيد جيمس أن أهالي دهلي مضطربون لفراقك فبالرغم أنك مكثت حاكما في دهلي لمدة سنتين فقط إلا أن الناس هناك كانوا في سعادة غامرة بسبب عدلك ورعايتك للشرفاء وكنت أعرف بجميع أحوالك من خطابا ت ابني الذي كان يعمل معك.

سأل السيد جيمس: هل كان لك ابن يعمل في محكمتي؟

قال محمد فاضل: نعم، محمد كامل.

قال السيد جيمس: هو الذي جاء معي، هل هو ابنك؟

قال محمد فاضل: هو خادمك.

و في هذا الحفل قال أمير لاهور للسيد جيمس إن السيد محمد فاضل يعمل في إمارتي منذ زمن بعيد ونريد أن نسعده ونطيب خاطره بكافة الطرق، ولكن أنت تعرف أنه ليس هناك متسع من الوقت وستكون ممنونون لو أنك قمت برعاية ابنه.

كان السيد جيمس ملماً بأحوال محمد كامل من قبل، وكان الوقت مناسب في الاحتفال لكي يتحدث إلى محمد فاضل، وكان محمد فاضل أولاً شاباً في مقتبل العمر، وثانياً شريفا وثالثاً تزكية الأمير له، ورابعاً أن السيد

محمد فاضل والده، وخامساً أنه جدير، وبهذه الصفات التي اكتسبها محمد كامل عينه السيد جيمس نائباً في المحكمة بخمسين روبية في أول أيام العمل في المحكمة، وكتب رسالة إلى محمد فاضل يقول له فيها لقد عينا ابنك بالفعل في وظيفة بخمسين روبية وسوف نرقيه بسرعة فأخبر الأمير بذلك، شكر محمد فاضل السيد جيمس بأسلوب مناسب أما محمد كامل فقد كان يبحث عن وظيفة تعوضه عن الوظائف الصغيرة ثم كان كاتباً لليومية بعشر روبيات، ثم جاء إلى سيالكوت مع السيد جيمس بتشجيع من أصغري على وعد بوظيفة بخمسة عشر روبية، وها هو الآن في لحظة واحدة موظف بخمسين روبية، وبالرغم من أن والدة محمد كامل كانت غاضبة منه عند سفره فإنها فرحت فرحاً شديداً بعد أن سمعت رقم خمسين فقد تضاعفت البركة في المنزل الآن وأصبحت أصغري تتلقى مصروف المنزل أربعين روبية كل شهر بدلاً من عشرين روبية.

(٢٨)

تشرد محمد كامل، وذهاب أصغري لإصلاحه، وعند ذهابها سلمت مسئولية البيت إلى أخت زوجها

و في النهاية أصبح محمد كامل مديراً للإدارة في غضون عام، ولكنه كان يرسل نفقات المنزل باستمرار حتى تولية منصب مدير الإدارة وكذلك كانت الخطابات ترسل بشكل منتظم، ولكن الإنسان بعد أن يصبح مستقلا في حياته يلتف حوله رفاق السوء، وتسوء أحواله، وبدأ يقل في الخطابات، فأدركت أصغري بفطنتها الثاقبة أن هناك أمر مريب، واستغرقت في التفكير لأيام طويلة وتقول ماذا أفعل الآن؟ وفي النهاية لم يستقر في ذهنها سوي السفر إليه بنفسها ومهما يكن من أمر فقد عزمت أصغري عزماً أكيداً على السفر إلى سيالكوت ولكنها أرسلت إلى تماشا هانم تستدعيها للتشاور معها في هذا الأمر وتطلعها على جميع الأحوال.

تماشا هانم: هل جننت يا أختي؟ أتتركين المدينة وتسافرين إلى سيالكوت.

أصغري: ماذا تعني المدينة لي إن مدينتي حيث يكون زوجي.

تماشا هانم: وماذا ستقولين للعائلة، فلم يسافر أحد من عائلتنا إلى الخارج حتى اليوم.

أصغري: أي عيب في هذا الأمر؟ سأقول لهم في النهاية سأذهب عند زوجي فما الاساءة في ذلك، وإن كانت الأسرة تسأل فلأنه لم تكن في الأيام الماضية طرق معبدة ولا سائل مواصلات وكانت هناك صعوبة بالغة في سفر النساء ولهذا السبب لم يكن الناس يسافرون، أما الآن لو ركبت القطار اليوم وحفظني الله فأنني سأصل إلى سيالكوت بعد غد وكأنني ذاهبة إلى ميرته.

تماشا هانم: هل وصل خطاب يستدعيك؟

أصغري: لم يصل أي خطاب.

تماشا هانم: إذن سفرك إليه دون استدعاء منه ليس مناسب.

أصغري: أنت تنظرين إلى المناسب وغير المناسب أما أنا فأقول لو لم أذهب فسيخرب بيتي طوال العمر.

تماشا هانم: لماذا يا أختي تستجدين هكذا؟ ولماذا تهتمين بأمره؟ فليحفظ الله لك مدرستك فأنت تعلمين عشر بنات.

أصغري: أنت أيضاً لم تفهمي، أنا أقوم بالتدريس في هذه المدرسة من أجل الترويح عن نفسي ولا أقبل الكسب منها، والله يعلم، سواء صدقتي ذلك أم لم تصدقي أنني حتى اليوم لم أنفق على نفسي بيسة واحدة من نقود المدرسة، فقط هناك خمسون روبية نقداً وعشرون روبية اشتريت بها ملابس لزوجي العزيز كانت من الضروري أن نعطيها له عند سفره إلى سيالكوت هي أيضاً على سبيل القرض وهناك حساب دقيق لما تبقي نقود. انظري إن دخل المرأة لا يعد دخلاً، فلو أن دخل المرأة يعتمد عليه في تسيير أمور المنزل إذن فما دور الرجل، إن بيتي ينهار لذا لا أحفل بخراب عشرة مدارس مثلها.

تماشا هانم: أين ستسافرين في هذه الأمطار الغزيرة فانتظري مجئ الشتاء وعندئذ سيتحسن الطقس.

أصغري: التأخير يعقد الأمور، والآن فإن الأمر الذي سيحل بالتفاهم ربما لا يحل بعد ذلك بالشجار العنيف.

تماشا هانم: يا عزيزتي ألا ينقبض قلبك لمغادرة المنزل؟

أصغري: لما لا ينقبض ألست إنسانه؟ ولكن انقباض القلب أفضل من التأخر قليلاً أو مواجهة المشاكل طوال العمر.

تماشا هانم: هل حصلت على إذن من حماتك؟

أصغري: حسناً، هي ستأذن لي، ولكن حماتي سيدة طيبة وبلا حيلة وسوف أفهمها ولن تمانع في ذلك.

و ذات يوم استجمعت أصغري كل إرادتها وشرحت لحماتها مبررات سفرها ولما كانت مبرراتها معقولة لم تناقشها فيها ولم تمنع أصغري من السفر، وفي أحد الأيام ذهبت أصغري إلى أمها وأخبرتها بجميع الأحوال، وأفهمت التلميذات في المدرسة أن محمودة ستعلم الجميع وأنا سأسافر لمدة شهرين فقط، فكانت جميع التلميذات تأتين كالعادة، وقبل حفل الوداع ذهبت إلى بيت أختها أكبري فسألها محمد عاقل: كيف حالك يا تميز دار؟ هل تسافرين ومن يدير المدرسة؟

أصغري: سأسلم لك جميع أعباء المنزل والمدرسة.

محمد عاقل: ما أجمل هذا! فأنا ليس لي علاقة بالمنزل ولا بالمدرسة فما عساه أن أفعل؟

أصغري: سواء لك علاقة أو ليس لك علاقة فإن الاختيار لك.

محمد عاقل: إن الكلام الذي تقولينه يا تميز دار ليس مناسباً، فأي اختيار لي، فقد تركت أختك المنزل أما المدرسة فهي مدرسة بنات، فلو كانت مدرسة للبنين لدرست لهم جميعاً بسرور.

أصغري: الآن عليك أنت وأختي كلا كما أن تعودا إلى المنزل فالأم الحبيبة وحيدة.

محمد عاقل: عليك إقناع أختك بهذا الأمر.

أصغري: ما ضرورة اقناعها إن أختي تعلم وتفهم ذلك بنفسها، هل بقاؤك هنا وحيداً فيه عناء لك، أنت لا تتحمل مسئولية أي أطفال ولن تهتم بشأن المنزل وليس من الضروري تذكر آلام الانفصال فهذا غير مناسب لقد انقضت تلك الأمور الغابرة، فهل تريد أن يكون هناك خلاف فيما بيننا وأن تعم المتاعب.

كانت أكبري قد ذاقت طعم الانفصال جيداً، وكانت تبحث عن أعذار للبقاء فوافقت على الفور واصطحبت أصغري أختها وزوجها معها، وكانت والدة محمد كامل قلقة لسفر أصغري ولكنها الآن بدأت تسري عن نفسها فقد ذهبت زوجة ابن وجاءت زوجة أخرى، ولا غرو أن محمودة كانت مستغرقة في التفكير في رؤية زوجة أخيها أكبري، ولكن أصغري طمأنت محمودة وأفهمتها بألا تفكر في تلك الأحاديث، ومن ناحية أخرى أفهمت أختها أن محمودة الآن صارت فتاة كبيرة وعليها أن تحسن معاملتها ولا توجه لها كلاماً جارحاً، وفيما يتعلق بالمدرسة فقد قالت لمحمد عاقل إن محمودة ستتولى جميع الأمور الخاصة بالتعليم في المدرسة، وعليك أن تراقب سير العملية التعليمية فقط، وأن تكتب حسابات المدرسة لمحمودة.

المهم أن أصغري ودعتهم واستقلت القطار مباشرة ووصلت إلى سيالكوت حتى أن محمد كامل اندهش كثيراً لوصول أصغري المفاجئ وسألها: ماذا حدث؟ لماذا جئت، هل تشاجرت مع أمي؟

أصغري: اذكر الله، إن أمي العزيزة على شاكلتي ولن أتشاجر معها، فهل رأيتني أتشاجر معها أو معك قط خلال السنوات الأربع.

كان محمد كامل قد وسع نطاق علاقاته هنا، وابتلي بأصدقاء السوء وتجمع حوله المنافقون وكانوا يفعلوا كل شئ باسمه وكان سوق الرشوة قد احتدم ولم يعد يحترز من مجالس الرقص وينعم في رغد العيش كالأمراء وينفق أربعة أضعاف راتبه، ولو استمر على هذا الحال فمن المؤكد أن السيد جيمس سيسئ الظن به ويطرده من العمل في النهاية، وقد وصلت

أصغري في الوقت المناسب وعلى الفور أمسكت بزمام الأمور من كل جانب، وقالت له: إن الله قد منحك وظيفة مرموقة فبدلاً من أن تشكر الله عليها لم تقنع بها!

قال محمد كامل: ما العيب فيما يدفع المال عن رضي منه.

قالت أصغري: سبحان الله! إن مثل هذه الروبية التي تدفع لك عن رضي تأخذها بلا وجه حق، إن الناس في هذه الأيام يدفعون الروبيات بقدر حاجتهم لقضاء أمورهم حتى أنك لم تعد تهتم بالكرامة، فالإنسان لا يترك المال من قبضته وإن زاد عن حاجتنا هل نعطيه للآخرين، فالزكاة وهي فرض ومقدارها اثنان ونصف المائة في السنة تؤديها بصعوبة، ولو عند الناس خزانه مليئة بالمال مثل خزانة قارون فإنهم لا يدفعون بلا هدف ولا يدفعون الرشوة إلا عندما يرون مصالحهم تعطلت، ولعل هذا بداية الخراب فبعد أن يعجزوا عن دفع الرشوة يقترضون ويبيعون حليهم ليدفعوا الرشوة.

محمد كامل: أي خوف من هذا وأنا لا آخذها بنفسي؟

أصغري: أولاً لا يمكن أن تخفي الرشوة. علاوة على هذا افرض أن أحداً لم يعلم بها فإن الله يراها من وراء الحجب، ويعلم بها ويدخر لك ذنوب الناس ويصبح عاقبة ما جمعت أمر غاية في الوقاحة.

المهم أن أصغري جعلت محمد كامل يقبل على التوبة بعد أن أقنعته، وبعد عدة أيام سألته أصغري: من هؤلاء الأربعة الذين ترسل لهم الطعام؟

محمد كامل: إنهم يبحثون عن وظيفة وهم مساكين غرباء عن وطنهم، وقد قلت لهم عليكم بالعيش معي حتى تحصلوا على الوظيفة.

أصغري: وحتى الآن لم يجدوا وظائف؟

محمد كامل: يجدون وظائف ولكن مكانتها متواضعة.

أصغري: ما دامت قد وصلت حالتهم إلى هذا الحد ويعتمدون في طعامهم على الآخرين فأي كرامة لديهم فلماذا يبحثون عن وظيفة وما يطلبونه يحصلون عليه.

محمد كامل: ماذا تقولين بالله عليك فهل من اللائق أن أقول لهم أنتم بلا كرامة أو عزة.

أصغري: أتهتك عزتهم من وظيفة أحط شأناً، ولا تهتك عزتهم من العيش عالة على الآخرين.

و ما دام هؤلاء بلا غيرة إلى هذا الحد فأنهم سيكونون سيئين في عاداتهم الأخرى وإن صحبتهم سيئة، ومن المؤكد أنهم يأخذون المال باسمك فقل لهم إما أن يلتحقوا بالوظائف أو يتركونك لحال سبيلك.

محمد كامل: إن مروءتي تقتضي ألا أتنكر لهم وأرفضهم.

أصغري: هل من الضروري مراعاة المروءة مع من لا مروءة فيهم، ولو عندنا فضل مال فإن في الأسرة كثير من الفقراء وهم أحق وأولي منهم فما الفائدة من إعطاء مثل هؤلاء العاطلين من الناس، وعليك أن تقنعهم بطريقة ما وليس من الضروري أن ترفضهم بشدة.

خلاصة القول أن هؤلاء الناس كانوا هم شياطين محمد كامل، استطاعت أصغري أن تبعدهم بحسن تصرفها، وتخلصت من الموظفين المرتشين بعد أن قامت بانتقائهم وفي غضون عام ونصف أصلحت أصغري جميع الأمور في الداخل والخارج.

و الآن قد حان موعد زواج "مسلم" فأرسلوا إلى أصغري خطاباً يطلبونها وقد كتبت إليها تماشا هانم واصرت بشدة على حضورها وكان قد مر على سفرها وقت طويل، وكانت أصغري تريد العودة إلى دهلي ولكنها كانت تفكر في نفسها أنه ليس من المصلحة ترك محمد كامل وحيداً.

فقالت أنا مسافرة وليس من المناسب لك أن تعيش بمفردك ولابد أن يقيم معك أحد الأقارب، ولذلك فأنني أري أن تستدعي ابن خالتك محمد صالح وتعلمه معك أعمال المحكمة وربما تمكنت من أن تلحقه بوظيفة أيضاً، وكتبت أصغري رسالة إلى السيدة "أميره بيجم" بذلك ووصل محمد صالح سيالكوت في وجود أصغري.

و كان محمد صالح شابا دمثا وسعيد الحظ واسماً على مسمي، وأكبر في العمر من محمد كامل، والآن ودعت أصغري سيالكوت وهي مطمئنة وتوجهت إلى لاهور فأقامت عند محمد فاضل لمدة أسبوع.

(٢٩)

تقاعد محمد فاضل بمشورة أصغري وتعيين الابن الأكبر محمد عاقل مكانه.

كان محمد فاضل قد اقترب من السبعين من عمره، وكان قد تعب من وظيفة المأمور فقد ظل سنوات طويلة من عمره يخبر الأمير بقضايا جميع الحكام فى المحكمة، ويذهب للعمل صباحاً ومساءً، وكان هذا المسكين محمد فاضل يعود إلى منزله في الليل منهك القوي. فقالت له أصغري: أبي العزيز إن عمرك الآن لم يعد يقوي على هذه المشقة، وعليك أن تفكر في أن تستريح في المنزل، لقد قرأت في أحد الكتب أن عمر الإنسان ينقسم إلى ثلاثة مراحل: المرحلة الأولى: الطفولة، المرحلة الثانية: القيام بإدارة أعمال الدنيا، والمرحلة الثالثة: وذكر الله. فيجب الآن أن تعود إلى المنزل وتجلس مستريحاً.

محمد فاضل: أولاً الأمير لن يتركني، وثانياً لا يريد أن يقوم شخص آخر بالعمل مكاني.

أصغري: إن الأمير سيلتمس لك العذر لضعفك وشيخوختك وإن كان يغلب عليك الظن أنه سيغضب فإن محمد عاقل يقوم بالعمل أليس جديرا بذلك.

محمد فاضل: وهل يعرف قوانين العمل في بلاط المحكمة؟

أصغري: عليك أن تستدعيه عدة أيام وتبقيه معك وتطلعه على جميع الأعمال في المحكمة وسوف يفهم كل شئ وهو إنسان مثل الهنود الذين يتعلمون عدة كتب فارسية على غير هدي ويلتحقون بالوظائف في المحكمة.

استحسن محمد فاضل كلام أصغري، وعندما وصلت إلى دهلي استدعي محمد فاضل ابنه محمد عاقل، وبعد عدة أيام اضطلع محمد عاقل بجميع أعمال والده، وسعد الأمير سعادة بالغة بعمله عندئذ قال محمد فاضل للأمير: إن ولدي الآن مستعد للعمل معك وخدمة حضرتك فأذن لي بالتقاعد عن العمل.

جري العرف عند الأمراء الإحرار، أن يحرروا العبد العجوز.

كان الأمير كريما وطيب القلب فقرر لمحمد فاضل معاشاً يتقاضاه طوال حياته وقدره عشرون روبية وعين محمد عاقل بمرتب كامل في وظيفة والده محمد فاضل.

(٣٠)
خطبة محمودة

عندما عادت أصغري إلى دهلي أخذت تفكر في أمر محمودة، وكانت حسن آرا قد جاءت من جهجر، وفي تلك الأيام أيضاً وصلت جمال آرا من بيت زوجها للقاء أختها الصغرى، لقد كان منزل حكيم فتح الله بأكمله يحبون أصغري ومريدين لها، وعندما علمت الأختان بخبر مجئ أصغري جائتا إليها مسرعتين وظللن يتجاذبن أطراف الحديث طويل، وقالت جمال آرا: يا معلمتي العزيزة كنا نفكر فيك دائماً ولم نستطيع البوح بذلك، إن حسن آرا تلميذتك ولكني أحترمك أكثر من التلاميذ فأنت قمتي بتعمير بيتي الخرب.

أصغري: أنا لست جديرة بكل هذا.

جمال آرا: معلمتي، أنت أسعدت قلوبنا ولن ننسي معاملتك الطيبة فماذا نفعل لك؟ أنت لا تقبلين أي نوع من الخدمة فلو صنعت من جلدي حذاء لك ربما لا يوفيك هذا حقك.

أصغري: أولاً أنا لم أقدم لكم أية خدمة حتى أنتظر مقابلها، وأنتم آل السيدة بيجم قد حباكم الله جميعاً الأهلية والجدارة والثراء ونحن الفقراء نسعد بهذا الكلام.

حسن آرا: كيف تقولين هذا الكلام يا معلمتي؟

أصغري: اسمعي يا أختي، حسن آرا لم يبق الآن من الأستاذية والتلمذة شئ فقد كان ذلك أيام المدرسة، والآن فقد حفظكما الله وتزوجتما، وأنتما أغنياء بالوراثة وتاج رأس الأغنياء من ناحية، ومن ناحية أخرى أبناء و زوجات حاكم المدينة وأنتما أكثر منا مالاً ونحن فقراء فعندما يصل إليكم إنسان ويظل محروماً فإن هذا من سوء طالعه.

حسن آرا: حسناً يا معلمتي ما الأمر؟

أصغري: إنها مهمة صعبة للغاية يا أختاه وأرجو أن تعداني بألا تجعلاني يائسة.

قالت حسن آرا وجمال آرا في وقت واحد: تطلبين وساطتنا لطلب وظيفة لشخص ما، ونقسم لك بالله يا معلمتي العزيزة أننا مستعدان للتوسط لك بالقلب والروح، ونتمنى أن تطلبي أي طلب منا.

أصغري: هذه المهمة بالنسبة لي كبيرة ولكن لو أنكما مستعدان من قلبيكما فسوف تتحقق.

قالت الأختان: معلمتي العزيزة يعلم الله لو كانت هذه المهمة في استطاعتنا فلن نقصر فيها.

قالت أصغري بعد أن وعداها وعداً مغلظاً: أتمنى أن تقبلوا محمودة وتتبنوها بينكم.

لاذت الأختان بالصمت بعد سماع هذا الكلام ثم بدأت كل منهما تتحدث أحاديث متفرقة من هنا وهناك وقامت الأختان عندئذ أمسكت أصغري حسن آرا من طرحتها باحدي يديها، وأمسكت جمال آرا اليد الأخرى وقالت: أنا من حقي أن أتعارك معكما، وأقسم بالله إنني لن أسامحكما طالما لم أجد رداً على طلبي.

حسن آرا: إننا يا معلمتي ليس لنا دخل في هذا الأمر، والآن "ارجمند خان" شاباً، وأن هذه الأمور التي يقررها الأب والأم لا يستمعون فيها إلى الأخوات.

أصغري: إن الأخوات المتزوجات والكبيرات في منزلة مساوية للأم أيضاً ولا يقضون أمراً دون التشاور مع الأهل والأقارب، ومن المستحيل ألا يأخذا برأيكما.

حسن آرا: لم يتداول هذا الموضوع في بيتنا حتى الآن.

أصغري: ألا تعلمون أنه قد جاء الرد من عند علوي خان.

جمال آرا: معلمتي الحبيبة لقد سمعتي ذلك ولكن لم يتم الحديث في هذا الموضوع حتى الآن وهل كان علوي خان مختالاً فخوراً، الله أعلم كيف نتعامل مع هذا الموضوع.

و بدأت الحوار بهذه الطريقة.

قالت أصغري: إن المال والسيرة والشكل ثلاثة أشياء ضرورية، أما عن المال فنحن فقراء ليس لدينا مال، والسيرة فأنت يا أختي حسن آرا تعرفين محمودة جيداً، فقد بقيتي تدرسين معها عامين وأصدقك القول هي ذات حياء، ومهذبة ومؤدبة وأسلوبها جيد ولديها مهاره في كل عمل وتجيد كل شئ من أعمال المنزل، وتجيد القراءة والكتابة وتحسن الخياطة والتطريز والطهي، أليست كل هذه الصفات تتصف بها محمودة أم لا؟ وأنا أقول هذا لأن محمودة أخت زوجي وتلميذتي

ولكن لأنها فتاة حباها الله بجميع الصفات، ألست أبالغ في قولي يا أختي حسن آرا، تكلمي.

حسن آرا: معلمتي لا أحد ينقد القمر، ومحمودة بيجم لا مثيل لها في البيوتات الكبيرة كما أنه ليس لمحمودة بيجم نظير.

أصغري: أما عن الشكل فإن محمودة إنسانة جميلة الأنف والأذنين والعينين كما أنها ما زالت صبية وسيظهر جمالها أكثر عندما تكبر.

جمال آرا: يا معلمتي، إن محمودة التي تقولين إنها طفلة، أقسم أنها كبنات الحور! ونحن الأختان وإن كنا أغنياء لكن لا نصيب لنا من حيث الشكل والجمال، وأقسم بالله إن بعض الخادمات أجمل منا شكلاً، ومحمودة كالشمس والقمر في جماله ولا يوجد لها مثيل.

أصغري: إذن فأي عيب فينا سوي الفقر؟ لكننا ننتسب في النهاية إلى عائلة واحدة ولم يمر على وفاة على تقي خان سوي عدة أجيال.

قالت الأختان: معلمتي، أنتم تاج رؤوسنا ونحن وأنتم واحد أصل واحد ودماء واحدة.

أصغري: ماذا تفكران؟ أرجو أن تقبلا رغبتي.

حسن آرا: حسناً يا معلمتي، اليوم سنذكر هذا الحديث أمام والدتنا.

أصغري: لا تذكريه فحسب فأنا أيضاً أستطيع أن أذكره، بل تساعديني بقلب صادق حتى يتحقق هذا الأمر.

وعداها الأختان وقالا لها: كما تريدين يا معلمتي، إن شاء الله سيتحقق هذا الأمر، المهم أن الأختين غادرتا المكان في ذلك الوقت، وفي اليوم التالي ذهبت أصغري للقاء سلطانة بيجم وكانت قد أحضرت من سيالكوت شال عظيم بمائتي روبية أهدته لسلطانة بيجم فقالت لها سلطانة بيجم أيتها المعلمة لقد أخجلتيني كثيراً ونريد أن نقدم لك خدمة لا أن نأخذ منك.

أصغري: لقد أمرت بنسج هذا الشال من أجلك فقط، وأرجو أن تقبليه، لقد ظل يصنع هذا الشال عام ونصف عام وكنت آمل أنني عندما أعود إلى دهلي أقدمه لك بنفسي.

سلطانة بيجم: إنني آخذه منك على سبيل التبرك، ولكني أقسم بالله أنني أشعر بالخجل، وأتمني أن أقدم لك أي طلب حتى يسعد قلبي.

و استناداً لهذا الكلام وقفت أصغري مكتوفة اليدين وعرضت طلبها.

سلطانة بيجم: حسناً أيتها المعلمة عليك أن تجلسي.

أصغري: سأجلس الآن بعد أن أحظى بطلبي.

عندئذ أمسكت سلطانة بيجم بيد أصغري وأجلستها وقالت لها إن أحوال الأولاد معقدة جداً فأنت عندما تشترين قدحاً رخيصاً من الفخراني تقلبينه وتفحصينه جيداً فما بالك بأمر الزواج الذي يستمر طوال العمر ولهذا فهو يحتاج إلى تفكير عميق، وسأذكر هذا الموضوع أمام والده لأن هناك بضعة أشخاص من أسرة أختي الكبرى يستطلعون هذا الأمر وسيقرر ما يراه مناسباً، ولا زال أرجمند خان صبياً فلما العجلة في أمر زواجه.

قالت أصغري: بعد أن زاد حماسها إن ما أحدثك عنه حدث في مصر حيث اشترت امرأة عجوز سيدنا يوسف بدراهم معدودة وكذلك أنا فليس في جعبتي ما أعطيه لك إلا الفقر والعجز ولا أطمع إلا في عطفك فقط.

لم تنطق سلطانة ببنت شفة ولكن يبدو من ملامحها أنها لم يتكدر خاطرها، وعندما غادرت أصغري قالت لجمال آرا وحسن آرا الآن صار الاختيار لكم، وبعد ذهاب أصغري أثنت الأختان على محمودة ثناءً جميلاً حتى أصبحت سلطانة بيجم نصف موافقة، ولكن كانت لشاه زماني بيجم ابنه ولم تكن قد تحدثت فى شأنها مع أختها حتى الآن، وعندما تحدثت أصغري معها فيما يتعلق بزواج محمودة أرسلت سلطانة بيجم تستدعيها لتسألها عن رأيها في هذا الموضوع، وعندما سمعت شاه زماني بهذا الكلام اضطربت وأخذت تفكر فيه ولم تخضع للحديث عن محمودة بأي طريقة، وهل أرسلتم لاستدعائي لتتأكدوا من أمر ابنتي "دلدار جهاني" لكي أفكر وأرد عليكم، وفي اليوم التالي حضرت بنفسها وعندما دار الحديث عن أمر زواج الابن أرجمند خان قالت لسلطانة: أين أنتم من محمد فاضل! فمثلكما كمثل السماء والأرض، ومن جاء إلى هنا وأتي بهذا الحديث؟

سلطانة بيجم: إنها المعلمة.

شاه زماني: انظري أنا ذاهبة بنفسي إلى المعلمة.

ذهبت شاه زماني ومعها حسن آرا على الفور عند أصغري وزجرتها قائلة: أيتها المعلمة أنت إنسانة عاقلة ألم تدركي أن مثل هذه العلاقة تكون غير متكافئة وقد وصلت رسالة بهذا الصدد فقط من منزل علوي خان ولم يحدث تناول هذا الحديث فماذا يهمك من أمر محمودة؟

أصغري: السيدة بيجم، كنت قد أثرت موضوع زواج الفتاه، وأي فتاه لا ترسل رسالة للمتاجرة بها خاصة وأن تقاليد الزواج وأعرافه قد

تغيرت وفسدت في المدينة ولم أسمع فى مكان عن البيع والشراء بين الناس المتحفظين بسلوكهم فيفكرون ماذا سيحملون من جهاز عندما يزوجون الفتاة، ويبقي إذن مسألة التكافؤ والمساواة فإننا من حيث المال لا نعتبر شيئاً مذكوراً ولا نملك ربع ما عند علوي خان أنتم أغنياء ونحن فقراء وأنا أبحث عن أمر زواج البنت لأن أخاها سيجهزها بجهاز كبير وهو لا يريد أن يزوجها بإنسان فقير وهو يبحث لها عن منزل أغنياء وأرجو أن تأخذوا الفتاة وقد حباها الله كل شئ وهي موجودة أمامكم وتعرفونها جيداً ولا يخفى عليكم شيء من أحوال محمودة وأنت تعرفون محاسنها ومساوئها من حيث الشكل والجمال والطبع.

شاه زماني: ماذا حدث؟ عليكم مراعاة التكافؤ في الزواج.

أصغري معذرة على الخطأ يا سيدة بيجم أين التكافؤ الآن؟ لقد كان التكافؤ عندما زوج على تقي خان أخته في هذا المنزل، وهو نفس المنزل الذي لا يوجد فيه تكافؤ بسبب زواج هذه الفتاة، والآن هل أصاب العفن هذا المنزل، لسنا أغنياء والله لا يحب الأثرياء المتكبرين.

و قد احتدم الحوار بين أصغري وشاه زماني بيجم التي لم تستطع أن ترد عليها فقالت لها: لقد أغضبتني أيتها المعلمة.

أصغري: أيتها السيدة بيجم أنا لا حول لي ولا قوة وكنت أتمنى أن تساعديني في هذا الموضوع لا أن تستائي إلى هذا الحد.

شاه زماني: أيتها المعلمة إن هذا لن يتم رغبتي في هذا أم لم ترغبي.

أصغري: لا غرو أننا لسنا كفؤ من حيث الغني، وأزعم أننا متساوون في الأصل، أما من حيث العلم فأنتم لا تماثلوننا فلا ضير في هذا الأمر فأنتم أقل منا في شئ ونحن أقل منكم في آخر ولو أخذتي مصباح وبحثتي في الدنيا عن فتاه مثل محمودة فلن تجدي مثلها.

شاه زماني بيجم: أيتها المعلمة ولماذا لم تتزوج من ابن إقبال مند خان؟

أصغري: لا قدر الله إن ابنتنا صغيرة ولم تصبح عانساً بعد وأنا أعرف ابنتك دلدار جهان بيجم تصغرها بعامين ونصف العام وعندما يبحث إنسان عن مثلها لن يجد، وهناك شباب مناسب للفتيات، وفتيات جديرات بالشباب ولكني فكرت في أن العلم والمال معاً صفات جديرة بالأغنياء ويستحسنها الغني وبالتالي فإن بعضهما يليق بالبعض الآخر، ولكن لو لم توافقي فعليك أن تقرري خطبة دلدار جهان.

شاه زماني بيجم : أنا أود أن تتزوج دلدار جهان من وسط العائلة وليس فى ذلك صعوبة. انصرفت شاه زماني بيجم بعد أن قالت هذا الكلام وظلت حسن آرا جالسة فقالت لها الخالة هيا مشي يا ابنتي قالت حسن آرا: فلتذهبي أنت فأنا لم ألتق بالمعلمة منذ سنوات وسأتحدث إليها. وعندما ذهبت شاه زماني قالت حسن آرا: أيتها المعلمة المحترمة إن أمي موافقة ولكن خالتي تريد أن تفسد الأمور، وأمي ترفض ما قالته: لأن هدفها الحقيقي هو أن تزوج أخي من ابنتها دلدار.

أصغري: هذا أمر يخضع للقدر والنصيب وهم يعرفون أصلنا، ولكن يا أختي حسن آرا: أنا لا أفكر في أمر لا أساس له، بل أري أن الارتباط بيننا ممكن وليستجب الله لنا إن بيتاً كبيراً مثل بيتكم وولداً وحيداً سيؤول إليه كل المال والعقارات يجب أن يتزوج من فتاة عاقلة ومدبرة لكي يعهد إليها بإدارة مثل هذا البيت الكبير. ومحمودة مع أنها من بيت فقير ولكنها ذكية ومدبرة يصعب وجود مثلها بين الأغنياء فإذا جاءت إلى منزلكم زوجة غير مدبرة ومعها جهاز كبير فسوف تواجه صعوبة في وضع وتنسيق جهازها التي حملته معها وبالتالي هل تستطيع أن تنظم أمور منزلكم؟ إن محمودة ما شاء الله يمكنها تنظيم أمور دولة، ويجب يا أختي حسن آرا أن تعاودي التفكير في هذا الأمر وهو بما أننا أقارب فيجب توثيق عري القرابة والاختلاط في الدنيا وألا يكون الزواج من خارج الأسرة وهذا الكلام قالته خالتك وجهاً لوجه ورأيها هذا سديد.

حسن آرا: أيتها المعلمة لقد تحدثت أنا وأختي مع والدتي حول هذا الموضوع بشكل جيد، والآن سوف أقول لأمي كل هذا الكلام، وأتمني أن يتحقق هذا الزواج.

المهم أن حسن آرا انصرفت بعد أن ألقت أصغري عليها درساً وأقنعتها ومن ناحية أخرى ذهبت شاه زماني إلى سلطانة وقالت لها: يا أختي لقد تحدثت بوضوح مع المعلمة بأنكم أنتم وهم غير متكافئين، وينبغي عدم الحديث في هذا الموضوع، ولكن شاه زماني لم تكن في قرارة نفسها تستطيع أن تتحدث عن ابنتها وكان هذا الموضوع قد وقر في قلب شاه زماني منذ فترة ولكنها تسعي إليه اعتماداً على عنصر القرابة وكانت تقول لما العجلة فأرجمند خان في المنزل وعندما تسنح الفرصة فسوف يتحدث الرجال، وفيما يتعلق بأمر محمودة فقد كان هناك اعتراض كبير بسبب فقرها، وفي النهاية غادرت شاه زماني المنزل وجلست سلطانة مع ابنتيها

للتشاور في الأمر فقالت حسن آرا: إن الكلام واضح فإن الخالة يا أمي تقترح أن يتزوج أرجمند خان من ابنتها دلدار جهان.

قالت سلطانة: أولاً عليكم أن تسألا أرجمند بدعابة.

استدعت جمال آرا أخاها وقالت له: ألا ترغب في الزواج يا أختي؟ تحدث هل ترضي بدلدار جهان؟

لم ينطق أرجمند ببنت شفة بسبب احترامه لأمه وحيائه منها، ولكنه أشار بالرفض لأختيه، وقد اتخذت جمال آرا وحسن آرا من رفضه حجه لهما فقالت حسن آرا: إنك لن تجد أية فتاة مثل محمودة من حيث الشكل والجمال والتعليم والذكاء وأنا أضمن لك ذلك ومسئولة عنه ولكن لا تنتظر من هؤلاء الفقراء المساكين جهازاً كبيراً وسريراً من الذهب!

سلطانة: إن رؤية الفتاة هو الأصل، إن منزلنا لا ينقصه أي شئ بفضل الله فماذا نفعل بالجهاز الكبير

جمال آرا: ماذا تفكرين؟ توكلي على بركة الله.

حسن آرا: مع أنهم فقراء لكن المعلمة إنسانة مدبرة جداً وتفعل ما تقوله وستسمو بمكانتها في الوقت المناسب.

سلطانة: حسناً عندما يأتي والد كما نتشاور معه فى هذا الأمر.

و عندما جاء حكيم فتح الله عرضت جمال آرا وحسن آرا قضية محمودة مثلما يقدم المحامي الماهر قضية موكله في المحكمة، المهم أن حكيم فتح الله استحسن أيضاً موضوع محمودة عندئذ أسرعت الأختان إلى أصغري على غير هدي، ولم تكن والدة محمد كامل لديها أي خبر عن هذه الموضوعات أصلاً فسألتهما قائلة: ماذا أيتها السيدة بيجم ولماذا تعدوان بهذه الطريقة؟ مهلاً مهلاً.

قالت حسن آرا: لا شئ سأصعد إلى المعلمة.

صعدت حسن آرا إلى أصغري وقالت لها: مبارك أيتها المعلمة أعطني الهدية (الجائزة)

قالت أصغري: بارك الله لكما أيتها السيدتان وسأمنحكما الهدية، إن هديتي هي الدعاء لكما ليل نهار وسأظل أدعو لكما ما دمت على وجه الحياة وقالت وعيناها مغرورقتان بالدمع:

اللهم أجعل عاقبتهما خيراً، وفقهما يا إلهي، وأسعدني أنا الحقيرة يا اللهم بارك لمحمودة في الدنيا والآخرة وارزقها الأولاد والأحفاد، وارزق يا إلهي محمودة العمر الطويل.

حسن آرا: لا أيتها المعلمة لابد اليوم أن تطعمينا حلوي.

أصغري: اجلسا وسوف أطعمكما الحلوي، ثم استدعت ديانت النساء وأخرجت خمس روبيات وأعطتهم لها في يدها وقالت لها أذهبي عند الحلواني واحضري أجود أنواع الحلوي عنده

و أعدت طبقان من الحلوى وأحضرت سلة الحلوى، والتقي الجميع أصغري وأكبري وحسن آرا وجمال آرا وأكلوا حتى البشم وأرسلوا ما تبقي منها إلى المدرسة، وعند رحيلهما قالت أصغري لهما لم أكن قد أخبرت أمي العزيزة حتى ذلك الوقت وسأتحدث معها الآن عن هذا الموضوع وإن شاء الله غداً يكون أفضل تاريخ وأنسب يوم ونعد لهذا اليوم طبقاً للتقاليد والأعراف، وانصرفت الأختان وقالت أصغري لحماتها: أمي العزيزة ألا تفكرين في أمر محمودة؟

الحماة: في ماذا أفكر؟ أنني عندما أجلس فى مكان ما أفكر في زواج محمودة من محمد صالح.

أصغري: أين محمد صالح وأين محمودة إن محمد صالح أكبر من عمر أخي العزيز.

والدة محمد كامل: نعم إن محمد فاضل أكبر من محمد صالح بستة أشهر وكل منهما ولد في عام واحد.

أصغري: وهل هذا فرق قليل؟

والدة محمد كامل: لكن لم يبعث أحد يخطبها.

أصغري: فكرت في موضوع ولو راق لك سوف أذكره عليك.

والدة محمد كامل: ما هو؟

أصغري: عن ابن حكيم فتح الله.

والدة محمد كامل: حسناً يا ابنتي نعيش في كوخ ونري القصور في الحلم أين نحن من منزل حكيم فتح الله إن عنده ما شاء الله ثروة لا يضاهيه فيها أحد في المدينة، وأين نحن الفقراء الذين نعيش في الكوخ أليس صحيحاً، وهل هذا الكلام سيرضي خاطرهم، فعليك قول الحق فإننا نخجل منهم.

أصغري: إن كانوا أغنياء فلأنفسهم، ونحن – لا قدر الله – لسنا عاله عليهم في شئ، هم نشوي من تناول أرز الزردة ونحن راضون بأكل العدس والبقول، أما في الأصل والنسب فلسنا أقل منهم، وفي العلم فإن محمودة – ما شاء الله – ليس لأحد نصيب منه مثلها.

والدة محمد كامل: يا ابنتي إن العلم يقف مكتوف اليدين أمام المال ولن نستطيع أن نقدم لها سريراً من الذهب، ومع ذلك امضي قدماً في هذا الموضوع ولا تفكري قط في ما يعيب علوي خان لقد أرسلوا الخطاب ولكنه رفض. يا ابنتي إن الفقراء يمكن أن يناسبوا الفقراء.

أصغري: إن الجمال أفضل من ألف ثروة ولو بحثوا في الأسرة لن يجدوا أفضل من محمودة حماها الله.

والدة محمد كامل: أنت يا ابنتي تتحدثين كالفتيات الصغيرات، وتسألين عن الجمال في مثل حالتنا وتقولين إن ابنتي جميلة ألم أدرك ما هو الجمال؟ انظري هناك فائقات الجمال ولا حظ لهن ولا يقدرهن أحد، وهناك قبيحات يرفلن في العز والسؤدد.

أصغري: وهل الجمال شئ لا يفتن به الإنسان ولكن أكثر الفتيات الجميلات سيرتهن سيئة ومزاجهن وطباعهن فاسدة فهل يفخرن بجمالهن؟ ولهذا السبب فإن سوء طباعهن يقلل من قيمة جمالهن، ولكن لو وهبها الله سيرة طيبة مع الجمال تكون سبحان الله نورا على نور مثل محمودة فهي جميلة الصورة والسيرة وتكمل إحداهما الأخرى ما شاء الله.

والدة محمد كامل: وأخيراً هل تريدين أن تضيفي شيئاً آخر؟ منذ فترة وجيزة وأنت تفكرين أنه لا يوجد مدرستك فتاة أعلم منها، وكانت محمودة تدرك معني ذلك فهي كمدرب الأفيال يجب عليها ألا تختلط بهم وإن فعلت ذلك فإنها سترفع بوابة البيت ليسمح بدخول وخروج الفيل، فنحن فقراء ولا نليق بأبهتهم، وليس لنا الحق في مجالستهم فما الحاجة إلى الاستهزاء بنا. وافرضي أنه تحقق هذا الكلام وظلت الفتاة هناك حقيرة في نظرهم ففي هذه الحالة نفقد المال ونشمت بنا الجيران.

أصغري: إن العزة والذلة ليست رهن بأي جهاز وأن الوفاق بين الزوج والزوجة شئ آخر، وهل أخذت جمال آرا جهازاً قليلاً! لكنها رغم هذا لم يكن لديها نصيب في البقاء في بيت الزوجية يوماً واحداً، ولماذا

نذهب بعيداً إن أختي قد حصلت على جهاز مساو لي فلماذا ظلت تتشاجر بشكل يومي إن ذلك راجع إلى مزاجها ولياقتها.

والدة محمد كامل: هذا ما أعتقد به وهو أن الحب والإخلاص بين الزوج والزوجة ليس رهناً على الجهاز ولكن أفراد الأسرة هم الذين يتحدثون عما جاءت به العروس وما لم تأت به وعندما تسنح الفرصة فإن الحماة وأخوات الزوج يتحدثون عن هذا وفي النهاية يتكدر خاطر العروس أما أهلها فيطأطئون رؤوسهم لأن الجهاز غالي الثمن، يثير غضبهم، لا يا بنيتي إن أحداً لن يوافق على إتمام هذا الزواج.

أصغري: ما دخل أهل العروس في ذلك؟ إن العائلة تجلس كل يوم قليلا عندها، أجل إنها ستواجه المتاعب بلا شك من خلال نقد الحماة وأخوات الزوجة ليل نهار، ولذلك فإن حسن آرا وجمال آرا لن يقوما بالنقد والتشنيع عليها بل سيذكرون محمودة بالخير وسيعاملونها معاملة طيبة وأنت ترين مثلما تحب حسن آرا محمودة فإن الأخت الكبرى جمال آرا تظهر لها الاحترام وتسعد بلقاءها، أما أنا فسأعتني بمحمودة عناية فائقة ما دمت على قيد الحياة، وأنا أريد أن تعتني محمودة بالحماة وأخوات الزوج وسوف يأتون لرؤيتها يكلف وشوق ولن يكون هناك أي مجال لينظر إليها أحد بعين السوء.

والدة محمد كامل: وفي النهاية ماذا يرضيك؟ هل أقوم بإحضار كئوس شربات الزواج؟

أصغري: لم أقصد هذا، فهل حدث شئ في أمر الزواج بين الفتى والفتاة لكي تحضري الشربات هذه هي تقاليد الدنيا، وأهل الدنيا يمدون أقدامهم على قدر الغطاء" وطبقاً للمقدر فإن الذي يستطيع أن يعطي لا يعطي من أجل الشهرة وإلا سيقوض دعائم بيته كلياً وهذا ليس من العقل بشئ. كانت هناك فتاة تدرس في مدرستي اسمها سلمي استقال والدها من عمله لعذر ما فتلقي من الحكومة مكافئة عشرة آلاف روبية لم يدخر منها شيئاً وأنفقها جميعاً وكان له ولد وبنت واحدة أنفق الشيخ العشرة آلاف روبية عليهما واقترض ألف وخمسمائة روبية فوقها والآن يمر بيته بضائقة مالية لدرجة أنه في حيرة من أمره لتوفير نقود للطعام وعند زواج سلمي استدعوني للحضور فبهت عندما رأيت الجهاز الثمين وقلت ربما لا تتقبل والدة سلمي كلامي، فقالت لي إن الولد والبنت فلذات أكبادنا ومن الضروري أن نسعى لسعادتهم

ولكني تأسفت لقولها، عندما جاءت سلمي قالت يا معلمتي ليس لي دخل بهذا الأمر.

قالت والدة محمد كامل: نعم، هذا صحيح ولكن يوجد أناس قليلو الحظ يعيشون في هذه الدنيا، فماذا نفعل وأين نذهب؟ ولو لم نفعل فستفعل الدنيا فلا أحد يشير إلينا بالبنان وقد سمعت الشيخ اسحق يقول في دروسه أن العرب في الجاهلية كانوا يئدون بناتهم عند ولادتهم.

أصغري: أمي الحبيبة، لماذا تذهبين بعيداً لقد كان الراجبوت في بلادنا يفعلون هكذا أيضاً، وقد توقفوا الآن بسبب منع الإنجليز لهم ورغم ذلك فقد سمعت مرات أنهم يفعلون ذلك في الخفاء.

والدة محمد كامل: ماذا يفعل العقل أنهم لا يتقبلون الغيرة.

أصغري: ماذا عن أمر الغيرة عند الفقراء، إن الفقراء كثيرون في الدنيا ولو لم يكن لديهم غيرة لكثرت أعداد من لا غيرة لهم، فالأغنياء والفقراء جميعا لكل منهم نصيب من الغيرة وهم متساوون فيها.

والدة محمد كامل: لو أن الحكومة تمنع الإنفاق ببذخ على حفلات الزواج لحسمت هذا النزاع.

أصغري: لقد علمت من الصحف أن أصحاب الحل والعقد من الإنجليز قد دعوا جميع أعيان المدينة وأخبروهم بالحد من نفقات الزواج وتحديد قيمة المهر وايقاف المصروفات الزائدة لأن هذا الأمر يتعلق بنا.

والدة محمد كامل: إن الإسراف والتبذير الذي تتحدثين عنه والذي رزقنا الله إياه لا يعد إسرافاً من وجهة نظرهم، نعم من ليس لديه مال فهذا بالنسبة له تبذير.

أصغري: لا تقولي هذا، يجب ترشيد المصروفات الضرورية في حفلات الزواج، فهناك روبيات كثيرة تنفق في أمور لا طائل منها إننا في أسرتنا ننفق آلاف الروبيات في حفلات العرس على الرقص والغناء والموسيقي والألعاب النارية والطبول وغيرها وبالتالي نخيب آمالنا ونبدد أحلامنا.

والدة محمد كامل: إن حفلات الزواج يقوم بها الزوج فأي إسراف عندنا؟

أصغري: إن حفلات الخطوبة والزفاف والحناء وارتداء الحلي والملابس المزركشة كلها إسراف.

والدة محمد كامل: لماذا لا تقولين مباشرة إن الزواج كله فضول.

ابتسمت أصغري وقالت: الزواج ليس فضولاً ولا شك أن من لا يلتزم به غير محق.

والدة محمد كامل: حسناً، إن التقاليد هي التقاليد ألا تقولين إن الملابس والحلي فضول وإسراف.

أصغري: الملابس الخالصة والحلي المحضة هي أشياء مفيدة، ولكن كوني عادلة وقولي ما فائدة مجموعات الثياب المكدسة، وأنا نفسي بليت مجموعة ثيابي فقد كان قلبي التعيس ينقبض من لبسها في المنزل، وأرتديها نادراً الأعياد كعيد الأضحى وأحيانا في حفلات الزواج، وتبقي أحد عشر شهراً موضوعة في الصناديق ولا تري أشعة الشمس في أغلب الأيام ولو أردت بيعها فليس لها ثمن، كما أنها لا تصلح لأعمال البيت، وهذا هو الحال بالنسبة للحلي، وقد سمعت أن ابنة مولوي كفايت الله قد فعلت ذلك في زواجها فأعجبني مثل هذا الزواج.

والدة محمد كامل: ومن هو مولوي كفايت الله؟

أصغري: هو مدير مدارس البنات.

والدة محمد كامل: لعله ليس من سكان المدينة.

أصغري: لا، هو من سكان نواحي "أجرا" وقد أحضر معه زوجته وأولاده، وكانت ابنته قد خطبت في هذه المدينة، وكانت زوجته ترغب في الذهاب إلى مدينتهم للاحتفال بالزواج هناك، ولكن مولوي كفايت الله أقنع زوجته وأرضاها وعندما وصل الضيوف المدعوون إلى المنزل بعد سفر شاق لمدة يوم وعشرات الأميال علموا بزواج الابنة، وبعد فترة وجيزة اصطحب صهره وأقام مراسم الزواج طبقاً للشريعة الإسلامية وتم الزواج على خير ومنحه جهازاً كبيراً، وبعد الزواج أخذ مولوي كفايت الله خمسمائة روبية نقداً وأعطاها لزوج ابنته وقال له يا أخي هذا القدر هو نصيبك من دخلي ولو أردت فإنني أقوم بواجب الضيافة وطبقاً لعادات الدنيا فإنني أجهز مجموعتين من الثياب الخاصة بالعروس، ولكنني فكرت وتراءي لي أنه من الأفضل أن أعطيك روبيات نقداً والآن عليك أن تستعملها كما تريد.

بعد أن استمعت والدة محمد كامل إلى هذا الكلام تحدثت قائلة: نعم، إن مولوي كفايت الله يفعل ما يريد في الغربة فمن يستمع إلى كلامه.

أصغري: إن زوجته استمعت لكلامه، وهل يتوقف هذا على الغربة، إنه يريد العمل بهمة، وقد مر على المدينة ووجد المتحدثين يثرثرون فأنجز عمله.

والدة محمد كامل: هل اقترحتى زواج محمودة بهذه الطريقة التعسة الحزينة.

أصغري: لا شك أنني لا أهتم بما يقوله الناس، ولو أنني أقدر على هذا لجعلت زواج محمودة على غرار زواج ابنة كفايت الله، وكان قد دعي بضعة ضيوف، وفي رأي أن هذا أيضاً غير ضروري.

والدة محمد كامل: لا يا ابنتي بالله عليك لا تغضبيني إلى هذا الحد أيكون هذا هو زواج ابنتي وأنا في هذه الشيخوخة، وهل سآتي من القبر للاحتفال بالزواج؟

أصغري: لا، ليست هذه رغبتي، ولكن لا شك أن هذا الكلام ضروري، ولقد عقدت النية في قلبي على ألا أقترض بيسة واحدة ولا أرهن أي عقار أو أملاك بل أبقي على كل شئ كما هو وسيتحقق كل شئ في الوقت المناسب طبقاً لما هو مقدر له وهذا يكفي.

والدة محمد كامل: سبحان الله، ما هذا الكلام؟ ولكن عندما يرضي بذلك أهل الزوج.

أصغري: وإن رضوا بذلك؟

والدة محمد كامل: هل رضاهم مداعبة؟ اللهم آمين فنحن لا نعرف الابن وما الهمة التي في قلوبهم وسوف نتحدث معهم بعد زيارتهم للمنزل والمواجهة المتكافئة، وسوف تتحقق جميع الأماني.

أصغري: إنني أخطط لهذا الموضوع منذ أن رجعت من سيالكوت، وجميع الأمور هناك على ما يرام وقد أسرعت جمال آرا وحسن آرا بالمجئ إلى وقد وافق الحكيم فتح الله خان، واتخذت السلطانة بيجم العديد من التدابير من خلال ابنتيها وبفضل الله تكون مؤثرة، ويجب ألا نتأخر الآن، ويوم غد مناسب وستأتي الحلوى من هناك فقد أصبح الموضوع مؤكداً، ومن ثم تتم إجراءات الزواج.

ظلت والدة محمد كامل فى حيرة من أمرها بعد سماعها هذا الكلام وقالت هذا كلام طيب للغاية، إن مؤهلاتنا أفضل في بعض المواضع، ولكن توفير الجهاز اللائق بهم يكون مشكلة بالنسبة لنا.

أصغري: الله مسبب الأسباب، عندما يكون لمحمودة نصيب في مثل هذه الأسرة الثرية فسوف يهئ الله بقدرته الجهاز اللائق في الوقت المناسب.

والدة محمد كامل: عندما يأتي أقارب الزوج سوف نستفسر منهم عن الحلوى.

و بعد فترة وجيزة حضر السيد محمد فاضل وسعيد أيما سعادة بعد أن سمع بخبر الخطوبة وقال: لا شك أن الحلوى قادمه بعد غد، وأرسلت أصغري إلى حسن آرا الدعوة باليوم المحدد بأن تحضر بخمسةٍ "من"، ومائة روبية، ومن هنا "من" وربع حلوى ومائة وخمسة وعشرين روبية. ويهنئون ويباركون كل جانب.

(٣١)

زواج محمودة

بعد أن تمت خطبة محمودة بدأ حكيم فتح الله خان في إجراءات الزواج وأرسل دعوة إلى مولوي محمد فاضل وقال له: أرغب في الذهاب إلى الحج منذ فترة وكنت أنتظر هذا الوقت فالحياة لا قيمة لها، وأريد عقد القرآن في شهر رجب. استشار محمد فاضل أصغري فقالت أصغري: هذا صحيح يجب عليه إرسال الدعوة، ونحن نفكر بقدر المستطاع في تدبير الجهاز المناسب لها ولو تمكنا من تدبيرة في هذه الفترة فإننا نكون قد قمنا بأداء آخر الفروض وبالتالي من الأفضل أن يتم الزواج بسرعة. لقد أرسل لنا حكيم فتح الله يقول: أنا لا أرغب في جهاز ومتاع فأنا أريد الفتاة فقط لا الأمتعة المصاحبة لها فلا تفكروا في أمر الجهاز. ووصل لهم الرد من هنا: أنه مناسب جداً ونحن أيضاً نوافق عقد القرآن في شهر رجب.

تحدد الزواج في يوم ٢٧ رجب وبدأ كل جانب يعد العدة للزواج وأخذ محمد فاضل يفكر فكان أحياناً يقول نقترض من هزاري مل، وكان أحيانا يفكر في بيع المنزل أو رهنه، وعندما رأت أصغري مولوي محمد فاضل مضطرباً سألته: ما تدبيرك للزواج؟

قال محمد فاضل: ماذا أقول لك إن موعد الزواج يداهمنا وليس معنا روبيات تفي بهذا الغرض فطلبت روبيات من هزاري مل فأخذ يسوف ويماطل، وعرضت المنزل للبيع فلم يظهر له أي مشتر.

قالت أصغري: لا تقترض مطلقاً، ولا ترهن البيت ولا تبيعه فليس هناك أي شئ أسوأ من القرض، وإن كان تبديد العقار أمر صعب، ولكن الحصول عليه أصعب.

محمد فاضل: لو لم أحصل على القرض أو أبيع المنزل فهل أنا ساحر أو أعلم ما في يد الغيب؟ فمن أين أحصل على الروبيات؟

أصغري: أنظر أولاً في حساب المنزل لقد أعددنا الملابس من قبل وسنجري بعض التعديلات عليها لتصبح على مقاس محمودة ولدي من مجموعات الثياب الكثير فنأخذ الصالح منها وسوف تكفي هذه الملابس لمحمودة، والأواني موجودة ولا داعي للشراء، وبالنسبة للجهاز والأمتعة التي أحضرتها معي فإنني أري أنها بلا فائدة وقد تفسد وأنا أستعملها، وفي النهاية هل عندك أية روبيات نقداً؟

محمد فاضل: معي خمسمائة روبية فقط.

أصغري: هذا يكفي، فعندما ما سافرت إلى سيالكوت كان في المدرسة مبلغ أربعمائة روبية وضعتها على سبيل الأمانة أبقيت منها مائتى روبية لي، ومائة وخمسين روبية من حق أبي. وتلقت محمودة مائة روبية فأصبح في المدرسة مبلغ خمسمائة روبية، وقد كتبت خطاباً لأخى محمودة الصغير لكي يحضر في ذلك الوقت ألف وخمسمائة روبية، وحصلت على أساور ذهبية بألف روبية عندئذ زواج حسن آرا أستعملها في أي عمل. وكنت أود أن أعطيها لمحمودة ولكني فكرت في أنه لا يبدو من المناسب أن تأتي من هذا البيت وتذهب إلى نفس البيت ونعرضها للبيع. وأرسلتها إلى السوق بمعرفة تماشا هانم فأعطاها "بنامل" ألف وثلاثمائة روبية، ومن حسن حظ محمودة أنها لو طلبت أي شئ ستجده وإن شاء الله ستحصل على ألف وخمسمائة روبية، وقد دار بخلدي فكرة أخرى وهي أن تسافر إلى لاهور لتحضر أخا محمودة ويطلب إجازة من الأمير لزواج أخته. والأمير رجل كريم جداً وآمل أنه لابد أن يساعده فقد اعتادت الحكومة والإمارات الهندية دائماً على تقديم العون لموظفيها المعتمدين في مثل هذه المناسب.

المهم أن أصغري أرسلت حماها إلى لاهور، وذهب محمد فاضل إلى الأمير للسلام عليه فسأله الأمير قائلاً: لماذا جئت يا مولوي محمد فاضل؟

قال محمد فاضل: سيعقد قران ابنتي ولهذا الغرض جئت لكى أطلب إجازة لمدة شهر لمحمد عاقل، وأنا لا أستطيع أن أطالب بمشاركة أحد من أفراد أسرتكم، ولكن لو حضر نائبك الذي في دهلي الحفل من قبل الحكومة يكون زينة الحفل ويكون سبباً في الرفع من شأني بين الناس.

وافق الأمير على إجازة لمحمد عاقل ومنح مولوي محمد فاضل مصاريف السفر، وأرسل نائبه للمشاركة في حفل مولوي محمد فاضل من قبله وأعطاه خمسمائة روبية هدية، وهكذا فقد حصلوا على خمسمائة روبية دون عناء فجأة بسبب مشورة أصغري وفكرها الثاقب، ومن ناحية أخرى اشترت الأميرة هانم زماني بيجم الأساور من تماشا هانم وعادت وقد سلمتها ضعف ثمنها، والآن صارت الروبيات تتدفق من كل جانب، وتم تفصيل مجموعة ثياب غالية الثمن تحت إشراف أصغري وأقامت زفاف عظيم لمحمود لم يحدث مثله في منزل مولوي محمد فاضل منذ عدة أجيال،

وقد بهتت أسرة العريس بعد روية جهاز العروس فقد كان الجهاز ثمينا وكثيرا ومتنوعا.

غادرت محمودة بيتها ولقبت في بيت زوجها باسم "قمر آستاني"، وكان حكيم فتح الله خان رجلاً من أهل الله وتقيا ورعا، وقد عزم على الحج منذ وقت طويل ولكنه كان ينتظر فقط زواج ابنة أرجمند خان، والآن بعد أن تم الزواج ذهب لأداء فريضة الحج، وقد رأى أن زوجة ابنه ذات أخلاق حميدة ولم تكن هناك حاجة للسؤال عن طريقتها في الحياة فقد تربت في رعاية أصغري وقد أعجب حكيم فتح الله بها وبحسن إدارتها للمنزل ولعقلها وأنها تجيد جميع أعمال المنزل فقد قدمت لهم الشمام بطريقة جعلته يبدو أكثر حلاوة حيث ابتكرت محمودة طرقاً أكثر من التي تعلمتها من أصغري، وعندما رأي حكيم فتح الله أن زوجة ابنة عاقلة ومدبرة وسوف تتولى زمام المسؤولية في المنزل بدأ فجأة في اتخاذ الترتيبات للذهاب إلى بلاد العرب بكل همة وعنفوان وكان قد بيت النية على الحج أو عقد العزم على الهجرة وأخذ معه جزءا من أمواله نقداً وكتب جميع أملاكه من عقارات ودكاكين وقري وقصور باسم ابنه، وقد حذره الأهل والأقارب من هذا ولكنه لم يستمع لأحد وأعطي جميع ممتلكاته لابنه وزوجة ابنه ورحل في سبيل الله. وبالرغم من أن محمودة كانت قد تزوجت لكنها كانت تحترم أصغري أكثر من ذي قبل، وتستشير أصغري في كل أمورها، والآن فقد سنحت لها الفرصة لكي تجرب آراء أصغري السديدة فلديها منزل كبير وأعمال كثيرة وبسبب حسن تدبيرها أصبح زوج محمودة أرجمند خان وزيراً في حكومة الملك في ذلك الوقت ولم يكن أي مسئول حكومي يأتي إلى دهلي دون أن يقابله، وكانت أصغري حتى ذلك الوقت في حالة إفلاس فأي خير يأتي من اليد المغلولة وأي مشي يرجى من القدم المكسورة، ولكن محمودة حفظها الله كان العز والثروة من نصيبها ولكنها لم تنس ما فعلته أصغري لها من ترتيبات وتنظيم لأمورها، وفي هذه الحالة تقول سوف أذكر أعمال هذه السيدة طوال حياتي وسأدعو لها حتى يوم القيامة، ولكن للأسف ليس لدي الفرصة لكتابة ذلك، ومع هذا فإن الإنسان إذا اعتقد في النصيحة واستمع إلى الكلام ووعيه تقل عنده الحاجة إلى الكتابة بهذا القدر حيث يوجد بداخله جميع أنواع التعليم، وكل أشكال الرأي والنصيحة، إننا نقول أنها قصه وحكاية ولكنها في الحقيقة النصح والمشورة.

(٣٢)
نصيحة غالية تتعلق بالأولاد

والآن هناك أمر آخر لابد من ذكره قبل ختام هذا الكتاب وهو أن أصغري أصبحت أماً في سن مبكرة جداً ولا تذكر لها أولادا حتى الآن، فقد أنجبت أصغري أطفالاً كثيرين ولكن بإرادة الله لم يعش إلا القليل منهم وهو ولد واحد فقط هو محمد أكمل الذي بقي على قيد الحياة وتزوج من مسعودة ابنة محمودة، وقد ولد هذا الولد بعد أطفال كثيرون، ومات قبله ولد هو محمد عادل، وابنة هي "بتول" رغم أنها كانت تحتاط في تربيتها للأطفال وتحافظ عليهم من الحر والبرد وتعتني بنوع الطعام وتقدمه في وقته ولا تطعمهم أي شئ ردئ وكانت تفصد لهم في اللثة عندما تبدأ أسنانهم في الظهور حتى لا تألمهم أسنانهم ولم يتعد الطفل أربعة سنوات وأصيب بالحصبة ولم يشف منها، المهم إن الإنسان مهما يستخدم عقله ويقوم بترتيبات فإن أية حكمة لا تغني أمام قدرة الله فقد مات محمد عادل في الرابعة من عمره وقد أصيب بالمغص والحمي وأعطته الدواء ولكنه فارق الحياة، ثم ألمت بها مصيبة جديدة حيث مرضت "بتول" بعد أن صار عمرها سبع سنوات وقد أحضرت لها أدوية كثيرة ولكن متى شفي الدواء الموت؟

فتعاطت الدواء لمدة أسبوع ثم ماتت، وكان موت بتول صدمة كبيرة لأصغري أولاً لأنها ثاني طفلة تموت لها وكانت متعلقة بأمها لدرجة أنها لا تفارقها للحظة، فكانت تجلس على المصلاة عندما تؤدي الأم الصلاة، وتنام معها وتنهض معها وكانت تتذوق دواء الأم وكانت مهتمة بالقراءة رغم صغر سنها وبدأت في قراءة ترجمة معاني القرآن، وعندما مات محمد عادل بدأت النسوة يشككن في إيمان أصغري، وتقول إحداهن إنها تتعالج عند قمر على شاه من مرض في الخصر، وتقول الأخرى إن نظرة الحسد غيرت اللبن لذا فهو يعالجها من الحسد، وتقول الثالثة إن أصغري تذهب إلى هضبة التبت لكي يعالجها الشيخ رمضان شاه من مس الجن، وتقول الرابعة إن البيت ليس طاهراً وقد جاءوا بالشيخ عالم ليباركة، وتقول الخامسة لقد تشبثت بها إحدى الجنيات عندما سافرت إلى سيالكوت ولهذا فهي تبحث في الدنيا عن الناس الذين يقومون بعمل التعاويذ والتمائم والأحجبة، ولكن بالرغم من وفاة طفلين متتاليين لأصغري لكنها ظلت شاكرة لله وعندما كان أحد ما يتحدث معها كانت تقول: " إن الله تعالى يستطيع أن يرزقنا عندما يشاء". وعندما علم دور انديش خان بوفاة بتول اضطرب كثيراً وكتب هذا الخطاب لابنته وهو في هذه الحال من الحزن.

(٣٣)

خطاب إلى أصغري

حبيبتي أصغري هانم بعد الدعاء لك، لقد علمت بخبر وفاة بتول من خطاب جاءني من دهلي، ولا أستطيع أن أنكر هذا الأمر بأني لم أتألم ولكن عقلي لم يكن يستوعب هذه الصدمة وتحاملت على نفسي بفارغ الصبر حتى لا أكون كالدهماء من الناس، وأنا لا أندهش من أن يكون مصابك جلل ولكن في هذه الحالة ينبغي على الإنسان أن يستفتى عقله، ولقد منحنا الله العقل وعلينا أن نستمد العون من عقلنا في السرور والحزن. ومن الضروري أن نمعن النظر جيداً في أحوال الدنيا، ولن يخلو هذا التفكير من فوائد، والدنيا مصنع كبير ففي الدنيا مخلوقات لا تعد ولا تحصى كالأشجار والحيوانات والإنسان والبحار والغابات والجبال والسماوات والأرض، والشمس تسطع بالنهار كالمعتاد ثم يحل الليل، ويتلألأ القمر والنجوم، وهي حارة حينا وباردة حينا آخر وممطرة حيناً ثالثاً وتنبت الورود والأزهار ذوات ألوان وأنواع مختلفة بتأثير الماء، فهي في وقت من الأوقات متفتحة ونضرة ثم تذبل وتجف، إن الذين يفكرون في كل أمر يكفي التفكير في الغد، وهل قليل أن يفكر الإنسان بنفسه في أحواله؟

فلماذا يولد الإنسان، لماذا يتربى ويترعرع ويكبر وكيف يمر بمراحل الطفولة والشباب والشيخوخة، وكيف يرحل في النهاية عن هذه الدنيا، هذا موضوع هام وجذاب وصعب فلمصلحة من خلق الله الدنيا وستظل هذه الدنيا ما دامت هذه إرادة الله ويتضح من الاحصاء السكاني أنه يموت في العالم ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة إنسان في الساعة أي أنه سيولد إنسان واحد في كل ثانية، ولتحسبي الآن أنه في شهر واحد فقط يولد ويموت في الدنيا مئات الآلاف ثم أمعني النظر في هذه العجلة التي تدور منذ سبعة آلاف سنة أي ما لا يحصي من البشر قد رحلوا عن الدنيا حتى الآن لذا فالموت أمر طبيعي وحتمي فأكبر الملوك وأعظمهم والعلماء والعديد من الحكماء بل حتى الرسول عيسى عليه السلام الذي أحيا الموتى لم يستطع أن ينجو من الموت بنفسه، والذي يولد في الدنيا يموت ذات يوم طبقاً لأمر الله، وإذا أصابنا هذا الحكم يوماً أو أصاب عزيزا أو قريبا لدينا فليس لنا أي حق في العويل والشكوى هذا ليس موضوع عابر فأمعي التفكير فيه وعندما يتضح لك حقيقة الموت فستدركين أنه لا طائل ولا فائدة من الحزن على أحد مات، والتألم على موت شخص ما رهن بالعلاقة معه، فلو سمعنا على سبيل المثال أن ملك الصين قد مات فلن نتأثر قط بهذا الخبر

والسبب في ذلك أنه لم تكن هناك أية علاقة تربطنا به، ولكن لو مات في الحي أي رجل غريب ليس بيننا وبينه أي نوع من العلاقة فأننا نتألم قليلاً بل ربما لا نتألم. المهم أننا نتألم لموت ذلك والشخص الذي تربطنا به علاقة، وبقدر ما تكون العلاقة قوية بقدر ما يكون الألم أكثر. إننا نحزن ونتألم لوفاة بنت الأخت والعمة والخالة وبنت الأخ والجدة لأنهم قريبون منا وتتوقف آلامنا على صلة القرابة قرباً أو بعداً ويكون الحزن بسبب المودة والحب، وينبغي التفكير الآن بأي شخص تكون علاقتنا أكبر؟ فليس هناك أية ضوابط تحدد ذلك، والنزاعات المستمرة تفسد دائماً صلة القرابة ومثل هؤلاء الأقارب لا يعدون أقارب، فالمودة والمحبة تتضاعف مع الأقارب وكل شخص له علاقة خاصة وفقاً لأحواله فهذه العلاقات الدنيوية جميعها تنشأ بسبب المصالح والأهداف، فلو لم يستطع أقاربنا أن يفيدونا فلابد أن هناك خللا ما، وبهذه الطريقة لو أن أحداً من غير الأقارب ساعدنا في عمل ما يصبح عزيزا علينا كالأقارب، ولكن الفائدة التي تنشأ من هذه العلاقة ليست بالضرورة قائمة على النواحي المادية فحسب فمع أن أكثر العلاقات من هذا النوع وأحياناً تنشأ علاقات بهذا التوقع والأمل، وكثير من الناس أصدقاؤنا لا نعطيهم شيئاً ولا يعطوننا ولكن نتوقع أحياناً أننا بحاجة إليهم بأي شكل من الأشكال لمساعدتنا ونتيجة لهذا تنمو العلاقة. ويمكنني الإسهاب أكثر في هذا البحث وهذا البحث مناسب بقدر الإطالة فيه ولكن هدفي الحقيقي من هذا هو البحث في العلاقة مع الأولاد فقط، ولو سنحت الفرصة لي فإنني إن شاء الله سأكتب كتاباً عن هذه العلاقة وسأرسله لك.

هذه العلاقة مع الأولاد علاقة عامة وفطرية لا يفتقد إليها أي أب أو أم بل حتى أي حيوان ويتضح من هذه العلاقة أنها منزهة عن أي غرض أو مصلحة بل أن رب العالمين يريد أن يغرسها فيهم ويجعل الآباء والأمهات يحبون أولادهم لأن الأولاد في حاجة إلى التربية لعدة سنوات ولكي تكون تربية الأولاد سليمة فعلي الآباء والأمهات أن يحبوا الأولاد ويقتضي هذا الحب تربية الأطفال ورعايتهم وعندما يكبرون يبدءون - هم - في تعمير الدنيا بأنفسهم أي أن تربية الآباء والأمهات للأولاد هي خدمة لهم، وتربية الأولاد تتعلق فقط بما يمنح للآباء والأمهات من قبل الله تعالى فالإنسان يتمني أن يرزق بالأولاد الآن ويهتم بتقديم الدواء والعلاج لهم تارة، والدعاء وعمل التمائم والتعاويذ تارة أخرى أو يفكر في كون الأولاد ذكورا لا إناثا، أو أن يظل الموجود منهم على قيد الحياة، فالإنسان نفسه يطمع في حرصه ويتمني الأولاد دائماً الذين ينشأ في قلوبهم رضي الله، إذن ما فائدة وجود الأولاد؟ لا شك أن هناك فائدة وهدفا من وجودهم ولكن الفوائد عدة أنواع

فالبعض يعتقد أن الأولاد هم تخليد لأسمائهم، ويري البعض الآخر أنهم العون والمدد لهم في شيخوختهم، ويفكر فريق ثالث أنهم سيأخذون أموالهم وثرواتهم من بعدهم، ففكري الآن في تلك الأفكار وكم هي خاطئة وعقيمة، فما معني تخليد الأبناء لأسماء آبائهم إلا أن يعرف الناس أن فلانا هذا ابن فلان حفيد فلان. أولاً إننا أنفسنا لن نخلد في الدنيا سواء يعرفنا شخص ما أو لا يعرفنا، علاوة على هذا فكرى فى هذا الأمر إلى متى يخلد أسماءهم؟ فلو سألتى إنسانا ما عن اسم آبائه وأجداده ربما يستطيع أن يخبرك بجده فقط ولا يعلم هو نفسه أكثر من هذا وأي من أجداده كان من العظماء، والأمر الثاني هو أن الناس يحتاجون إلى نبش عظام موتاهم، ولنفرض أن اسمه سيخلد لجيل واحد فذلك خير، ولكن تخليد أسمائهم لجيل واحد يعد ضرب من ضروب الخيال، فأنا في المنطقة الجبلية منذ عشرة سنوات ويعرفني آلاف الناس وأعرف آلاف البشر، ولكن لا هم يعرفون أبي، ولا أنا أعرف آبائهم فلم يسألني أحد عن اسم الأب ولم تكن هناك حاجة للمسؤول عن ذلك.

و السبب الثاني بالنسبة لتمني الأولاد هو أنهم يكونون العون والمدد في الكبر وهذا أيضاً خيال محض ولا أساس له، وهل نحن متأكدون من أننا سنعيش حتى يكبروا أو أنهم سيظلون على قيد الحياة حتى شيخوختنا، ولو فرضنا أننا بقينا على وجه الحياة فهل يساعدنا الأولاد؟ فهذا أيضاً مجرد خيال، ففي تلك الأيام يوجد أولاد قليلون يحترمون آبائهم وأمهاتهم أو أن الذين يفكرون في تأدية خدمة للوالدين فإن هذا الاحترام والقيام بخدمتهم تكون على الهامش، وفي الوقت الحاضر كثير من الأولاد يؤذون آبائهم وأمهاتهم ويؤلمونهم، فإن الأولاد الذين يتمناهم الناس يتعذبون على أيديهم من البداية إلى النهاية، فعندما يكون الأولاد صغارا تكون تربيتهم صعبة فهم اليوم يعانون من آلام في عيونهم، وأحياناً لديهم آلام في الضلوع، وأحياناً أخرى تنبت أسنانهم وأحياناً ثالثة يصابون بالحصبة، وعندما يكبرون بعد جهد وعناء فإنهم لا يفكرون إلا في طعامهم وملابسهم، ولا يعلمون كيف حال الأب، وهل لديه وظيفة أم لا؟ وهل عنده نقود أم لا؟ ومهما كان الآباء والأمهات في عوز وفقر فأنهم يلبون طلباتهم بقدر الإمكان في الأعياد والمناسب والاحتفالات وتزداد مطالبهم المادية يوماً بعد يوم فلا يفكرون إلا في الطعام الفاخر والملابس الغالية الثمن. ويريد الآباء والأمهات أن يعلموا الأولاد وغالباً ما يكون الولد شقيا فيهرب من اسم التعليم ومن المدرسة ويختفي عن أعين الأستاذ مع رفاق السوء في مكان ما ويذهبون ليلعبوا على حافة النهر أو يتجولوا ويلعبوا في التراب في الأسواق، وعندما يكبر

قليلاً يبدأ في الرد على الأب والأم ولا يتحاشى مصادقة أطفال سيئى الخلق، ولا يهرب من صحبة السوء فيسيئون إلى سمعة آبائهم وأجدادهم وهكذا يتحول بعضهم إلى قاطع طريق وخليع ولص وشارب للخمر، وعندما يصبح الأولاد مؤهلين للزواج فأنهم لو بحثوا لهم في سائر أنحاء المدينة عن عروس ترضي بهم فلن يجدوا حتى ولو كلفوا الخاطبة بذلك وبعد أن يمني الواصلون له بالفشل يبارحون مكانهم ويتشاور كل فرد من أفراد الأسرة فلا يرضي به أحد لأن روحه أصابها خلل وتتجه الأم المسكينة إلى كل مكان وتتضرع لأهل الله، وتقدم النذور للدجالين لفتح المندل لكي يتزوج من عروس ما وتدعو الله في الأوقات الخمس أن يرسل لها من الغيب من يساعدها بعد جهد جهيد والأم المسكينة في هذا الوضع المزري وليس عندها مال لزواجه وأهل الزوجة يطالبون بجهاز غال وعندئذ تجد نفسها قد تورطت في الزواج ويقول المثل: "أسلم العصفور الروح ولم يجد الآكلون لذة في الطعام" ويقول أهل الزوج أليست لديها القدرة على الجهاز فما ضرورة زواجها فلا يحتفي بها أحد ويقدحون فيها قدحاً وعندما يحضر صهرها لا تهتم به ولا بحماها ولا تقول من يفسل يديك قبل الطعام، وتدب الخلافات بين الزوج وزوجته ويستمر العراك والشجار لا ليوم واحد بل طوال العمر وتستمر المعاناة، وعندما تبدأ الابنة في إنجاب الأطفال وتصبح أما وتكون خادمة بلا أجر طوال عمرها، وتظل تعاني من تربية أولادها والأب بعد هذا الجهد لا يظفر بالراحة لمدة سنتين ثم تتولى مسئولية رعاية أحفادها من ابنتها، ولو جاءت الزوجة وكانت فاسدة وشريرة فإنها لن تعتبر الحماة مساوية للحذاء وتعامل أخوات الزوج بتعالي، ولا تلتزم الأدب مع الأخ الأكبر ولا مع الحماة وتهتك حرمة الرجال والنساء، لقد حفظك الله من ابن عاق يري زوجته تفتعل المشاكل والفتن ويدافع عن هذه الزوجة الشريرة وعلى العكس من ذلك يتشاجر مع الأب والأم إلى أن يترك الأب والأم اللذان لا حول لهما المنزل ويؤجران بيتاً منفصلاً، وهذه هي النتيجة التي يجنيها الأب والأم في ذلك الحين وقليل جداً من الناس يجدون الراحة مع الأولاد ولكننا نحن الآباء نتمنى الأولاد بحماقتنا وكأننا نتمنى المصائب والمتاعب ثم نستدعيها.

ويبقي الآن فكرة تمنى الأولاد لوراثة الأموال والثروة، وقد اتضح أن هذه الفكرة لا أساس لها وأكذوبة وخرافة، وماذا يحدث عندما يرحل الإنسان نفسه عن الدنيا ويأخذ أولاده ثروته أو تأخذها الحكومة لأنه لا وارث له، فإن الثروة في النهاية لن تفيده إلا المال الذي ننفقه في سبيل الله تعالى أو الذي يصرف في سبيل الله باسمنا من بعدنا، وما دمنا لم نصرف ثروتنا

بأنفسنا وسنترك مثل هذا العمل الضروري تحت مسئولية الأولاد فإنه لن يكون هناك أحمق منا لأن الأولاد لن يتوانوا في تبديد تلك الثروة التي ورثوها دون تعب عن الأب والأم، فالمرء يقدر المال الذي يكسبه بقوة ساعده وعرقه، أما المال الذى يكسبه دون تعب فإن مصيره كأى مال لم يتعب فيه الأولاد فينفقونه في الرقص والتنزه. وكان يجب أن يتصدقوا ببعضه على روح الأب ويقرءوا الفاتحة، وتوجد أمثلة عديدة في الدنيا لأناس ظلوا طوال عمرهم يجمعون المال بحرص وبخل ثم أضاع الأولاد ما حصلوا عليه من مال وبددوا في عدة أيام ما جمعه الأب طوال عمره.

و لعله قد اتضح من هذا البيان أنه بقدر ما تزداد في قلوبنا علاقتنا بالأولاد فإن ذلك يكون مضرا جداً بالنسبة لنا، ولقد أمرنا الله بالارتباط بالأولاد بهذا القدر ما داموا يحتاجون إلى مساعدتنا وأن نحسن تربيتهم وبهذه التربية نأمل ألا نبارح مكاننا في قلوبهم وأن يقوم الأولاد برعايتنا عند الكبر عوضاً عن هذه التربية، إن تحقيق هذه الأمنية تعد من أشد درجات الجهل، إننا في تطبيقنا لهذا الحكم يكون الأولاد كصاحب الحديقة ونحن كالبستاني لهذه الحديقة فلو أمر صاحب الحديقة بتقليم أي شجرة أو قطعها فإن البستانى لا يملك أن يعترض ويقول إننى قمت بتربية هذه الشجرة بعناء شديد فلماذا تقلم وتقطع؟ إن جميع علاقتنا في الدنيا تخضع لهذه الوسيلة إننا سنرحل عن هذه الدنيا في وقت قصير ولهذا يجب أن يفيد الإنسان منا الآخرين وإن كان لدينا أب أو ابن أو أخ فإنهم لمساعدتنا وسيتحقق ما هو مقرر أن نأخذه في حياتنا فالدنيا ليست دارنا وسنرحل إلى مكان آخر ونستقر فيه فلماذا تأسف لوفاة الأب أو الابن، يجب أن نأسف لبقائنا هنا ونحن أنفسنا سنسافر ولا نعلم ساعة السفر ومتي يحين وقت الرحيل وأصبح شئ في هذا الموت ليس خروج الروح من البدن وكأن الروح لا ترحل إلى مكان ما، إننا سنحاسب على كل شئ في الدنيا، فاللسان يشهد على الكذب والغيبة والحلف والفحش من القول والثرثرة، وستعاقب العين على النظرة السيئة، وسينزل العقاب بالأذن نظير سماعها للأغاني وكل ما هو سيئ، وستقطع اليد التي امتدت إلى مال حرام أو اعتدت على أحد ما وستقيد الأرجل التي مشت في طريق الضلال فلينحنا الله بفضله من المهالك في ذلك الوقت العصيب، إن الذي ينتهي من هذه الأمور هو على صواب سواء حزن لموت أحد أو فرح لولادة آخر، ولا يوجد أحد في الدنيا لا يفكر في عاقبته، وعليك أن تعلمي يا أصغري بهذا اليوم وتعدي العدة له حيث لا يفيدك شئ سوي عملك وأدعو أن يجعل رب العالمين عاقبتنا خيراً ويحسن ختامنا بشفاعة حبيبه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والدك المذنب

دور أنديش خان

تمت الرواية.

فهرس الرواية

٢٢. (أصغري تمنع زوجها من اللعب وتوجه اهتمامه إلى التعليم)

٢٣. افتتاح أصغري مدرسة للبنات

٢٤. منهج التعليم في مدرسة أصغري

٢٥. حكاية ممتعة متعلقة بإدارة المدرسة

٢٦. أصغري تنصح زوجها بأهمية الوظيفة

٢٧. ذهاب محمد كامل للعمل خارج الولاية بالتشاور مع أصغري وحصوله على الترقية.

٢٨. تشرد محمد كامل، وذهاب أصغري لا صلاحه، وعند ذهابها سلمت مسئولية البيت إلى أخت زوجها

٢٩. تقاعد محمد فاضل بمشورة أصغري وتعيين الابن الأكبر محمد عاقل مكانه.

٣٠. خطبة محمودة

٣١. زواج محمودة

٣٢. نصيحة غالية تتعلق بالأولاد

٣٣. خطاب إلى أصغري